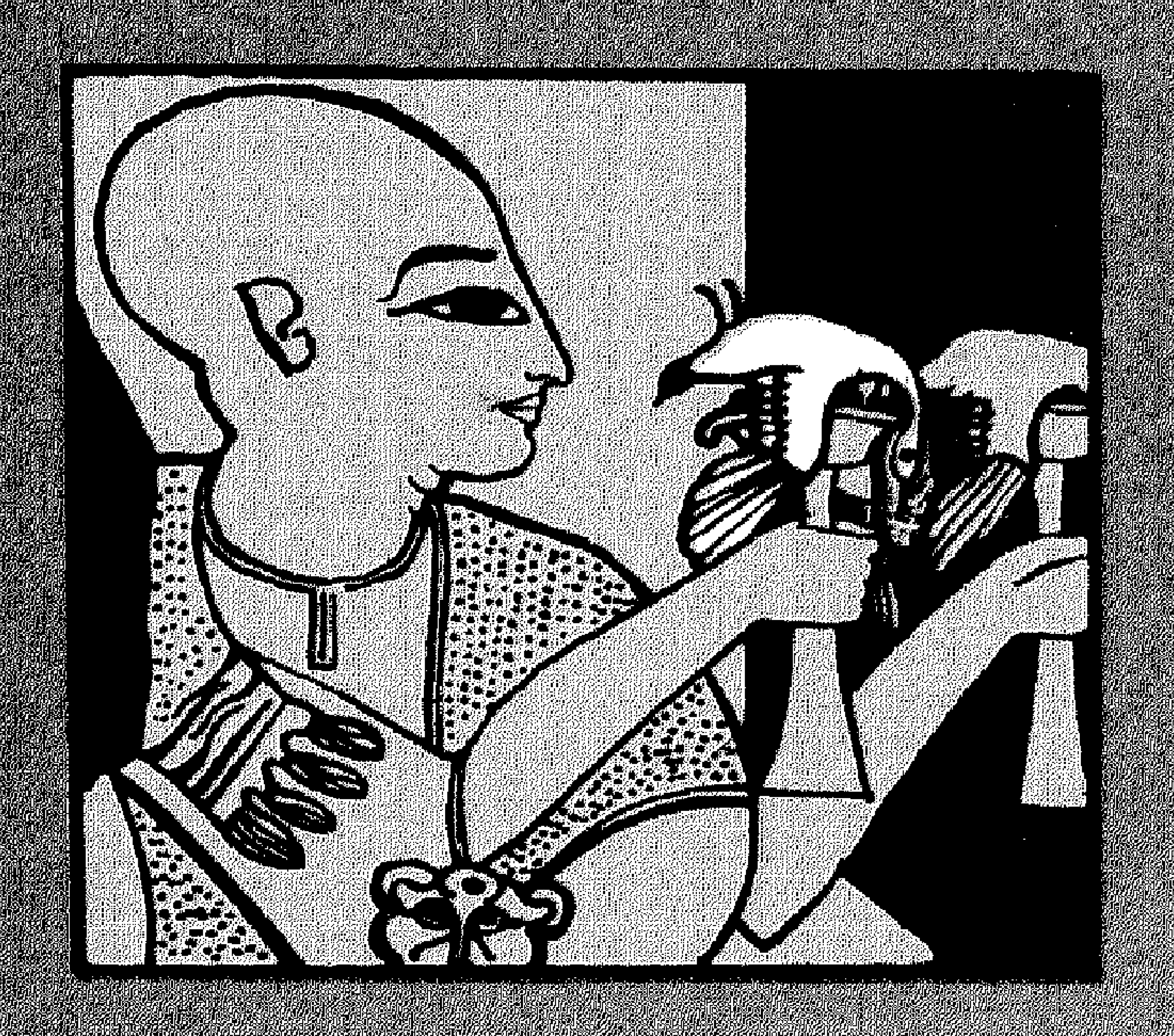
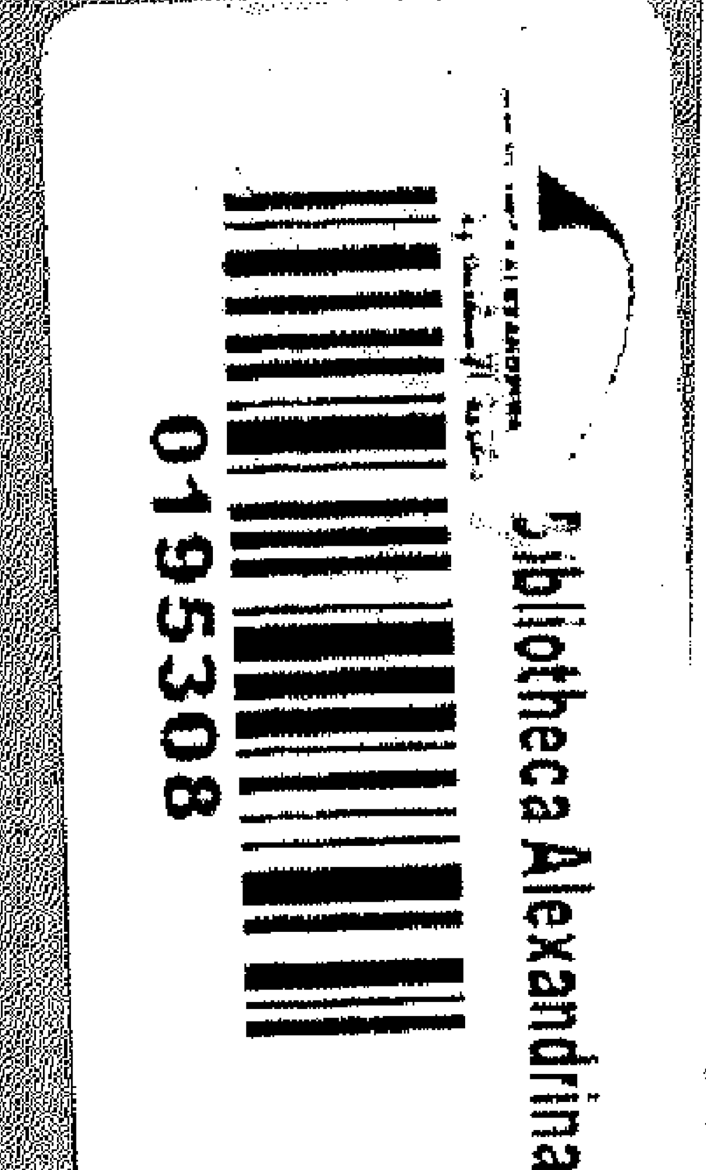


كهان مصر القديمة

تأليف : سيرج سونيرون
ترجمة : زينب الكردى
مراجعة : د . أحمد بدوى



كهان مصر القديمة

تأليف : سيرج سونيرون

ترجمة : زينب الكردى

مراجعة : د. أحمد بدوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

LES PRETRES
DE L' ANCIENNE EGYPTE

par

SERGE SAUNERON

مقدمة

فى انتظار السائح على شواطىء النيل مفاجأتان ، المتحف المصرى ليعرض بين يديه روائع الفن المصرى ، ذلك الفن القديم قدم التاريخ ، الجميل الكامل الجمال بحيث يفوق فى ذلك سائر ما أخرجت للوجود حضارة الاغريق وما تلاها من حضارات أخرى فى أبهى عصورها . والثانية حين تمضى به أيام الزيارة ليطلع على آثار السلف من آل فرعون وليرى أنها انما انشئت كلها لأغراض دينية ، فهو حين يسعى بينها متنقلا من روابى الجيزة الى صخور الشلال ، وبين ظلال النخيل فى منف ، وفى وادى الملوك الجاحم ، أو فى هدوء اللون بجزيرة الفيلة ، ذات الأشرعة البيض - يواجه تلك الحقيقة فى كل ما يشهد من أثر وفى كل زورة متكررة لهذا الأثر .

فالأهرام ، ودور العبادة وقبور الموتى وسائر ما أقيم « من أجل الخلود » بل كل ما ثبت لعوادى القرون كان من أجل عبادة الأرباب ، والأمل فى تخليد البشر ٠

والغالب أن حب الخلود لم تتضح آياته بمثل هـذا البيان وبمثل هـذه القوة البالغة المؤثرة فى أى بلد آخر ٠ فالدور والقصور وسائر ما خصص لأغراض الحيـاة الدنيـا من عمائر ، قد كانت كلها مؤقتة يكفى لبنائها اللبن ، ولذا نجـد أنه لم يتبق من عمائر الدنيا شىء أو ان ما بقى منها شىء يسير ٠

فأما فيما وراء هذه الدنيا وهناك حيث يستطيع الأحياء أن ينطلقوا بآمالهم وراء الخيال الحلو بحثا عن النعيم فيما وراء هذه الشكول المخلوقة التى يبتلعها الظـلام اذا ما كان الليل ليلفظها اذا ما كان الصـباح مجددة الطفولة ، ٠٠ هناك يستأنف الناس محاولة احساسهم بالمجهول وآمالهم : فيه يلتمسونها فى عالم لا نهـائى لا حدود فيه للزمان والمكان ، هناك حيث تظهر الآلهة – ومن تبعها من المؤمنين الذين بلغوا رحابها – على الغامض من تلك القوى التى سبقتهم الى هذا العالم ، فيظلون فى سرور دائم ونعيم مقيم وشباب لا يدركه مشيب ٠

وهم من أجل تلك القوى الالهية ، وفى سبيل ما تخيلوا من كائنات لا صلة بينها وبين الزمن ، قد رأوا من مقتضيات ذلك تشييد منازل تبقى ما بقيت الأرض التى تحملها ٠

فالأهرام ودور العبادة لديهم لا تزول ، وانما تظـل كالأوتاد التى قدت منها الصخور لبنائها ، والقبور التى نحتت من الجبـال ينبغى أن تشارك صخورها فى الخلود ٠

وأول ما يفيق عليه السائح من دهشته تلك التى أخذته من جميع أقطاره هى تلك الحقيقة التى لا يعتورها لديه شك ، وآيتها أن المصريين القدماء قد كانوا أكثر الناس دقة فى التدين ، وتلك مع ذلك معاينة لا تكفى لتقديم مفاتيح الكشف عن حضارة الفراعنة • فالخطر ـ على ما أفاد السائح من زيارته ـ شديد ان هو تصور أن المصريين القدماء جد قريبين منا •

وقد لا يكون هناك شك فى أنه ليس هناك ما هو أكثر عصرية من تلك الرءوس الآدمية المشكلة من الحجر ، والتى وجدت فى مصاطب الدولة القديمة ، ولا من ذلك التمثال النصفى للملكة « نفرتيتى » ، بل ليس هناك ما هو أشد حيوية وأصدق انسانية من صور مناظر الحياة اليومية التى تنتشر على صفحات القبور فى جبانة صقارة وجبانة طيبة فى أطر مطمئنة ، بل ربما لا يكون هناك كذلك ما هو أشد ايلافا من ذلك القصص الشعبى على شواطىء النيل •

ويجب كذلك أن ندخر فى تصورنا أن المصرى القديم قد كان انسانا يشبهنا فى كل شىء ، وأن لحضارته أسسا تشابه ما لحضارتنا من أسس • وأن خواطره فى عالم لم يتم ادراكه بعد ، قد كان تصورا سابقا لما سيكون عليه التفكير الحديث •

ولكى ندرك حقيقة مصر القديمة يجب علينا أن نجرد أنفسنا من فكرة الوقوع فيها على ثقافتنا وميولنا •

بتلك المقومات الأساسية لحياته الفعلية ، وبعدم قدرته التى لا يمكن اخضاعها لمجال الفكر المجرد ، وباعتقاده الساذج فى كمال عالم خلق للبشر وصور على قده •

ونريد أن نتحدث عن حضـــارة البحر المتوسط فنسلك فيها كل ما هو جميل وجليل من تراث الأجيال حول هذا البحر . ولكن حين يبلغه النيل بمصابه السبعة ، يبلغه مخلفا من ورائه على البعد حضارة مصر بكل ما فيهـــا من مظاهر أصيلة . والبحر المتوسط بالنظر الى ما حوله من أقاليم فينيقيا وقرطاجه واليونان وروما قد كان مجمع لقاء وملتقى صلات بشرية وسبيلا للبدل والتجـــــارة والغزوات الحربية ؛ بل كان مركزا يتوسط عالما يتطلع بعضـــه الى بعض من شاطىء الى شاطىء .. فأما بالنظر الى مصر فقد كانت على العكس من ذلك تعتبر حدا لعالم أفريقى . ولقد نجد ـ لذلك فى تجليات Ogotemméli أو «فلسفة البانتو» ـ ما يمدنا ببعض العناصر القيمة التى تعيننا على ادراك بعض مظـــاهر التفكير الدينى فى مصر القديمـــة ، وعكس ذلك ماثل فيما يختص بمطالعات أفلاطون فنحن لا ننتظر منها فى هذا المجال شيئا يذكر ، أو قد نتوقع أقل القليل .

ونحن نخطىء كذلك أشد الخطأ حين نرى فى الحضارة المصرية مرحلة غير كاملة للتطور البشرى فى العصـــور الاغريقية اللاتينية ؛ بل يجب على العكس من ذلك أن ندرك أن الأمر أمر تطور بشرى ينفصل انفصالا تاما عن تطور البشر فى الغرب ، وأنه من ثمار حياة مجتمع لاصلة بينه وبين مجتمعنا وان كان قد اســـتطاع أن يخرج فى مجال الحضارة نتاجا يعادل فى قيمته نتاج الحضارات الأخرى .

ولو رضى السائح بالتخـــــلى عن غروره العصرى بعض الوقت ، ونسى المقارنة بين معبد الأقصر والكاتدرائية

وبين فرعون ورئيس دولة عصرى ، أو بين ضريح فرعون وقبر نابليون ؛ نقول : لو رضى بذلك بعض الوقت فى سبيل فهم ما كان من أمر العقيدة المصرية لاستطاع اذن أن يدرك أن تلك الكائنات المقدسة التى عبدت فى مصر لا يمكن أن تشارك فى غير التافه اليسير من أمر أرباب أولمب وشعر النبى عند الاغريق وشعر النهضة (أيام القرن السادس عشر) ، وانها قد تشارك باقل من ذلك ارباب اليهود والنصارى والمسلمين • وسوف لا يدهشه بعدئذ أن يرى فى القبور تمجيدا لقوى الحياة ، والقوى المقدسة التى تتجلى فى كل شىء يقدر على الحركة والعمل وانه لمستطيع كذلك - وهو ينتقل بين دور العبادة - ان يدرك كل ما كان هذا العالم الرائع - وان يكن غير ثابت - يقتضيه من ضرورة اليقظة والعناية ليحتفظ بثباته الأصيل .

على ان هناك اكثر من سبيل للنفاذ الى صميم حياة المصريين القدماء ، وفى كل منها صورة من مظاهر حياتهم اليومية أو بعض الخطوط الرئيسية لتقاليدهم ، أو بعض أحداث من تاريخهم القومى •

الباب الأول

فِكَرٌ مستوحاة من نصوص قديمة غير مختارة

فكر مستوحاة من نصوص قديمة غير مختارة

من الزائرين الجوالين فى المتـاحف لم يقف لحظـات أمام تماثيل الكهان الرائعة التى أبرزتها للوجود عصـور الفن المصرى الأخيرة ؟ فوقار الهيئة ، وكمال الصنع وجمال المـادة سواء كانت من البريشيا أو من اردواز داكن اللون ، كل أولئك قد جعل من هذه التماثيل صنعة فريدة فى نوعها ولكن ما قيمة هذا التوفيق تجاه ما تخفى هذه الوجوه المثيرة من أسرار ، وأى أفكار تختفى تحت هذه السمات الهادئة ، وأى مشـاهد طالعتها تلك العيون الرانية التى لا يسعفها بالحيـاة شيء من ضوء جوانى ؛ وحين نقلب فى النصـوص مسرعين تطالعنا صور من صيغ المديح مثل : « كان رجلا أمينا على ما يرى (= حفيظا على سر ما يرى) عالما (= عارفا) قادرا (على أداء) وظيفته ، محبوبا من مواطنيه ، مرموقا ، تحفظ له مدينته قدره مدللا عند ابيه ، وأثيرا عند أمه ، وحبيبا لدى اخوته ·· تتردد تلك العبارات الجميلة ، على سائر التماثيل وقواعدها · وقد تتغير ألفاظ التعبير أحيانا بقصـد

تمجيد بعض المظـــاهر فى ترجمة المتوفى ، وان كانت جميعهـــا تؤكد ما كان له من سمو الصـــفات الاجتماعية ورقى المشـــاعر الروحية .

وهكذا ينبعث أمام أعيننا طرف من الحياة القديمة ، فتصبح تلك الصـــور الجامدة ـ وهى تمسك بين أيديها تمثال الهها وتشده اليها (تضمه اليها) فى حب أكيد ـ وكأنهـــا من لحم ودم ، وينم وقار الوجوه بما ارتسم عليها من بسماتها الرقيقة ، عن روح صفو يتجه كله نحو أمور ما وراء الموت والاستماع المتصل الى التعاليم المقدسة ، وانه ليبدو كاننا نستمع الى الكاتب الاغريقى القـــديم (Porphyre) وهـــو يصـــف ـ فى اعجـــاب ـ الكهان على ضفاف النيل فيقـــول : « انهم يبلغون بتأملهم ما ينبغى لهم من التقدير » واطمئنان النفس وتقواها ، وهم يصـــلون بالفكر الى العـــلم ثم « بالاثنين معا (= بكليهما) الى ممارسة السلوك الممتـــاز الذى سنته أساليب الماضى » ، والاتصـــال الدائم بالعلم والوحى المقدس يصفى النفس من البخل « ويكبت فيها جماح الشهوات ، وينشط حيوية الذهن ، ثم هم يتوخون البساطة ، فى كافة مظاهر الحياة من طعام ولباس ، ويميلون الى القناعة ، وخشونة العيش ، والعدل والزهد فى كل شىء ، خطواتهم محسوبة (= مقدرة) ونظراتهم متواضعة وهادفة ؛ لا انحراف فيها الى يمين أو شمال . والضحك نادر لايكاد يعدو الابتسامة ، (= لا يعـــدو أن يكون ابتساما) وأيديهم مختفية دائمـــا تحت مسوحهم . فأما النبيذ (الخمر) فمنهم من لا يشربه اطلاقا ومنهم من لا يصيب منه غـــير القليل ، ذلك لأنهم يقولون : ان الخمر تؤذى الشرايين وتدير الرأس فتفقده القدرة على التصويب Porphyre, de abst. IV, 6-8

وظاهر ان ما يحســـه الزائر امام التماثيل ، وما شـــهد به (Porphyre) يقـــدمان لنـــا صـــورة جـــذابة للكاهن المصرى وأمام الانجـــازات الفنية فى وادى النيل ، ومعابده ، وأهرامه ،

وامام وضوح الاعتقاد الدينى الذى نستشف مظاهره من كل ما ينتزع من رمال مصر .

وان المرء ليسره أن يستحضر ذكرى طائفة من عظماء الرجال الذين كرسوا حياتهم للعمل والتأملات الالهية بحيث وجد لديهم رعايا الفراعنة القدماء — على الدوام — الهاما لفنونهم وتوجيهـا لحياتهم . أفلا يكون من المنطق بعدئذ ان تنظر فى حياة الكهان على ضفاف النيل وفى ثقافتهم والبواعث الجوهرية التى ألهمت القوم ذلك القدر . الهاما ممثلا فيما بقى حتى اليوم من تراث الدولة القديمة فاذا ما قلبنا فى صفحات التاريخ القديم ، ونظرنا عابرين فى ما جاء فى الألواح والآثار الدينية ، واستعدنا قراءة روايات الرحالة الاغريق والرومان الذين ساحوا فى مصر خلال عشرين قرنا قبل أيامنا ، فسوف نحاول آن نستظل مندسين بجوار أولئك الكهان ، الذين مازلنا نراهم غامضين ، ولسوف نمضى مع أفكارنا فى حذر وكتمان فى آن معا ، أملا فى لقائهم ، نتبعهم محومين كما تفعل أرواح المصريين القدماء فتأتيهم فى هيئة الطير ، وتلبث بجوار أشخاص كانوا يؤلفون فى الماضى ، وسيكون « بتوزيريس » الحكيم أول من نرافق منهم .

حياة بتوزيريس المثالية :

هناك فى مصر الوسطى وبالقرب من « ملوى » مدينة عريقة ضاربة فى القدم كانت مكرسة للمعبود « توت » . (وهى) هرمو بوليس الكبرى وتراثها مطمور فى أكوام من الأطلال تضم مختلف جدران من اللبن ، وطائفة من الأبنية الفرعونية وقد

غمرت المياه جزءا منها · ثم بازيليكا رومانية كبيرة وجميلة ـ وتحت باسقات النخل يقع ذلك المكان المقدس أى الأصيل ذلك الذى انبعث منه الحواة وانفقست عليه البيضة الأولى مهدأ لأنه الشمس ·

هناك عاش الحكيم بتوزيريس فى أواخر عهد مصر الفرعونية (اى مصر الحرة) وقبيل وصول الاسكندر الأكبر (بين ٣٥٠ ـ ٣٣٠) · وكان (بتوزيريس) شخصية رقيقة فى المدينة ، يحمل من الألقاب أكثرها تقديرا : « كبير الكهان » الذى يرى الاله فى ناووسه ثم يحمل ربه ويتبع ربه وينفذ الى قدس الأقداس ومارس وظائفه « الكهنوتية » مع كبار الكهان كاهنا للأرباب الثمانية الأوائل (الثامون) ورئيسا لكهان « سخمة » ، ورئيسا لكهان الطبقة الثالثة ـ والرابعة ، وكاتبا ملكيا أى وزيراً وحسيبا على أملاك معبد هرموبوليس كافة ·· الخ » ·

وقد جرت حياته كلها فى سبيل التقوى منشغلا بخدمة الاله واصلاح العمائر المقدسة فى اقليمه ومثالا صالحا لمن يحيون حياة الطهر · وحين وفاته دفن فى صحراء هرموبوليس وسط أمواج الرمل الأصفر ، وغير بعيد من المكان الذى كانت ترتع فيه القردة وقبور أبى منجل البيضاء ؛ وكانت من مقدسات المعبود « توت » ·

وفى أحد أيام الشتاء من عام ١٩١٩ عثر على مقبرته وكانت قد أقيمت على غرار معبد تغشى جدرانه طوائف عديدة من النقوش والنصوص وتدل بعض المخربشات التى تركها الزائرون الاغريق على صخور المنطقة خلال القرنين الثالث والثانى ق·م على أن كبير كهان توت كان لا يزال ذائع الشهرة ، معروف الفضائل يومئذ وان ذلك قد تجاوز حدود مدينته الضيقة . جاء فى أحد تلك النقوش، « اننى أدعى « بتوزيريس » ، الثاوى جسده تحت الأرض ، على

حين تستقر روحه فى رحاب الآلهة ، وأنا حكيم يجتمع (يتحد) مع الحكمـاء » .

وتكشف نفوش مقبرته طائفـة من الفكر مسـتوحاة من الفلسفة والدين تقـارب بشكل ملحوظ فى الفكر والعبـارات المصوغة بها ما فى التواره من الأمثال والحكم ، ثم المزامير وتقرب قليلا فى أسلوبها من الكتب المصرية القديمة فى الحكمة ، مثـل كتاب « بتاح حتب » وآنى ٠

ولو أعيد جمع نصوص مقبرة « بتوزيريس » لكان من الممكن أن تزودنا بما يصح أن نسميه « مجمع الحـكم » التى خصصت للأحياء لتشرح لهم ما فى الحياة الدنيا والآخرة من منافع وخيرات يهتدى اليها أولئك الذين يخشون ربهم ، ويهتدون بهديه ويأتمرون بأمره ٠

ولنقرأ اذن معا هذه النصوص الأربعة الهامة التى قام بجمعها العالم الذى كشف عن المقبرة وقام بنشر محتوياتها من النصوص فى دقة واتقان ونعنى جوستاف لوففر M.G. Lefebvre ٠

« ألا أن من يمشى على نهجك لا يتعثر ، فمنذ وجـودى على هذه الأرض الى اليوم الذى وصـلت فيه الى (بلغت فيه) عالم الرشد وحديثى خلو من الضلال » ٠

أيها الأحياء ٠٠٠ لو وعيتم ما أقول ، واتبعتموه ، فسـوف تفيدون منه خيرا ، ان سبيل من يخلص نفسه لله فيه صـلاح ، وطوبى لمن يهديه قلبه اليه ٠ ولسوف أنبئكم بما وقع لى ، واجعلكم تدركون (الحكمة) مما يريد الله ٠ وسأعمل على ادخالكم فى مجال الروحانيات الربانية ٠ واذا كنت قد بلغت هنا مدينة الخلد ، فقد كان السبيل الى ذلك أننى عملت صالحا فى الدنيا ، وأن قلبى قد هوى

الى سبيل الله منذ طفولتى حتى اليوم وكان توفيق الله يلازم نفسى طوال الليل ،كما كنت أعمل طبق أمره من مطلع الفجر ، ولقد مارست العدل وكرهت الظلم ، ولم أعاشر من ضلوا سبيل الله ٠٠ ولقد فعلت هذا كله لأنى كنت واثقا من اننى سوف أصير الى الله بعد مماتى ، ولأنى آمنت بمجيء يوم قضاء العدل ، وهو يوم الفصل، حيث يكون الحساب .

أيها الأحياء لسوف أجعلكم تعرفون ما يحب الله ويريد ، ولسوف اهديكم سبيل الحياة الحقة ، وهى السبيل الصالحة لمن أطاع الله ٠٠٠ طوبى لمن يهديه قلبه اليها ٠ وان اطمان قلبه الى سبيل الله اطمأن مكانه فى الأرض . الا ما اسعد من ملأت خشية الله قلبه فى الدنيا ٠

ان من الواجب سلوك سبيل الله ، ذلك لأن الخير الذى يصيب من سلك هذه السبل كثير من اتبع سبيل افى فقد أقام بنفسه لنفسه على الأرض بناء لذكراه ، ومن يلزم سبيل الله يمضى حياته كلها فى بهجة ويفيض عليه الخير أكثر مما يفيض على سائر أقرانه ، ولسوف يعمر فى بلده وانه لموقر فى اقليمه ، ولسوف تترعرع أعضاء جسده ، فتصير كأعضاء جسم الناشيء (الصبى) ولسوف يكثر صغاره فى عينه عددا ، ويكونون الأوائل (= المقدمين) فى بلدهم ، ويتتابع ولده جيلا بعد جيل . واخيرا يبلغ الجبانة فى غبطة كاملة فى أجود تحنيط من صنعة أنوبيس « على حين يبقى ولد ولده فى مكانه و ٠٠ ألا انك سلكت سبيل معلمك « توت » وهو بعد أن كتب لك ما أراد لك أن تنال فى الحياة من خير ، سوف يجزيك مثله بعد مماتك » ، وبعد فتلك تحف من الروائع ٠ فمن استطاع أن يترجم خواطره الرائعة على هذا النحو فقد وصل الى حياة روحانية مرموقة ، ومع ذلك لم تكن مدينة هرموپوليس الكبرى فى منتصف القرن الرابع ق٠م من أهم مدائن

مصر ، وكان المجتمع الديني فيها جد محدود وبيوت العبادة مهجورة ولذلك فان المجال المادى لتربيته وقرب المدارس الدينية التى كان من الممكن أن يروقه أسلوب التعليم فيها غير كافيين لتفسير ما فى تقواه من سمو ، وما فى حياته السلوكية من كمال • أليس من المدهش أن تبلغ الحمية الدينية كاهنا مثل هـــذه القيم الروحية دون التأثر بأى تقليد كهنوتى فعلى •

ولم يكن الأمر كذلك ــ مع الأسف ــ على الدوام ومن هنـــا يجب الاعتراف بأن پتوزيريس وبعض الشـــخصيات الأخرى التى وصلت الينا تراجمهم ، انما تميزوا فأشرقوا فى مجـــال باهت نوعا •• والواقع أننا لا نـــكاد نعرف عن الكهان المصريين غـــير أسمائهم وثبت ألقابهم ولكننا لا نستطيع أن نذير شيئا من الحديث حـــول حياتهم أو ما يبـــدو في سلوكهم من التقوى • فنحن نستشف أحيانا من خـــلال بعض الحوادث من المحفوظات البردية بعض مظاهر الحياة الكهنوتية تخالف تماما ما كان يمكن أن نتصوره، فقد يكون المظهر بهيجا الا أن جوهره محزن ويدعو للرثاء فى آن معا • فاذا ما نظرنا الى أكثر الكهان فى مصر ورأيناهم عمالا مكرمين، مدركين أهمية واجبهم ، مهتمين بانجاز هذا الواجب فى أمانة وحرارة ايمان ، واذا ما بان لنا أن هذه الطائفة كان فيها أحيانا قديسون أو شبه قديسين ، فجدير بنا أن ندرك أنها لم تكن تخلو بين الحين والحين من شخصيات عجيبة ومرذولة فى آن معا •

وينبغى ألا يخفى علينا أسلوب اختيـــار الكهان المصريين ، فقد كانت الأسر العريقة التى تربطها التقاليد بحياة مدنها الدينية تقدم بين أجيال الكهان طوائف من الصادقين فى ايمانهم ، المؤمنين بجـــلال وظيفتهم وبقداسة الخـــدمة الربانية • على أن وظائف العبادات لم تكن كلها تشـــغل بنفس الطريقة • فلقد كان يكفى أحيانا أن يكون الكاهن الجديد من ذوى الحظوة لدى الملك ليعين

فى وظيفة شرفية فى أحد المعابد البعيدة . فماذا ترى كانت قيمة ما يدرك هذا الكاهن من واجبه وتحمسه للعمل على أدائه ؟

وقد كان يكفى فى بعض الأحيـــان أن يكون امتلاء المحفظة كفيلا بشراء وظيفة الكاهن ليستمتع فيها ـ دون عنــــاء ـ بربح يرضى .

ولا ينبغى أن ننسى آخر الأمر شيئا هاما وهو أن هؤلاء الكهنة لم يكونوا يمارسون وظائفهم الا لمدة زمنية محدودة قد تبلغ ثلاثة أشهر فى العام ؛ نتيجة لتعاقب الطوائف العاملة . وخــلال الثلاثة الأشهر التى كانت تفصل بين كل شهر وشهر من أشهر العمـــل كانت حياة الكهنة المدنية البحتة تسير بعيدا عن مذابح القربان . فبماذا اذن كان يتميز هؤلاء الكهنة عن غيرهم من سكان قريتهم ؟

ان النبذات القليلة التى سنذكرها عن الحوادث الآن لم تجمع لهدم الفكرة الرائعة التى قد نميل للاحتفاظ بهـــا عن (الكاهن المصرى) ، بل ان هذه النبذات قد تجنبنا التعميم العاجل .

فالكهنوت المصرى كانت وظيفته مدنية مباحة الى أبعد الحدود، الى الحد الذى جعل منه مرآة تعكس كل مظـــاهر المجتمع الطيب والسيء ، ومن ناحيـــة أخـرى فان الكهنة لم يكونوا **أصـــحاب رسالات الهية لمن يتبعونهم من الاتقياء** ؛ بل كانوا مجــــرد منفذين لطقوس دينية يومية كانت تتم بعيدا عن عيون الجماهير . وسوف نرى أنه كان للمرء أن يكون على حظ ضئيل من التأهيل يتيح له الانخراط فى سلك « المطهرين » . وقـــد يفسر عدم الاختيـــار لتلك الوظائف بعض الفصول العجيبة فى تاريخ الكهنوت .

وقد يفسر لنـــا عدم الاختيـــار لتلك الوظائف بعض الفصـــول العجيبة فى تاريخ الكهنوت .

فضيحة الفنتين :

فلننتقل الآن الى جنوب مصر بالقرب من الشـــلال ، حيث المدينة المعاصرة «أسوان» التي حلت محل الوكالات التجارية القديمة والتى كانت تصل اليها كنوز أفريقيا • وفى الصخور الربية تنفتح مقابر أمراء الدولة الوسطى مشرقة • والى الجنوب يتراءى خزان أسوان من وراء جزيرة فيلة كزهرة الماء يغمرها الفيض كل عام • وفى الجبل الجرانيتى تقع المحاجر القديمة التى قدت منها المسلات والتماثيل • وفى وسط النيل جزيرة صغيرة جدا مازالت تحمـل بعض الأطلال وقرية لطيفة وساقية تدور تحت ظلال النخيل • وعلى هذه الجزيرة الساحرة حيث تتهاوى الزوارق ، كان يقوم فى الماضى معبد للاله « خنوم » الكبش سيد الجندل وحارس الخزانات التى تقع تحت الأرض حيث كان الفيضان يتفجر فى الوقت المناسب . وسنعيد هنا فتح ملف قضائى عمره ثلاثة آلاف سنة • اذ أن هذا المعبد الهادىء الذى كان تحت حـــكم كل من رمسيس الرابع والخامس (١١٦٥ ـ ١١٥٠ ق٠م) قد شهد مآسى مظلمة •

ترى كيف كانت الظروف ؟ يمكن تلخيصها فى بساطة : كل شىء كان سيئا • اذ كانت مصر قد شـهدت ازدهارا كبـيرا بعض الشىء فى ظل آخر الملوك الكبار « رمسيس الثالث » بعض عشرات السنين قبل أيام رمسيس الرابع والخامس • ولكن كان هـذا الملك العجوز قد قضى فى الغالب بسبب احدى مؤامرات حريمه ومنـذ ذلك الوقت سارت البلاد بغير زمام يحكمها ملوك لا يملكون سلطة حقيقية ويحكمها فى واقع الأمر أولئك الانذال الطامعين الذين كانوا يرون فى الكساد القومى فرصة للقيام ببعض « الأعمال » المربحة لهم •

وكانت أسوان تعيش خاملة ؛ فمنذ فترة اختفى مرور القوافل النوبية الغنية المحملة بالذهب والعاج من بلاد الجنوب والتى كانت

فيما مضى زاهية تتألق فيها ألوان الأقمشة البربرية وريش النعام التى يحملها أفـــراد من الرنج يزدانون بالذهب ، والحيـــوانات الغريبة من قرود وزراف وفهـــود كانوا يجلبونها من الغـــابات الافريقية هدية لفرعون ، وكانت التجـــارة قد أصيبت بضـــعف وكانت تلك القرية الصغيرة تغط فى نومها وعلى العكس من ذلـــك كان معبد الاله خنوم لا يزال على ثرائه نتيجة لكرم الملوك منذ عدة سنين مضت ٠

فى هذا الاطار الهادىء المستكين الى حد ما ، قام بعض الأشخاص من الفجـــرة بالبحث عن الثروات ٠ وكان بعض كهنة معبد خنوم الذين اتبعوا فى نشاط قائد عصابتهم « بن عنقه » وواحـــدا من البحارة العتاة ٠

وقد اشترى هؤلاء الأشقياء المعنون فى الشر السلطات من الكتبة ورئيس الشرطة بعض اســـلابهم وأثاروا الرعب فى المدينة بالضجة التى أثارتها جرائمهم ٠ ومع ذلك فبعد مضى بعض الوقت أخذوا بجرائمهم وقد عثرنا على تفاصيل فظائعهم فى الملف القضائى الذى حرر فى هذه المناسبة وهذه هى بعض وقائعه ٠

بدأت الحـــادثة بالقرب من المعبد : فقد قرر « بن عنقه » رئيس العصـــابة ان الحيوانات المقدسة لم تعد بذات نفع لذلك فقد باعها بثمن غال لكهنة ولأشخاص من العسكريين المجاورين ثم حدث أثناء رحلة الى طيبة أن اقحم فى أمر غامض يدور حول نبوءة الاله مما سبب له بعض الفشل ٠ وحتى يرفه عن نفســـه أسرع فأغوى مواطنتين متزوجتين ٠

ولقد كان من الممكن اعتبار كل ذلك ضربا من العبث المقبول الا أنه لم يلبث حتى قام بعـــد ذلك ببعض أعمـــال جادة فلم يـــكن المعبد يخلو من كل أنواع الثراء الذى كان فى نظره عديم الفائدة كوجود القطيع من الحيوانات المقدسة لابن عنقه ممـــا سبب له

الا أنه لم يلبث أن قام بعد ذلك ببعض أعمال جادة فلم يكن المعبد يخلو من كل أنواع الشراء الذى كان فى نظره عديم الجدوى ، ومن ذلك وجود قطيع من الحيوانات المقدسة لابن عنقة فسطا على تميمة ثمينة كانت فى المعبد ، وغلى كل محتويات صندوق ثمين ، كما أفـــرغ خزينة الأقمشة مما فيها • وحين انتهى من ذلك وظهر سخط الكهان بادر بالاتفاق مع شركائه فى الجريمة على تغيير العاملين فى المعبد ، وأبدلهم بكهنة أوسع صورا بالنسبة لمشاكل الساعة ، ويدل بعض الذين اعترضوا وقطع أذنى أحدهم وفقأ عينى آخر واستولى خلال ذلك كله على عشرين ثورا كانت من وقف المعبد ثم أشعل النار فى بعض الأبنية ليحتفظ بحالته النفسية جيدة •

أما الكهنة الآخرون وقد كانوا لا يملكون شيئاً من وسائل العبث المليئة بالحيل المختلفة والتى كانت سر اعجاب الناس بزعيمهم ؛ بل كانوا على العكس من ذلك يتميزون بعقلية عملية جادة فى آن معـا فعمدوا الى خطف ما كان فى خزينة الالهة « عنقة » ، وتراءى لناظر المعبد الذى كان يقوم بدور المدير ، ان من الخير أن يظهر غضـبه الا ان قسطا ضخما من الكسب جعله يرى من الخير أن يتسـاهل وازاء مثل هذا الاغضاء من الأوساط الرسمية أخذ الكهنة يعزون أنفسهم عن فقد ما اضطروا الى تسليمه لزعيمهم بكسر أختـــام خزينة الاله ، وأخـــذوا يغترفون منها فى غير حرج أكياس القمح وقطع القماش والملابس ومهمات أخرى سرعان ما وجدوا السبيل الى الافادة منها •

ومع ذلك فلم تبق البطولات بدون صدى ؛ فقد بلغت احتجاجات من كانوا ضحية هذا العبث المنكر أولى الأمر ، فأجرى تحقيق حفظت لنا نسخ منه • ولكن كيف كان حكم القضـــاء ؟ ان النص لم يفصح عنه مع الأسف ، ولكن بعض المخربشات المنقوشة على صـــخور الجندل الأول خلال السنوات التالية تبين أن بعض الكهنة الذين

ذكرت أسماؤهم خلال القضية وأدينوا بشكل قاطع ، لم يتسبب ذلك فى القضاء على سيرتهم اللامعة ٠

لم تكن الصلاة ولا التأملات الدينية اذن هى وحدها التى تشغل بال الكهنة المصريين ٠ ونشعر من أجل ذلك بأننا بعيدون عما قرره بورفير وعن الطمأنينة التى أحسسناها من قبل ونحن نقرأ على قواعد تماثيل الكهنة تراجمهم المقدسة ٠

واذا ما ادخرنا بعض الريبة من ذلك المظهر الذى لا ينتظر من حياة الكهان ، فما أسرع ما يزول ذلك عندما تطالعنا سيرة أسرة پتيزيس ، فقد كانت مثلا طيبا يحتذى ٠

كوارث پتيزيس :

حوالى عام ٥١٢ ق٠م ٠ خطر لشخص اسمه پتيزس وهو سليل احدى الأسرة الكهنوتية ـ وكانت فيما مضى ذات سلطان واسع ـ أن يكتب تاريخ الخصام الذى قام بين أسلافه والكهنة الاقليمين للاله آمون قرابة قرن ونصف قرن ٠ وقصة ذلك طويلة جداً وكثيرة التفاصيل وها هى تفاصيلها الكثيرة موجزة فى كلمات قصار ٠

ارتبطت عائلة پتزيس من الأصل بالكهنوت الطيبى ثم جاءت لتستقر فى قرية صغيرة من قرى مصر الوسطى وهى « توجوى » المعروفة الآن بالحيبة حيث كان يوجد معبد للاله آمون ٠ وقد كان ذلك أثناء حكم الملك پسماتيك الأول (٦٦٣ ـ ٦٠٩ ق٠م) وهناك عاشت الأسرة من الرواتب المخصصة للوظيفة الكهنوتية الرسمية التى كان صاحبها الشرعى ـ وهو موظف كبير من أهناسيا ـ قد منحها حق الانتفاع بها ٠

ومن هنا جاءت فى الواقع كل المصائب ذلك لأنه قد كان فى

مصر فرق واضـــح بين نوعين من الرواتب المكتسبة من الوظائف وحدها ؛ فهى اما ملك خاص لشاغلها أو انها عبء مؤقت بتكليف من الملك • وفى الحالة الأولى تكون الفوائد التى تعود من الوظيفة ملكا خاصا لمن يقوم بمهامها ، وله الحق في أن يتصرف فيها كيفما يشاء ، سواء ببيعها أو نقلها الى ورثته • وعلى العكس من ذلك تظل الفوائد التى تعود من الوظيفة الثانية مرتبطة بالوظيفة نفسها وتنتقل الى المنتفع الجديد •

الا أن پتزيس وخلفـــاءه لم يتوقفوا عن المطـــالبة بحقهم فى الرواتب التى كانت فى الحقيقة ملكا خاصـــا للموظف الاهناسى الكبير ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال شرعيا • ولكن لم يكن غرماؤه كهنة آمـــون بأحق منه فى المطالبة بذلك ؛ لأنه اذا كان من حقهم سحب رواتب هـــذه الوظيفة من پتزيس ليرجعوها الى صـــاحبها الحق ـ ونعنى هذه الشخصية الأهناسية الكبيرة ـ فلم يكن من حقهم بالطبع أن يأخذوا فى الوقت ذاته لأنفسهم الدخل الكهنوتى الذى كان ملكا خاصا لپتزيس والذى كان من حقه الاحتفاظ به •

ويعتبر هذا النزاع بداية ذلك الصراع الطويل ولم تكن قصة پتزيس لتصبح سوى حلقة من الجدل القانونى غير ذات موضـــوع بالنسبة لنا لو لم تكن يومياتها في حد ذاتها سجلا حيا لمقاومة كل من الخصمين فى سائر أوقات هذا النزاع اللانهائى • وســـوف تقودنا هذه الوقائع بطريقة عجيبة الى أسلوب ممارسة الحيـــاة الكهنوتية فى الأقاليم • وفيما يلى بعض الأوقات الحرجة من هـــذه الحرب بين الأسر • ولنبدأ بمطالع الخصومة : يتمتع پتزيس شرعيا بفوائد الوظيفة التى تركها له صاحبها الأصلى (الموظف الأهناسى الكبير) والى هذه النقطة ليس هناك ضير • ولكن عندما حـــكم پتزيس لصالح زوج ابنته المدعو « حورا وجا » بدلا من أن يحتفظ بها لنفسه أو يردها الى صاحبها ، قرر الكهنة أن يتخلصوا من الدعى

وان يقتسموا بينهم الحصص التى استردوها · « عندما اجتمع الكهنة فى الصباح فى المعبد لتقسيم الغلات بين مختلف طوائفهم حصر ولدا «حور اوجا» وقالا : هلما كيلوا لنا الخمس » (١) .

وهنا تناول الكهنة الصغار عصيهن وأحاطوا بالولدين وأخذوا يضربونهما ضربا مبرحا ، فهرب الشابان الى الهيكل ولكن الكهنة تتبعوهما وللأسف آمسكوا بهما فى مدخل معبد آمون وانهالوا عليهما بضربات متوالية أفضت الى موتهما ، وقذف الكهنة بالجثتين فى مخزن دخل المعبد ؛ فما كان من أم الضحيتين « نيت امحات » الا أن حبست نفسها فى بيتها أما « حورا وجا » الأب فقد تقدم بشكوى الى رجال الشرطة واستدعى حماه ليستعين به ولكنه « عندما وصل هناك لم يجد أحدا » · وكذلك هى الحال فى صعيد مصر الى وقتنا هذا عند الأخذ بالثأر بين الأسر المتخاصمة حيث يهرب الجميع ويختفون فى أمكنة نائية بعد أن يضربوا ضربتهم ويحضر رجال الشرطة بعد فوات الأوان ليجدوا القرية مهجورة ·· فالكهنة كما نرى لم تكن تقيدهم أى مبادىء كما أنهم لم يتراجعوا أمام الحلول السريعة ، وبالطبع لم تقف المسألة عند هذا الحد · فقد قاوم « بتيزيس » بشدة ثم سامح الأشقياء مدفوعا بحبه لمدينته حتى يجنبها هجرة لا رجعة بعدها ، وقد يكون السبب أيضا أنه لم يخف عليه ما فى التدابير التى قام باتخاذها بنفسه من تعسف · ثم مضت السنون فى مناوشات مختلفة الخطورة واستمر كهنة آمون يفكرون فى استرجاع أرباح « بتيزيس » لأنفسهم حتى ولو اضطروا الى أن « يهبوا » جزءا منها الى مستحقها الرسمى · على حين ظلت أسرة بتيزيس متمسكة بالمطالبة بحق الانتفاع الوراثى، على أن الكهنة لم يلبثوا حتى وقعوا ضحية موظف كبير هو المشرف

---

(١) يشير هذا الى الظاهرة التى ستتضح فى الباب القادم ومؤداها ان هناك دائما أربع طبقات رئيسية من الكهنة .

على الأراضى المنزرعة الذى حجر على جزء من ضياعهم · وليسترجعوا « حقوقهم » اضطروا الى شراء حماية رجل له مكان فى البلاط ولم يجدوا ثمنا لوساطته سوى وظيفة كاهن كان يشغلها أحد أحفاد بتيزيس ويدعى « اسمتاوى » · وقد تنبه « استماوى » الى أنه قد يتعرض للضغط فيجبر على التنازل عنها بما كان منه الا أن فر من الحيبة · وأحس الكهنة بغيظ شديد لفشل خططهم فاتجهوا مرة أخرى الى الطرق العنيفة « اتجهوا فى اليوم التالى الى منزل « اسمتاوى » وأخذوا كل ما كان يملك ، ثم خربوا بيته وخلوته فى المعبد · ثم استدعوا أحد البنائين ليرفع اللوحة التى كان « بتيزيس » قد وضعها فى المعبد ، ثم ذهبوا بعد ذلك الى تمثالين من الحجر وضع أحدهما فى مدخل معبد آمون والآخر فى مدخل معبد أوزيريس وألقوا بهما فى النيل » ·

وهكذا أصبح اسمتاوى منفيا وبيته مخربا وكان يعلم مدى ما يتمتع به الكهنة من تأييد رجال البلاط الملكى فظل اسمتاوى وابنه بتزيس (ثالث شخص يحمل الاسم نفسه) هاربين بعض الوقت ، اذ ماذا كان يجدى الاحتجاج ؟ فمهما حاول بتيزيس أن يلتمس لنفسه هو الآخر حاميا ، فقد كان من المستحيل المساس بالكهنة وانتهى به الأمر بأن رضى بالاتفاق بأن يقيم مرة أخرى فى الحيبة ، ولكنه لم يستطع استرجاع الفوائد الكهنوتية التى سرقت منه ·

فصل ثالث من تلك المسرحية :

طلب الى بتيزيس بعد مضى بعض الوقت أن يكتب قصة النزاع مع كهنة آمون ، وأن يحدد ذلك الجزء من المسئولية الذى يقع على عاتق الكهنة فى سقوط الحيبة · ولكنه كان يعلم تمام العلم ما ينتظره اذا ما سلط الأضواء على كل هذه القصة القذرة

فنراه يحاول التخلص ويرفض الكلام ثم أخيرا وتحت تهديد الحاكم يكتب تقررا مطولا • ولم طل انتظار رد الفعل من الكهنة ؛ فلم يكد بيتزيس يعود الى الحيبة حتى بدأت عملية الثأر •

« وعندما علم المدير الجديد بما حدث هرع الى المعبد مع أخوته مسلحين بعصيهم ، وانهالوا علينا بضرباتهم القاتلة حتى أشرفنا على الموت ، وهنالك توقفوا عن الضرب وحملونا الى برج قديم بالقرب من باب المعبد ، حيث أخذوا يقضون البناء بغية دفننا تحت اطلال البرج » وفى هذه المرة أيضا يخرج بيتزيس العجوز وقد أضناه الضرب مما اضطره الى البقاء ثلاثة أشهر بين أيدى الأطباء • ولم تكن احتجاجاته سوى صدى محدود ، وتأخر التماسه طويلا • وأخيرا عوقب الكهنة بالضرب وأطلق سراحهم ، وعاد هو الى داره معتقدا أنه سيعيش بعد ذلك فى سلام بعد التسليم ، غير أن بطلنا لا يلبث حتى يلتقى ببعض الجيران الذين ينقلون اليه النبأ السيء « أأنت بتيزيس الذى عاد الى الحيبة ؟ لا خير من اسراعك فان دارك قد أحرقت » •

تلك كانت الاحتجاجات الأخيرة وآخر حملة تأديبية فى الحيبة ويختفى الكهان كدأبهم ويدخل بتيزيس بلدته مكروبا محزونا خافض الرأس غير قادر على الحصول على تعويض أو ضمان لحياة المستقبل • ولا نعلم ما حدث بعد ذلك اذ أن البردية تتوقف عند هذا الحد من القصة •

وقد اكتفينا نحن بهذا القدر من الحديث • ومهما كان الجوهر القانونى للمسألة والطبيعة غير الشرعية لمطالب بتيزيس وأسرته فان الوسائل التى استعملها كهنة آمون لم تكن قطعا تتسم بشيء من السلوك الحميد ؛ فمن سرقة الى استغلال يتستره الكهنوت الى فساد فى طائفة الموظفين ، الى دسائس واختلاسات الى اعمال العنف والقتل اذا اقتضتها أهواؤهم ، تلك خلاصة غنية نخرج

بها من هذه القصة بفكرة غريبة عن حياة رجال الدين فى بعض فترات مشئومة من التاريخ المصرى • ترى ماذا كان يمس سيرة العبادة خلال تلك المشاحنات فى القرية ؟ وكيف كان بلاط المعبود حين يفر جميع الكهنة فى الريف خوفا من رجـــال الشرطة ؟ تلك أمور يحسن ألا نفكر فيها •

وليس من المستطاع أن ننكر أن الحياة الكهنوتية قد كانت بالنسبة لكثير من كهان الاقاليم موضوع ضمان لدخل يؤمن حياة صاحبه المادية ولا تقتضيه سوى بعض واجبات معينة ولا تلزمه بأى شيء معنوى ـ أكانوا يحسون بما بينهم وبين معبودهم من صلة فى غير ساعات الطعام ؟ أكانوا يقدرون لواجبات وظائفهم من أهمية ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يؤكده فقصة پتيزيس رهيبة الى حـــد لا نستطيع معه أن نثق كثيرا بمظاهر التقوى والورع التى تبـدو فى بعض مواضع هذا النص الطويل : « كلما تزدهر انفاسك بحق فان ذلك من اربابك الكبرى الذين فى الحيبة • ان اله طيبـة الكبير آمون يدخل فى المعبد وكم كانت تلك المعجزات التى أخذت بهـــا علما هنـــاك كثيرة العدد » ! وازاء بشاعة الوسائل التى اتخـذت يبدو أن أى بحث فى الحياة الروحانية فيه تناقض غريب •

وبعد تلك الصور التى تبدو جميلة أحيانا ومدعاة للشكوى فى الأغلب الأعم ؛ فقد آن الأوان لأن نبحث عن هواء أكثر نقاوة ، فقد يمكن أن يفرط الكهنوت المصرى فى كل شيء وذلك بسبب طبيعته التى تكاد تكون غير دينية ، وبمشاركة الكهان فى الحيـــاة الدنيوية • وقد ذكرنا بعض أوجه الافراط لتوضيح الجزء البشرى ـ والبشرى جدا ـ فى موقف الكهنة الدينى • ومع ذلك فســـوف نرى أنهم أنفسهم قد كانوا متنبهين الى الأخطـار المحدقة بحياتهم المعنوية • وانهم كانوا يعتمدون كثيرا على المثالية الروحانية فى وظائفهم بغية الانتصار على ما يغرى بالاهمال مما كانوا يتعرضون

له . وهـذه بعض نصـوص معبد أدفو قد تعيننا على تفسـير ذلك التناقض وقد تتاح لنـا الفرصة أخيرا لاسـتطلاع كافة أركان الشعائر المعقدة التى كانت تقام يوميا فى هـذا القدس الكبير . ومن الطبيعى أن الاملال قد كان يحمل الكهنة أحيانا على الاختصار فى تأدية الخدمة الدينية ؛ فلا يقدرون ما لحرفية النصوص من أهمية وقد يغضون النظر عن بعض الاخلال لضبط الوقت الذى ينبغى أن تتم فيه الطقوس المقدسة . وكان على الكهنة ان يتجنبوا الافراط فى هذا الاخلال ؛ فقد نقشت على جوانب أبواب معبد ادفـو (التى يمر بها الكهنة ومواكب القرابين كل يوم) بعض النصوص الجميلة الموجهة الى كهان المعبد . وكانت هـذه النقوش فى مكان ظاهر بحيث تراها العيون بوضوح تستحثهم على ضرورة الدقة المتناهية فى تأدية العبادات ، وتلفتهم الى مراعاة الدقة فى تنفيذ التعليمـات الخاصة بالطهارة وبالصبر أيضا . وظاهر أن بعض الكهنة كانوا يميلون الى أن ينالوا أنصبتهم من القرابين الخاصة بهم قبل انقضاء الوقت المرسـوم فى وهمهم لعين المعبـود أن تمتلىء منها وفى ذلك ما يخالف المألوف من النظام العالمى العام .

« أيها المتنبئون الكهان المطهرون أمناء السر وكهـان الاله المطهرون ، أنتم يا من تمثلون فى حضرة الاله ويا رعاة الشـعائر فى المعبد . أنتم يا قضاة الضيعة ونظارها كافة ، يا من تكونون فى شـهركم (١) .. ولوا وجوهكم وأنظاركم شـطر هـذه الدار التى وضعكم فيها ذو الجلالة الالهية ! انه ليسبح فى السماء ولكنه يرى من فيها . انه ليرضى أن يرى فيها نظاما بالغ الدقة يحكم العمـل فيها . احذروا أن تأتوا عملا معيبا ولا تدخلوا المعبد غـير مطهرين ولا تقولوا باطلا فى حرمه . ولا تكونوا جشـعين ، ولا تتفوهوا

---

(١) يقصد بذلك شهر الخدمة فى نظام الكهنة (المترجمة) .

بكذب . ولا تتناولوا أقداح نبيذ ، لا تفرقوا بين الصغير والكبير .
ولا تطغوا فى الميزان أو الكيل بـــل ادخروا من ذلك بعض الشىء
ولا تتكسبوا بالأمداد !

ولا تحطوا من قدر ما يهـواه عين « رع » ، ولا تكشفوا عما
نقع عليه عيونكم فى المعابد ممـــا ينبغي أن يكون من أسرارها ،
لا تمدوا يدا الى شىء فى حرمها ، ولا تعرضوا أنفسكم لخطر جريمة
السرقة من متاعها ؛ بل صفوا قلوبكم من الانطواء على السوء . ان
المرء يعيش من رزق الاله . وانما يسمى رزقا كل ما يوضـــع
على موائد القربان (ثم يحمل من فوقها الى مكان آخر) انظـروا
(كيف يبحر فى السماء من حيث يرعى العالم الآخر وترقب عيناه
أملاكه حيث يكون انظر : أدفو الجزء الثالث صـــفحة ٣٦١ ــ ٣٦٢
ترجمة Alliot

وهكذا يرى المرء تعدد المغريات وكيف كان الكهان يتحيرون
فى اختيارها . على أنه قد كان من المستطاع أن يكون المرء متدينـا
صارما فى تدينه خلال شهر خدمته (الا أنه يتراخى مرة أخرى حيثما
يعود الى حياته العادية فى الدنيا) ويتحدث النص التالى عن هؤلاء
الكهنة أثناء اجازتهم :

« لا تظاهروا باطلا على حق وأنتم تدعون الرب ! انتم يا ذوى
الشأن لا تفتروا طويلا دون دعاء تتوجهون به اليه حينما تفرغون من
تقـــديم القرابين اليه ودون أن تحمدوه فى معبده .. لا ترتادوا
أماكن النساء ولا تأتوا هناك من عمل لا ينبغى أن يؤتى ، لا تفتحوا
جرة فى حوزة الضـــيعة ، فالرب وحده هو الذى يعل هنـــاك ،
لا تؤدوا الشعائر كما تهوون ؛ والا فما قيمة نظرتكم الى الكتابات
القديمة . ان طقوس المعبد بين أيديكم وانهـــا لدروس لأولادكم »
(ادفو الجزء الثالث صفحة ٣٦١ ــ ٣٦٢ ترجمة (Alliot) . وعلى
الرغم من دقة التعبيرات المستعملة فى هذا النص الا أنه ليس حتما

أن كل تحذير من أثم يدل على أنه قد ارتكب فعلا وان يكن وقوعه غير مستحيل • وتلك بلاغة في التعبير ملحوظة • وهنـــاك وثيقة أخيرة سجلت في مكان أعلى من مكان الوثيقة السابقة تعد ختاما لهذه المجموعة من النصوص التى اقتبست من معبد أدفو الكبير • وهي لا تتحدث عن الآثام الواجب اجتنابهـــا أو عن اليقظة التى يراقب بها الاله كهانه • بل على العكس من ذلك تبرز فيها مكاسب الحياة الروحية والهناء الجم التي ينعم بها من يخـــــدم الهه بقلب صاف وروح ونابة : « طوبى لمن يحتفى بجلالتك أيها الاله العظيم ولا يتوقف عن خدمة معبدك ! (طوبى) لمن يقدر قوتك ويجـــلى عظمتك ويعمر قلبـــــه بك •• (طـــوبى) لمن يروح على صراطك ويغدو على مائك ، ويرعى مراد جلالتك ! (طوبى) لمن يعيد روحك بالصلوات المرفوعة الى الالهه ويذكر قدرتك •• (طوبى) لمن يؤم فى الخدمة المتصلة والخدمة فى الأعياد فى غير جهل ••• يا من تسلكون سبيل رع في معبـده وتسهرون فى داره (عاملين) فى تدبير أعياده وتقديم قرابينه دون انقطـــاع ، ادخلوا بســـلام وانطلقوا سعداء ! ذلك لأن الحياة في يده والسعادة في قبضته ، والطيبات من الرزق كافة حيث يكون • هذه هى صنوف الأطعمة من بقايا مائدته ؛ تلك هي الطعوم لكل طاعم من قرابينه ، ولن ينال من يعيش من رزقه أو أذى • ولن يهلك من يخدمه ؛ ذلك لأن رعايته تبلغ السماء وأمنه ينتشر على الأرض ، وحمايته أكبر من (حماية) كل الالهة (ادفو الجزء الخامس صفحة ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ترجمـــة (Alliot) .

ونغم الخطاب هنا أكثر هدوءا كمـــا أن الفكر أسمى • فالأمر هنا ليس استعراضا للمحرمات بل تبيينا لفضائل حياة تنقضى في عبادة متصلة للاله وما ينال عليها من جزاء حسن ، وهكذا وبعد ألفى عام تبلغ النصوص البطلمية فى معبد أدفو مستوى الروح القديم

الذى نجده فى كتاب النصائح الذى ينسب الى « مرى – كا – رع » (حوالى سنة ٢٠٥٠ ق٠م) ٠

« أد واجب الكاهن الشهرى وانتعل النعال البيضاء ، أدخل المعبد ، افتح الأماكن السرية وادخل قدس الأقداس وكل الخبز فى بيت الاله » ٠

لم تكن الحياة الكهنوتية دائما اذن مجرد خدمة مادية بسيطه تلائم أى حالة ذهنية ؛ بل كانت مقدرة ذهنية مثالية تتركز فى أن يهب المرء لنفسه حرارة تجاه الاله وفى الرعاية الدقيقة للاحتفالات اليومية ٠ وكانت الحياة والسعادة والأمن فى يد الاله الذى كان يمن بها على أتباعه المخلصين ٠

واذا كنا قد رأينا فيما سبق أنه من الضرورى أن نشير الى ما يمكن أن يكون فى الحياة الكهنوتية من تعاسة ، وما يمكن أن يكون فى بعض ممثليها من خسة فان نصوص أدفو وما دعا اليه « مرى – كا – رع » ثم حكم « پتوزيريس » توضح لنا الحماسة الدينية وغناء الحياة الروحية التى يحياها فريق مرموق من رجال الكهنوت المصرى بصرف النظر عن المكان والاطار المعنوى الذى يحيط حياته ٠

ومن الناحية الموضوعية يجب أن نقرر ان الكهنوت المصرى الذى كان مفتوحا على مصراعيه وسبيله فى تجنيد الكهنة فوضى بحيث كان من الممكن أن يضم عددا كبيرا من الفاشلين فى حياتهم ، أو من الانتهازيين الذين لم تكن لهم قيمة انسانية كبيرة ، فان أى مجتمع ذى بال لابد أن يضم بعض أمثلة من هذه الأنواع ٠ كما يجب الاعتراف بأن غالبية القائمين على العبادة قد كانوا أمناء فى التنفيذ وأصحاب ضمائر حية ٠ ربما لم يكونوا عباقرة ولكن لاشك فى أنهم كانوا – على الأقل – مخلصين لواجبهم مقتنعين بعظمته ٠

وقد استطعنا في النهاية أن نرى أن بعض هؤلاء الكهنة كانوا يمتازون بحماسة بالغة ؛ بحيث يصورون لنا فكرة رفيعة عن الحياة الروحية وعن التامل الدينى اللذين كانا فى الاستطاعة ان يولدا فى ظلال معابد مصر ٠

وهكذا لا ينبغى أن تخدعنا التماثيل فى المتاحف فان ما تحمل من صيغ المديح ، وتكرارها الممل يمكن ان يوحى بشىء من الشك وان كانت تتحدث كثيرا عن المثالية من حياة روحانية واجتماعية تبدو وكأنها قد شارك فيها على الدوام من يمثلون طبقة الكهان

وعلى أننا قد أدركنا على الأقل حقيقة لم تخطر على بال ؛ حقيقة تدفعنا الى تعمق دراسة الكهنوت المصرى ؛ فرجل الدين فى وادى النيل لا يشبه الا فى القليل ذلك الرجل الذى نسميه اليوم بهذا الاسم ٠٠

وبعد هذه اللمسة السريعة ، وهذه الأحاديث الروائية التى أظهرتنا على الجور الذى يقع فى الحكم العاجل على مجموعة بشرية كانت معقدة أكثر بكثير مما نميل الى الأخذ به ، نرى من الواجب علينا أن نبحث عن أسباب هذا الاختلاف وأن نحدد ما كانت عليه وظيفة الكهنوت فى الحياة اليومية من الناحية النظرية على الأقل ٠

الباب
الثانى

منصب الكهانة



منصب الكهانة

مصر بلد مستقر ؛ خطوطه دائما متشابهة ، ثم هو ذو شمس لاتحتجب أبدا ، نهر يفهق كل عام ليفيض على جانبيه وليهب لهما الحياة . هذا هو الاطار الذى يشكل الروح المصرى وخلق فيه ميوله الأصيلة. فالفن والفكر وأسلوب الحياة ووسائل التعبير ؛ كل أولئك يتسم فى هذا البلد بالبساطة والانسجام . فلم يختلف شىء فى مظهره وفى نظامه الأبدى عما كان عليه منذ البداية .

فى صباح الحياة الباكر أبرزت الآلهة الأرض المصرية من المحيط الأزلى . ثم فصلت من بعد ذلك السماء عن الأرض وأطلقت فيها الشمس . وحينئذ كانت الحياة ، حياة الانسان ، والحيوان والنبات وكذلك جرت حياة فى المياه الجارية وفى الأرض ذاتها وفى سلاسل الصخور .

وكان كل شىء محددا منذ البداية بحيث كان اسم الشىء دالا على ما خلق له . ولم يبق فى هذه الدنيا تعبير مفاجىء لايحدث فيه

أى طارىء وانما بدا واضحا أنها شكلت الى الأبد وفق نظـام ثابت لايتغير • نظام رتيب لظواهر الكون الكبرى في الفضاء وفي الأرض نهار وليل ، شتاء وصيف ، فيض وغيض ، مولد وممات •

فتماسك هذا الكون كله ، والترابط المنسجم بين عناصره ، وضرورة اتصالها وتماسكها أسماه المصريون « ماعة » • وكان ذلك لازما وضروريا لبقاء كل ما خلقته الآلهة• «وماعة» (الحقيقة) هي مظهر العالم الذى اختارته الآلهة ونظامه الشامل الذى حددته ابتداء من عناصره الأسـاسية الهامة كجرى النجوم ، وتتابع الأيام الى أكثر هذه الظواهر تواضعا ، كالتقاء البشر وتقواهم • وذلك هو التوازن الكونى وتتابع الفصـول رتيبة وانتظامها ، وكذلك احترام النظـام الأرضى الذى وضعته الآلهة • ثم هو آخر الأمر الحقيقة والعدالة • ذلك هو العالم كما خلق وشكل •

ومع ذلك فلا يوجد توازن دون توقع اختلال واتساق يقدر على الثبات حين يصيب التلف أحد عناصره • وهـذا تركيب ميكانيكى معقد أشدالتعقيد؛ فيه يتمتع كل عنصربالحرية ثم هو عالم لا يستطيع البقاء أو يتماسك دون رقابة متصلة • فالمعبودات فى حاجة الى ابن يغذى ويرعى أرواحهم الأرضية ، والمخلوقات تطالب بأن يكون لها راع يبين لكل دوره وحدوده : وهذا الضمان للتوازن العالمى وهذا الراعى للبشرية هو الفرعون •

منصب الملك : ليس من شك فى أن الأصل فى ادراك هـذا المنصب يقتضى أن يبحث عنه فى فجر التاريخ الصـامت • ذلك الوقت الذى كان رئيس القبيلة وحده يمثل كل ما للقبيلة من قوة وحيوية ، كما كان يعبر عن ارادة الاله وينفذ أعماله وكمـا كان مسئولا عن الحياة المادية لأفراد قبيلته ، وهو المهيمن على قوى الطبيعة بقدرته السحرية التى لاحد لها • وذلك نظـام اجتماعى أسس على قواعد شبيهة بما أخذت الحياة المصرية تقوم عليها تدريجيا ليكمل

بناؤها الديني والسـياسي في العصر التاريخي • فبعض القبائل القوية قد استولت على قبائل مجاورة لها أقل منها قوة • وتكونت من ذلك دويلات صغيرة دفعها النزوع الى الفـوز بحكم الاقليم الى معارك شديدة • وأخذت تتناوب الحكم قرنا بعد قرن ، واسـتطاع ملوك الزمن فى مطلع التاريخ أن ينالوا من الفوز أكثر ممـا نال اسلافهم فى تحويل ذلك النظام القبلى الى حكومة منظمة • ويومئذ لم تعرف مصر سوى حاكم واحد هو سـيد الوادى جميعا ، ووارث رؤساء القبائل طرا ممن ساروا فى ركابه من قبل •

واستوى رئيس الدولة الجديدة عليها فى مداها الواسع • وظل كما كان فى مملكته الصغيرة صاحب السلطان فيها ، ومالك أرضها وغلاتها ، والمسئول عن فيضان النيل ، وعن شروق الشمس ، وميلاد الناس وانبات الزرع • ثم هو من ولد الآلهة : يرعى شئون آبائه ويتلقى منها لقاء ذلك ، السلطة التى يسود بها على الأرض لتوكيد النظام الذى وضعته الآلهة • ولضمان استمرار ذلك الانسجام أصبح من الواجب ما يأتى :

أولا : ان وجود الآلهة هو الدافع المحرك فى هذا العالم ، والملك هو المسئول عن اقامة العبادة •

ثانيا : الحرص على تكامل عناصر الكون بحسب ما وضـع لها من نظام ، ومن هنا يتضح دور الملك التشريعى والقانونى •

« وهكذا أصبح واجب ملك مصر الأساسى من أول عهد الفراعنة الى آخر أيام أباطرة الرومان الوثنيين – (أى فى مدى يبلغ ٣٥٠٠ سنة) مزدوجا : الحرص على النظام الدنيوى العام ، وعلى الشعائر الدينية وذلك بسن القوانين للناس •

ومن أعجب الأمور أن يظل نشاط الملوك متصلا ، وتؤكد أقدم الآثار الملكية من الألف الثالثة ق•م والتى تبين لنا فرعون وهـو

يزاول نشاطه الحربى والعمرانى . فنراه حاملا فى يده الفأس يضرب بها فى الأرض ثم يضع الأوتاد لاقامة الحدود . (١) وحين نطوف بقاعات معبد اسنا أو كوم امبو نجد هذه المناظر تتكرر خلال آلاف السنين يقوم بها فراعنة من بينهم « اوتوكراتور » ، و « قيصر » و « سيفيريوس » و « كاراكالا » أو « ديسيوس » (٢) . ترى هل كان يخطر ببالهم أنهم مازالوا يعتبرون رسميا منفذين للطقوس المصرية ، وهم الذين نزحوا من غابات جرمانيا وبانونيا البعيدة ، بل هم الذين لم يبلغوا مراتب السلطان الأمبراطورى الرفيع الا عن طريق بناء الفرق العسكرية المتصل فى بلادهم ؟

لقد كانت الاحتفالات التى كانت تجرى بمناسبة ارساء حجر الأساس لاحدى العمائر الرسمية ، من الأمور التى تقتضى حضور صاحب السلطان أو من يمثله . وهو أمر يحدث الى يومنا هذا اذ من النادر الا يقتضى افتتاح احدى المؤسسات الهامة وجود شخص رسمى مسئول ، والقاء الخطب وعمليات التدشين . ومع ذلك فقد كان الملك من الناحية النظرية هو الذى يقوم بتأدية الشعائر كافة .

فنحن حين نمر بأنظارنا على ما فى المعابد من النصوص التى تتحدث فى تفصيل عن الطقوس الدينية يدهشنا الا نجد ذكرا للكهان على الاطلاق . فالملك هو الذى يتولى بنفسه وبصفة مستمرة تنفيذ طقوس العبادة حاملا على رأسه التاج والى جانبه على الدوام اسمه مدونا فى خرطوش مزدوج (٣) .

---

(١) انظر اللوحة المعروفة باسم لوحة « نارمر » حيث نرى فيها فرعون يمارس نشاطه الحربى فى سبيل توحيد مصر . ثم انظر اللوحة المعروفة باسم « لوحة الملك العقرب » وهو يقوم غالبا بشق قناة .

(٢) ترينا تلك المناظر أولئك الحكام وهم يحتفلون باقامة دور العبادة الكبرى .

(٣) كان لفرعون اسمان : أسمه الذى سمى به بعد ولادته واسمه الذى ارتقى به العرش . (المترجمة)

وواضح أن اتمـام كل هـذه الطقوس على النحو المتقدم وهم وخيـال • فانه اذا كان من الممكن أن يصـبح رئيس القبيلة فى عصور ما قبل التاريخ القائد الادارى والرئيس الدينى ؛ فقد كان من المستحيل على ملك مصر أن يكرس حياته للامامة فى آلاف المناطق المختلفة بالمملكة ولما اختفى نظـام القبيلة ليستبدل بنظـام المملكة الموحدة أصـبح من المسـتحيل على رئيس القبيلة ـ وقد أصـبح فرعونا ـ أن يكون الامام الفعلى فى اقامة الطقوس • لكنه احتفظ بهذه الامامة اسميا فقط ، وبقيت له صورها مرسومة بالمعابد • أما من الناحية العملية فان الملك قد نزل عن هذه لمتخصصين انتدبهم ليقوموا بها بدلا عنه • وعلى ذلك فقد كان مكان الكهنة الرسـمى يقوم أساسا على هـذه الفكرة التى لن تمحى وهى أنهم مندوبو السلطات الملكية • فباسم الملك وفى مكان السلطان كان كهان مصر يؤدون الطقوس الدينية اليومية فى كل البلاد •

مهمة الاكليروس : بقى للملك من سـلطانه المزدوج الدينى والتشريعى ثانيهما وحسـب ، وانتدب للمهمة الأولى كهانا يقومون باعبائها • وبذلك تميز نشاطهم المباشر بتخصصهم فى رعاية العبادة، عبادة الآلهة وكل ما يتصل بهذه العبادة من مظاهر خارج المعبد ، فأما دورهم فى الناحية الاجتماعية والروحية فقد كان محصورا فى أضيق الحدود •

ولا ينبغى أن ننسى الدقة فى مفهوم مصطلح **الكاهن** • فالكهان لم يكونوا طائفة منعزلة تعيش على هامش المجتمع ولا تغشـاه الا لاستمالة الجماهير ودفعها نحو حياة خلقية أرفع مستوى وأقـوى نشاطا من حياتها العـادية • كلا ! بل كان أولئك الكهنة المصريون يقومون بدور دقيق جدا • فهم نواب الملك صاحب الحق الوحيد فى القيام بالخدمة الدينية ، وكان قوامها العمل على رعاية الوجود الالهى على الأرض ممثلا فى صورة متكاملة داخل قدسه فى المعبد حيث

طابت له الاقامة ، وكان لوظائفهم دورها الهام ؛ فهم يشاركون فى البناء الدينى للملك فرعون الذى يقتضى المحافظة على العالم كما خلقته الآلهة وهذا عمل لا يستطيع النهوض به سوى المتخصصين الفنيين • اما فيما عدا ذلك من أعمال الكهان وتفكيرهم فلم يكن فى نظر الدولة شيئا ذا خطر • فهم لا يشبهون فى شيء الكهان العبرانيين ولا احبار النصارى ، انما هم أشخاص عاديون لايختلفون عن غيرهم فى شيء ولا يتميزون بأنهم من أصل الهى ، وليس عليهم هدى الجماهير أو اقناعهم • ومهما يكن أمـــرهم فهم لم يخرجوا عن كونهم مواطنين مأذونين من الملك بأن يحلوا محله فى أداء بعض الطقوس المـــادية اللازمة للصالح العام ، والعقيدة الشعبية لاتدين لهم بشيء • واذا كان فيهم المفكرون العظماء أو القديسون ؛ فلم يكن ذلك غير نتيجة لاستعدادهم الشخصى ولا صلة له بنشاطهم المهنى نفسه •

التزام الكهنوت :

واذا كان الكهنوت لم يشترط أى صلات معنوية أو أى اعداد فنى تخصصى كما سنرى فيما بعد الا أنه كان يلزم الـكاهن الذى يدخل المعبد ببعض شروط الطهارة الجسدية •

والدار المقدسة ــ كما نستطيع أن نتخيلها مما جاء فى الفقرة السابقة ــ تختلف اختلافا كليا عما ندركه من مفهوم كلمة معبد • فهى ليست بالمكان الذى يذهب اليه المتعبد ليصلى للاله ، ولا هى بالدار التى يحتشد فيها الجماهير لممارسة أعمال روحية وتترقب أن تتجلى عليها الروح القدس خلال الاحتفـــال • وهى ليست كذلك بالمكان الذى تقام فيه الشعائر المقدسة التى يؤم فيها امام متخصص جمهرة من الناس •

ان المعبد المصرى لا يستقبل الجماهير • فمن المدخل الى القدس توجد سلسلة من الأبواب تحجب عنه النور بطريقة متصلة ؛ فيتزايد

الظلام من بهو الى بهو فى سبيل القاصد الى قلب المبنى ، وتنخفض السقوف وترتفع القيعان . وفى رهبة متزايدة يبلغ الزائر مدخل الهيكل المحكم الغلق والذى يستقر فيه التمثال المقدس • فالمعبد المصرى هو المستقر الأرضى الذى يحتفظ بالتمثال الذى ارتجاه الاله ليرعى منه هذا العالم حالا فيه في هيئة تمثال يزار عند كل صباح لينال ما ينبغي له من العناية والرعاية الدينية ، فضلا عن الحرص على الباسه واطعامه وحمايته خاصـــة ضد الأرواح الشريرة التى تحتمل أن تفاجئه بالأذى •

وعلى ذلك فقد كان الذين يتاح لهم دخول المعبد من الناس والاقامة فيه كل يوم فى رحاب الصـــنم الرهيب أن تتوافر فيهم شروط أولية من الطهارة الجسدية •

كما أن اصطلاح المتطهرين الذى يطلق على أكبر طوائف الكهنة انتشارا انما يذكرنا بعمليات التطهير الأولى التى يغتسل فيها الكاهن ليخلص من كل ما علق به : « يغتسلون بالماء البارد مرتين فى النهار ومرتين فى الليل » (هيرودوت الكتاب الثانى فصل ٣٧) • وغالبا ما يتم هذا التطهير فى البحيرات المقدسة الملحقة بالمعابد • فقد كان الكهنـــة قبل بدء خدمتهم الصباحية ينزلون الى الماء فيريقونه على أنفسهم فى غزارة • فاذا لم تكن هناك بركة حل محلها حوض من الحجر •

ويعتبر هذا الطقس الدينى طقسا رمزيا بحتا (١) فقـــد كان الماء فى الفكر الدينى هو العنصر الذى خرجت منه الحياة وفيه تختفى الشمس عند الغروب لتستمد منه نشاطا جديدا يمنحها يوما جديدا كله شباب وحيوية • لذلك نرى فى بعض النقوش التى تصور منظر التطهير أن المصريين كثيراً ما يستبدلون لون صورة الماء الذى ينساب

---

(١) شبيه بذلك ما يفعله المسيحيون الكاثوليك فى الكنائس عندما يدخلونها •

من اناء بسلسلة تتكون حلقاتها من الرمز الذى يصور الحياة عند المصريين فاغتسال الصباح كان يملأ الكهنة حياة جديدة تمكنهم من القيام بخدمتهم اليومية فى غير كلل ٠

وضرب آخر من الطهارة المادية قد كان على الكاهن أن يغسل فمه بقليل من مذاب النطرون قبل أن يطرق المكان المقدس ٠ وكان هناك نظام صارم من نظم الحياة الكهنوتية يتمثل فى أن يزيل الكاهن الشعر من جسده ٠ ويحدثنا هيرودوت (١) أن الكهنة كانوا يزيلون الشعر من أجسامهم مـــرة كل يومين حتى لاتعلق بهم قملة أو أى حشرة قذرة أخرى تمنعهم من ممارسة عبادتهم ٠ فان ما نرى لهؤلاء الرجال من تماثيل وصور نظهرهم صلعا صلعا تاما ٠ ويبــدو ان هذه العملية كانت اضطرارية اذ بلغت قيمة الغـــرامة فى العصر المتأخر على كل من يهملها ١٠٠٠ درهم ٠ وهنــاك من النصــوص المختلفة الأخرى ما يحدثنا أن الكهنة وصل بهم أمر المبالغة فى ذلك التخلص من شعر رموشهم وحواجبهم ٠ وكانت هذه قاعدة عامة ٠ اذ أننا نفهم على سبيل المثال أن الرحالة اليونانى « اويدوكسس دى كنيد» (Eudoxe de Cnide) الذى كان يحاول الاطلاع على العلوم الجديدة التى يعرفها الكهنة لم يقبل الا بعد ان ازال شعر جسده وحواجبه (ديوجان ليرس) (Diogène Laerce, VIII, 8 (87, 3)
وكان هنــاك تقليد آخر متصل بطهارة الجسد ، ألا وهو الختان : فقد كانوا يقومون بعملية الختان بقصد النظافة ــ اذ كانوا يضــعون النظافة فوق كل القيم الجمالية ــ (هيرودوت الجزء الثانى فصل ٣٧) ٠ ولم يكن كل المتفرغين لأعمال الكهنوت قد أجريت لهم عملية الختان اذ أن تعلمهم الحياة الكهنوتية كان وهم لايزالون صغار السن لذا كانوا يختتنون عندما يتولون مهامهم الرسمية ٠ وقد أصبح الختــان فى عهد الامبراطور « هادريان » علامة مميزة للكهنة ٠ اما الى أى مدى

(٢) انظر هيرودوت الجزء الثانى ٠

كانت هذه العادة متبعة في العصور السابقة وهل كانت هذه العادة من الشروط الأساسية في تلك العصور لتولى الكهنوت فهـذا مالا يستطيع المرء التكهن به ٠

وقد ورد عن بعض الكتاب الاغريق والرومان أن كهنة مصر لم يكن يسمح لهم بتذوق الطيبات من طعوم الموائد ٠ ويصور لنا هيرودوت في هذا المجال قائمة طعامهم بطريقة مشوقة (كتابه الجزء الثاني فصل ٣٧) ولكن الرحالة الذين أتوا بعده لم يشاركوه هذا الرأى ٠ فهم يذكرون أن الكهنة كان عليهم أن يحرموا أنفسهم من كل شيء تقريبا ٠ فقد كانوا يحرمون على أنفسهم بعض أجزاء الذبيح اذ كان عليهم أن يتحاشوا الرأس أحيانا والأرجل أحيانا أخـرى والأعضاء الأمامية أحيانا ثالثة (Origène) وهم يأكلون لحـم البقر (Chaeremon) ولا لحم الخنزير بطبيعة الحال Aristagoras de Milet Flavius) (Joseph, Plutarque كما كان لحـم الماعز من المحـرمات ايضـا (Aristagoras) وكذلك الحمام (Chaeremon) والبجع (Horapollon) من لحم الطير والأسماك وبخاصة البحرية منهـا كمـا حـرم عليهم الخضر (Plutarque) وكذلك الفول (Herodote, II, 37) والثـوم (Plutarque, Origène) فقد كان اكلهما مكروها جدا (١) . اما بخصوص النبيذ فقد كانوا لايتناولون منه الا قدرا ضئيلا أو لا ينالون منه شيئا (Plutarque) كما أن الملح ــ الذى كان من منتجات الاله « تيفون » ــ كان من غير المرغوب أن يظهر على موائدهم ٠ لقد كانوا بالفعل مساكين خاصة وأنه كان من واجبهم في كثير من الأحيان أن يحرموا أنفسهم حتى من النزر اليسير من الطعام ٠

ويظهر أن الحقيقة كانت غير ذلك ٠ اذ يبدو أن الحيوانات أو

---

(١) وتحريم الفول فى الأغلب الأعم كان بقصد تجنب الغازات المعوية التى يسببها أكل الفول ٠٠ وأما الثوم فقد كان أكله محرما على الكهنة فى الأغلب الأعم بسبب ما ينبعث من رائحته النفاذة ٠ (المترجمة) ٠

الخضراوات التى سبق ذكرها كانت محرمة فى بعض الأقاليم ولم تكن كلهـا محرمة فى كل الأقاليم فى الوقت نفسه . وفى الواقع ان تحريم انواع بعينها من الأطعمة فى اقليم ما كان خاصا بعقيدة الاقليم نفســه .

وتروى الأساطير أن اله كل اقليم كان يكره حيـوانا معينا ولكنه نادرا ما كان يكره نباتا معينا . وكان من واجب كهنة هـذا الاقليم أن يمتنعوا عن تناول شيء من لحم هــذا الحيوان المكروه أو لبنه . ومع ذلك فلم يصب هذا التحريم فى العادة سوى كهنة المنطقة الجغرافية المتصلة بهذه العبادة . ومن ناحية أخرى فقد كان الحيوان المقدس ـ الذى يختلف حسب اله المنطقة ـ بالطبع محرما أكله فى الوقت الذى تحلله البلدة المجاورة . ومن هنا كان منشأ المعارك بين قرية وأخرى .

وقد روى لنا بلوتارخ فى كتابه « ايزيس وأزوريس ٧٢ » أن أهل مقاطعة اكسيرينكوس وهى البهنسا كانوا يقدسون نوعا من السمك وهو ما يسمى «القنوم» من اسمه الاغريقى اشتق الاغريق اسم الاقليم على حين أكلت مقاطعة كينوبوليس (القيس والشيخ فضل) هذا السمك وهم الذين كانوا يقدسون الكلاب ؛ فما كان من أهل البهنسا الا أن ضحوا بالكلاب فذبحوها وأكلوها . وكان من نتيجة ذلك أن نشأت بين البلدين حرب كانت وبالا عليهما معـا . وقد فض الرومان فيما بعد هذا النزاع وعاقبوا المتخاصمين . ولقد كان أكل حيوان ما فى اقليم يعتبره سكان الاقليم المجاور سـندا أرضيا لالههم من أكثر الأسباب التى يمكن أن تخلق الخصومة بين أهل الاقليمين .

وقد كان معروفا فى هذا المجال أن الكاهن كان عليه ـ أكثر من أى رجل عادى ـ ان يمتنع عن تناول طعام معين حسب الشرائع الدينية التى يفرضها المعبود الذى كان الكاهن من خدمه .

ولانصاف هؤلاء القوم يجب أن نذكر أن منهم من كان يعرف كيف يمنع نفسه • فقد كان كهنة قفط الذين استقبلوا « ساتنى باشر ان بتاح » الشهير من منف زميل يطلميوس ايوليتيس (الزمار) فى اللهو ، وكانوا فيما يبدو أشخاصا يعرفون كيف يعيشــون • وقد نقش هذا الأخير الموعظة التالية التى وجهها الى «باشر ان بتاح» على اللوحة الجنازية لاحدى زوجاته « أيها الأخ والزوج •• كاهن بتاح لا تتوقف اطلاقا عن الشرب والأكل والنشوة وممارسة الحب وقضاء أيام الأعياد • وعليك أن تتبع قلبك نهارا وليلا ، ولا تجعل للحزن فى قلبك مكانا فما هى السنين التى نقضيها على هذه الأرض مهما طالت ؟ » وكل ما نعرفه عن كاتب هذه الســطور ، اننا نعتقد أن هذا الكلام لم يكن الا تشجيعا لاغناء فيه •

كانت الحياة الكهنوتية تحتم نوعا آخر من أنواع الصـــــبر الجسمانى وهو الامتناع عن الاتصال الجنسى على الأقل خلال العكوف فى المعبد • وكان للكهنـــة المصريين أن يتزوجوا اذ أن وظائفهم لم تجبرهم على حياة العزوبة • واذا صدق ديودور (الجزء الأول ص ٨٠) فقد كان عليهم على الأقل أن يكتفوا بزوجة واحدة على حين كان لكل امرئ بعيد عن العمل فى المعبد أن يتمتع بغير واحدة • ومع ذلك فلم يكن هذا القيد عاما فنحن نعلم أن الكاهن « باشير ان بتــاح » المرح الذى مر ذكره كان تحتــه عــدد من النســاء • وهــكذا يبــدو أن حياتهم الخاصة كانت تختلف من كاهن لآخر كل حسب حالته • ومع ذلك فقد كان عليهم جميعا على الأقل أن يتطهروا حينما يعبرون السور المقدس ، ويذكر لنا هيرودوت (الكتاب الثــانى فصل ٦٤) أن عادة تحريم الاتصال بالنساء فى الأماكن المقدســة أو تحريم دخولها عقب ملامسة المرأة دون أن يغتسلوا قد انتقلت الينا من مصر أيضا ، فكل الرجال فيما عــدا المصريين والاغريق يباشرون النساء فى الأماكن المقدسة وينتقلون الى اقداس الآلهــة دون اغتسال ، ويرون ألا فرق بينهم وبين طوائف الحيوان والطير

التى تفعل ذلك فى المعابد وفى الأماكن المخصصة للآلهة ويرون أنه لو كان مما لا يرضى الآلهة اذن لامتنع عنه الحيوان والطير » ٠

والنصوص الدينية المصرية واضحة حول هذا الموضـوع ٠ فالتطهر من ملامسة النساء فرض محتوم فى أيام كثيرة ٠

ولقد كان من العسير تمييز الكهنة بهيآتهم وأزيائهم عن غيرهم من المصريين ٠ فكان محرما عليهم بعض الأقمشـــة والصوفية منها بخاصة ، ذلك لأنها مستخلصة من مخلوقات حية تصيب لابســـها بالقذر وتحط من قدسية الأماكن التى يؤدون فيها واجباتهم ٠ ويبدو أن هذه القاعدة كانت قاطعة لا استثناء منها ولا هوادة فيها بدليل ما كتبه « هيرودوت »(Herodote)و « أبوليه » (Apulée) فى شأن العقوبات المادية الباهظة التى كانت توقع على المخالفين ٠

كان الزى الكهنوتى دائما من نسيج الكتان الرقيق وكانت هيأته لا تتغير أبدا ٠ والواقع أنه يبدو فعلا أن الكهنة قد احتفظوا — وعلى مر العصور — بزيهم ذاك الثابت الذى ارتدوه منذ العصور الأولى للحضارة المصرية ٠ ولم يكن يميز هذا الزى الا بعض التفاصيل التى تحدد وظيفة كل كاهن كالوشاح الذى يتشح به الكاهن المرتل ٠ فأما الكهنة المتخصصون وكذا كبار الكهنة فقـــد كان من حقهم أن يخالفوا ذلك ٠ فالكاهن الذى يلقب عندهم « سم » كان يرتدى جلد فهد ، على حين كان كبير كهنة هليوبوليس يحمل رداء من جلد فهد مزخرف بحليات على هيئة النجم ، كما كان لكبير الكهنة بمنف الحق فى حمل قلادة ذات شكل خاص وله أن يزين رأسه بذؤابة مضفورة تنحدر على السالفة ٠

واذا استثنينا كبار الشخصيات الدينية فان الكهنة تميزوا عن بقية الجماهير بقدم زيهم ووقارها٠وليس من شك فى أن هذا الاحتفاظ بالشكل القديم كان يضيف الى هيبتهم ومكانتهم شيئا من الشهرة فى مجتمع كل ما فيه جيد وجديد ٠

وليس يفوتنا أخيرا ، وقبل أن ننتهى من هـــذا العرض ان النعال المصنوعة من سعف النخيل كانت من أزياء الكهنـــة الذين عاشوا وسط شعب كان يمشى بمحض اختياره حافى القدمين أو ذلك ما يرويه الكتاب القدماء عن الكهنة على كل حال ٠ كما أن النصوص المصرية قد وضعت « النعال البيضاء » ضمن لباس الكهنوت ٠

واذا كان من الغـــريب أن المعلومات اللاهوتية لم تكن ذات بال اطلاقا عند تعيين أى كاهن ـ وكان على الكاهن أن يقضى مدة ى التدريب على طقوس العبادة الصارمة ـ فان الدراية بتلك الطقوس لم تكن فيما يبدو من الشروط التى تحدد اختيار كاهن جـديد ٠ وهنا يخطر بالبال سؤال هام ٠ هل كان الكهنة الجدد يتعلمون المهنة تو ممارستهم لها بداخل المعابد ؟ فى الحق أننا قد نميل الى هذا الظن فان كل الأدلة تشير بصفة قاطعة الى أن الحياة الكهنوتية انما كانت تحتم على الكاهن أن يكون قد تثقف ثقافة دينية ٠ ومن هذه الأدلة وجود علم مقدس متطور تطورا واضحا وبعض اشارات الى تأملات دينية ذائعة فى محيط المعابد وخلال الشعائر المقدسة الا اننا نكاد نجهل كل شىء عن تشـكيل ذلك ٠ وكل ما نعرفه هو ما ورد فى قرطاس من عصر متأخر يفيد بوجوب معرفة المتقدم لشغل وظيفـة الكاهن قراءة النصوص الدينية المدونة فى القراطيس انظر : (بردية تيبتونس / ٢ فصل ٢٩١) ـ فأما ما سبق ذلك من عصور فتكاد تخلو مما يشير الى هذا الموضوع ٠

الانخراط فى سلك الكهنوت :

يبـدو مستحيلا أن نستخلص قاعدة تحدد بصـفة عامة شروط الالتحاق بالوظائف الكهنوتية بالنسبة لكل طبقة من طبقات الكهنة فى مصر فى شتى العصور ٠

وانه ليبدو مما تقدم أن البساطة النسبية لما ينبغى للكهنة معرفته من فرائض الدين كانت تفتح السبيل أمام الجماهير الغفيرة من الراغبين فى الوظائف الدينية • على أن الواقع قد كان غير ذلك اذ أن حياة الكهنة كانت تقتضيهم واجبات معينة • ولكنهـا كانت تهىء لهم مزايا لايستهان بها ، وخاصة فى بلد كان الخوف من الغد المجهول يسيطر فيه على جمهرة الشعب ، ومن هنا كان التطلع الى الوظائف الدينية دائما محط أنظار الكثيرين •

ولقـد كانت هناك سبل متفق على اتخاذها ، أو كانت تتخذ على الدوام : فهناك حقوق الوراثة ، وطريقة الترشيح وشراء الوظائف ، كل ذلك كان يتيح فى أغلب الأحيان الحصول على عدد كبـير من الكهنة اللائقين • فكان فى استطاعة الأسر المضطلعة بعبادة معينة جيلا بعد جيل أن ترتبط ارتباطا وثيقا بمعبودها ، وتثبت عنـد ممارسة عملها جدارة حقيقيه • على حين كانت كذلك أسرا مطمئنة الى وفرة ربحها من الأوقاف الدينية ؛ فلم يكن لها من عمل غير قدر ضئيل يبرر وجودها. ويتيح لها التمتع بالاسترخاء فى ظل الهياكل وازاء هذه الفكرة التى يؤيدها الكثيرون لا ينبغى ان يخفى علينا ان أمر العبادة ظل يعتبر تفويضا او انتدابا ملكيا — بصرف النظر عن الحقوق الفعلية التى اكتسبتها أسر الكهان من الالتزام بخدمة معبود معين أعواما طوالا — فان فرعون قد كان دائما من الوجهة العمليـة الوزير الأوحد للعبادات فى مصر كلها ، وهو بذلك صاحب الحق فى وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب، مادام يرى ذلك وفى أى وقت يشاء . وكان لابد لمثل هذا النظام الذى لم تحدد قواعده الأساسية بطريقة سليمة أن يخلق بالضرورة نزاعا أو خلافا • وذلك ما حدث بالفعل ، فتاريخ العبادات فى مصر يعتبر انعكاسا دائما للتدخلات الضارة . وسوف نتناول بالبحث كلا منها على حدة .

حقـــوق الوراثة :

يحـدثنا « هيرودوت » (الجزء الثـاني فصل ٣٧) أنه عنـد موت أحد الكهنة كان يخلفه ابنه في مكانه · ومع ذلك فلم تكن هذه القاعدة مطلقة من الناحية العملية ، وانما كانت تقليدا متبعا رسخ فى الأذهان · ومنذ عصر الدولة القديمة ونحن نجد أمثلة من الوصايا يطلب فيها الكاهن بان تئول وظيفته الى وريث يحدده . فهو يرى هذه الوظيفة حقا كحقه في كل ما يملك من متاع خاص · والواقع أنه يوجد كثير من الأمثلة لوظائف دينية وغير دينية آلت الى بعض المنتفعين للوثوق من أنها سـوف تنتقل من أب الى ابن ومن مورث الى وريث · أما فى الدولة الحديثـة فكان يحدث أن يتقدم أحـد الاشخاص مطالبا بوظيفة كهنوتية فى معبد ما · ولم يكن ينبغى عليه الا أن يتذرع الى ذلك فى بساطة بأنه أبن الكاهن · بل أكثر من ذلك ؛ فان من العصر المتأخر لوحات تعرض لنا سلسلة من أنساب أصحابها يذكر بعضـهم أن أسلافه حتى الجيل السابع عشر كانوا من كهنة معبود بعينه · وأصبح من الممكن بناء على ذلك التحدث عن تسلسل أسرات من الكهان يتلو بعضهم بعضا ·

من كل ما ذكرنا ، أصبح الحكم على الاتجاهات العامة للمجتمع المصرى ممكنا · فهو لم يكن ذلك المجتمع الذى حاول الكتاب الاغريق أن يصوروه لنا مجتمعا معزولا ، وليس صحيحا أنه وليد بيئة معينة لم يكن له أى مستقبل الا أن يرث مهنة أبيه · فقد كان هناك نوع من التآلف بين الحرف المختلفة · ومع أن وراثة الوظائف لم تكن تحكمها قوانين معينة الا أنها كانت مع ذلك تمثل اتجاها عاما · فالمجتمع بحكم طبيعته كان دائما ينزع الى الاستقرار والثبات فى ظل نظام واضح ؛ يعزز ذلك ما ورد ضمن الأمانى التى كان يتمناها المصرى القديم ويرددها فى صلواته : « فأى امرىء يود أن يرى ابنه قد خلفه فى الوظيفة التى كان هو يشغلها » · وفى ضـــوء ذلك

نستطيع أن نفهم ان أسر الكهان الاقليمية التى كانت تضطلع بتنظيم عبادة معينة ، كانت تفخر بذلك وتراه من الامتيازات الهامة التى يجب أن تظل الأسرة دائما فى اطارها . ومع أن الوظيفة كانت تنتقل بالوراثة من الأب الى الابن ومع ثبوت شرعية هذا الارث ، فقد كان ينبغى أن يكون فضل الملك فى هذا الموضوع واضحا . فبفضل الملك استطاع الابن أن يحل محل أبيه . وعندما أراد الملك بسماتيك (حوالى ٦٤٨ ق‌م) أن يكافىء « بتيزيس » لخدماته الجليلة التى أرضته كل الرضى منحه لقب كاهن فى كل المعابد التى كان يشغل فيها أبوه هذه الوظيفة ، هذا مع أن «بتيزيس» هذا لم يكن حتى ذلك الوقت قد مارس وظيفة الكاهن على الاطلاق . من ذلك نتبين أن اسر الكهان فى قرى الأقاليم قد استطاعت ان تحتفظ باتصال شغل وظائفها بأفرادها . ومع كثرة انتقال هذه الوظيفة من أب الى ابن فقد ظلت صفتها الوراثية مجرد تقليد معترف به على حين احتفظ الملك بحق تعيين من يشاء وحيث يشاء .

الترشيح والابتياع :

كانت الأهواء الملكية فى أغلب الأحيان تهدد بخلق الاضطراب فى النظم المحلية المتبعة اذ كان الكهان ينظمون فيما بينهم تشكيل كهنوتهم . ومع ذلك فمن الانصاف أن نعترف بأن الملك كان من النادر أن يتدخل فى مثل هذه الأمور وذلك بسبب ضخامة عدد المعابد وعدد الكهان أيضا . ولذلك كان فى استطاعة أسر الكهنوت أن تزدهر فى غير خوف . واذا لم تستطع حقوق الوراثة الوفاء بحاجة عبادة ما الى من تقتضى من الرجال قامت مقام ذلك وسيلة أخرى وهى الترشيح . فكان العاملون يعقدون اجتماعا ويتفقون فيما بينهم على اسم من أسعده الحظ بالانضمام الى طوائفهم المقدسة . ويبدو أن هذه الطريقة كانت أمثل الطرق المتبعة لتزويد الوظائف الشاغرة بمن يشغلها . ومن المرجح كذلك أن كل كاهن جديد ،

ولو كان من أسر العاملين فى المعبد أن يوافق المجلس الملى على تعيينه وأن يتم تكريسه للخدمة الدينية ببراءة مسجلة ٠

وتشير النصوص من العصور الفرعونية المتأخرة الى وجود حق ابتياع الوظائف الدينية بكل ما تغل من دخل ٠ وقد عرف الرسم الذى كان يحصل على هذا الشراء فى اليونانية باسم (Telestikon وانتشرت هذه العادة فى العصر الامبراطورى وبخاصة فى وظائف صغار الكهنة او الكهنة خدام الاله(١) واذا جاز لنا ان نرجع ممارسة هذا العمل الى أيام الدولة الوسطى ، فان معلوماتنا تظل قاصرة عن تتبع الطرق التى كان يتم بوساطة هذا الشراء فى عصور أقدم ٠

التعيين بمرســوم ملكى :

كانت كل العبادات فى أى معبد تقام باسم الملك ٠ جاء فى أحد فصول الشعائر « ان الآلهة أعدت لى السبيل ، وان الملك هو الذى يرسلنى لاجتــلاء طلعة الاله » ٠ فالملك هو الذى كان يعين سائر طوائف الكهنـــة ٠ ومن الواضح أن مثـل هذا التركيز كان يقتضى وجود وزارة ذات اعتبار ويسبب كثـيرا من التــأخير (فى التعيين) ٠ وواقع الأمر ان عمل الملك قاصر على تعيين كبار رجال الدين وكبار الكهان فى العبادات الكبرى ٠ فاما تعيين الكهان من ذوى المناصب الدنيا فقد كان يتركه للوزير ٠

وقد جاء الخبر أن الملك الشاب « توت عنخ أمون » حين رأى أن يعيد تنظيم الأكليروس فى مصر وكان من رجاله كثيرون قد قتلوا خلال اضطرابات العمارنة « عين قديسين وكهنة اختارهم من أولاد الأعيان فى الأقاليم ، وكانوا من أبناء الطبقـــات ذوات الأســـماء

---

(١) خادم الاله : هو ترجمه لاسم المصرى القديم Hemneter وهى التى أطلق عليها الأغريق اسم Prophète

المعروفة » • بذلك أبدى الملك كثيرا من الحكمة عندما تدارك الأمر بالاهتمام به من جديد وبذلك رد الاعتبار لأهل الاقاليم • وكانت هـذه وسيلة فيهـا مهارة وبراعة لكسب كبـار رجالاتهـا الى جانبه وكانت سلطة « اخناتون » التى اتصفت بطـابع الفردية قد أضرت بهم •

وكان من سلطة الملك فى بعض الأحيان ترقيـة من يعجب بنشاطه واستعداده من الكهان• كما وقع للكاهن «نبسـوى» فى عصر تحتمس الثالث الذى رقى أولا الى رتبة رئيس كهنة أوزيريس ، ثم اصبح بعد بضع سنوات ــ وبفضل حظوته لدى الملك ــ المتحدث الشخصى باسم الملك « فى معبد أحمس الأول » فى أبيدوس •وظاهر أن تدخل الملك هناك كان لغرض منه احسان الجزاء لكاهن مسـن شاب فى خدمة مولاه •

وكانت الترقيات الى المناصب الرسمية تحدث أحيانا لغرض مختلف ، خاصة عندما يقع الاختيار على كاهن معين لينتقل الى طائفة اكليروس أخرى • ومن ثم كان اختيار « رمسيس الثانى » كبير كهنة آمون من بين كبار رجال الاكليروس بمنطقة «أبيدوس» • وكان ذلك بالطبع على غير رضا من كهان طيبة الذين باتوا ينظرون الى هذا المكان فى تشاؤم ••• والى القارىء ما جاء فى قصة ذلك •

وعند عودته من طيبة « رسونا فى مقاطعة طينه » ومثـل « نبونف » أمام جلالته وكان يومئذ يشغل منصب أول كهنة الاله « أونوريس » و « أول قساوسة» « حتحور سيدة دندرة » وزعيما لقساوسة كل الآلهو فى منطقة وهبت له• وهنا قال جلالته : «ها أنت من الآن فصاعدا أكبر كهان آمون ، وسائر كنوزه وخزائن غلاله تحت يمينك • أنت رئيس معبده ، وكل خدمه تحت سلطانك • فاما معبد حتحور « سيدة دندرة » فسيئول الى سـلطان ابنـك وبالاضافة الى وظائف آبائك والمركز الذى كنت تشغله أنت •

بقدر الحب الصادق الذى يغمرنى به الاله «رع» ، والمديح الذى يختصنى به أبى آموان ؛ سـميت له كل العاملين فى البلاط قائد الجند وقساوسة الالهة ، وكبار موظفى القصر الماثلين بين يديه • فلم يرض عن واحد الا عندما ذكرت له اسمك ! فلتكن له اذن وليا لأنه استدعاك » •

وببالغ النفاق نرى رجال البلاط يهنئون انفسهم بهذا الاختيار الالهى الذى وجه اليه به « رمسيس » تم ينتهى احتفال التنصيب •

وأعطى جـلالته « لنبونف » حلقتين من ذهب وعصـــا من الالكتروم • وبذلك عين كبيرا لكهنة آمون ومديرا للبيت المزدوج ــ بيت الفضـة والذهب ــ ومديرا لخزانتى الغلال ، ومديرا للأعمال ، ورئيسا لسائر الطوائف المهنية فى طيبة • وقد بعث برسول ملكى الى بقاع أهـل مصر كافة ليبلغ أن دار آمون قد أصـبحت تحت يمينه بكل متاعها والعاملين فيها •

والواقع أن هذه الطريقة لم تتغير على الاطلاق • فمن لوحـة كبير كهنة بتاح « باشير ــ ان بتاح » بعد ألف ومائتى عام من عهد رمسيس ، نجـد أن الملوك لم ينهجوا نهجا جديدا فى اختيار كبير الكهنة •

ومن ذلك نلاحظ بصفة عامة أن النفوذ الملكى لم يتدخل فى تعيين رجال الدين الا فى حالتين محددتين : الأولى عندما كان الملك يود أن يكافىء أحد الكهنة (أو أحد موظفيه) • والثانية عندما كان يود ــ مدفوعا بأغراض السياسة الداخلية ــ أن يغير ميزان القوى فيختار رئيس كهنة طيبة من خارج اطار كهنة آمون الأقوياء • وفيما عدا هاتين الحالتين يبدو أن الوصـول الى المناصب الدينية المختلفة كانت تنظمه احدى الطرق الثلاث التى مر ذكرها •

التنصيب :

وفيما يختص بالمرحلة الأخيرة لاختيار الكاهن ، فان المعلومات التي وصلت الينا مع الأسف أقل مما كنا نود · فالنصوص البطلمية التي وصلت الينا فى لغتين ، قد عرضت لطقوس « التنصيب » الا انه ليس من اليسير تفسير أساليبها ·

فاذا جاز أن يؤخذ بما جاء في بعض النصوص ، بدا أنه بعد عمليات التطهير التى تقتضى كل من يدخلون المعبد ، لم يكن هناك شيء ذو بال « لم يبق على الكاهن الجديد الا أن يحظى بلون من التعميد البسيط : وانطلقوا يبحثون عن « بتاح نفر » كاهن آمون الجديد وقادوه الى المعبد ومسحوا يديه لتمكينه من خدمة آمـــون (انظر قصة بتيزيس) · وذلك هو نفس الأسلوب الذى كان يتخذ فى حالة التنصيب فى الوظائف غير الكهنوتية · واذا كنا الآن نقلد الوظيفة باللباس ، كان قدماء المصريين يقلدونها بالدهان ·

ولكنا نستطيع استكمال ذلك من نص على تمثال بالمتحف المصرى يمدنا ببعض معلومات اضافية · حيث يقول صاحبه وهـو كاهن شاب : « مثلت فى حضرة الاله وكنت شـــابا ممتازا حـين قدمونى فى أفق السماء ··· وخرجت من النون (المياه الأزلية) وقد تخلصت من كل ما كان عالقا بى من مساوئى · وخلعت ملابسى ، وخلصت من الدهون التى كانت عالقة بى ، كما ينطهر حورس وست · وتقدمت الى حضرة الاله فى قدس الأقداس مليئا بالرهبة أمام قوته» · ومن ثم كان خطوات التكريس ممثلة فى المثول فى المعبد ، فالتطهر ثم رؤية الاله أخيرا · كان الى جانب ذلك بالطبع بعض التوصيات ثم تبليغ بعض الأسرار التى لم يكن يستطيع معرفتها ســـوى الكهنة المبتدئين ، مثل معرفة تلك الاصطلاحات السحرية التى من شأنها أن تسمح « بفتن السماء والأرض وجهنم والمياه ورؤية الشمس

تتصاعد الى السـماء بين ركب من آلهتها ، وكذلك مطلع الفجر ، والنجوم في كامل هيئتها « انظر : (قصة ساتنى فصل ١٢١) •
ولم يكن المعبد مجرد بناء صـامت بسيط أو اطـارا لا يكترث بالأحداث التى تدور داخله ؛ بل كان صورة مختصرة للكون أو بمعنى آخر نموذجا يصور بطريقة رمزية مناطق الكون ؛ حيث يتحـرك الاله • ويبدو أنه كان على الكاهن الجديد أن يتسلم عند تعيينـه شرح معاني هذه الرموز المختلفة •

ونود أن نشير فى هذا المجال الى الطقوس التى ارتبطت بالمام « لوسيوس » بعبادة ايزيس في روما التى وصلت الينا عن طريق Apulée, Métamorphoses . فنجـد ان الـكاهن الأكبـر يعرض عليه أولا طقوس تعيينه وذلك حسب ماورد فى قراطيس البردى المصورة بالنقوش الهيروغليفية • ثم يتطهر «لوسيوس» فى « البحيرة القريبة » ثم « يرش بالماء المطهر » ثم يقوده الكاهن حينئذ « الى قدمى الآلهة نفسها ، ويسر اليه بعض المعلومات التى تفوق كل كلام البشر » • تلك كانت المرحلة التمهيدية • وكان على الكاهن المرشح أن يقوم بذلك لمدة عشرة أيام وفجأة يتم الالمام بكل شىء • وبعيدا عن أنظار العالم يتم الباس « لوسيوس » ثوبا من الكتان لم يلبس من قبل ثم يأخذ الكاهن بيده ويقوده الى أقصى مكان فى قدس الأقداس » • وهناك له ما تبقى من الأسرار • وهو يذكر لنا ذلك فى قوله « اقتربت من حافة الموت ووطأة عتبة الالهة «برسفونى» (١) ، ورجعت منها تحملنى كل العناصر ، وفى الليـل رأيت الشمس ساطعة • واقتربت من الآلهة القاطنين فى الأماكن السفلى والآلهـة القاطنين فى الأماكن العليا والذين رأيتهم وجها لوجه وعبدتهم عن قرب » •

---

(١) زوجة بلوتووربة عالم الموتى عند الاعريق (المترجمة) •

وقد كتب كثيرا فى شرح هـذا النص الشهير الذى يبين أن الكاهن الشاب قد قام برحلة كونية ، ومات فى الدنيا ليبعث فى صورة متغيرة • ويبدو ولاشك « أن الديانات التى تحوى السحر فى صميمها » قد أثرت بشكل واضح على العقلية التى كانت تفهم وتقرر تعلم الأصول والأوليات • هذا وقد تعرضت هذه الديانات لاتجاهات كثيرة كانت أقرب الى مذهب التصوف اليونانى منها الى التقاليد المصرية • على أنه يبدو لنا ـ ويستطيع القارىء الحكم على ذلك من واقع الملاحظات التى أوردناها فى أوائل هذه الفقرة ـ ان مراحل الاحتفال ظلت فى شكلها ـ ان لم يكن فى روحها أيضا ـ قريبة جدا مما كانت عليه فى الوقت نفسه فى المعابد المصرية .

الباب الثالث

حياة المجتمع فى دور العبادة

حياة المجتمع فى دور العبادة

يمكن أخيرا من أن نفلت من كتائب السائحين وصخبها • فهاهم ينطلقون الى مخارج المعبد حيث ينتظرهم صف طويل من المركبات • وهنا نحن نستمع الى صوت ضربات السياط تقرقع فى الفضاء ، ثم يخيم السكون على هذا العالم الكبير من الأطلال •

نحن الآن فى الكرنك وعلى رأس الصرح الأول فى أمسية يوم دافىء من أيام الشتاء بحيث يبدو النيل وجبال طيبة وقد بدأ يطويها الظلام تحت سماء كساها الشفق بلونه الأحمر ، ويبدو على الجانب الآخر معبد الاله « آمون » ضخما ورائعا ، الى انسجام لم يكن فى الحسبان لحواء حجرى هائل ، وعلى مدى نظرنا الى الجدران البعيدة نرى الآثار تترى فيتلو بعضها بعضا ، وتتراكم بعضها فوق بعض• أو منبعثة كالنباتات وسط الارض أو متداعية منقضة ، صروح ومسلات ، وتماثيل شوامخ ، وطرقات بين صفوف الكباش ، ومقاصير على مدى النظر • وعن يمين نخال البحيرة المقدسة بسطحها

الهادىء ترفرف عليه بعض أسراب الطير . وفيما وراء الأسوار الخارجية نتوقع أطلالا أخرى محتجبة وراء النخيل ، ثم معابد وبحيرات أخرى ، وكذلك أصنافا وصفوفا من تماثيل الكباش .

ذلك الشعور بالعظمة قد عرفناه من قبل فى دندرة ومدينة هابو وفيلة . ويعتبر كل منها فى نمطه عالما رائعا ؛ فهو مجموعة ضخمة من نتائج التنقيبات من الأبنية الراسخة فوق مساحات ضخمة من نتائج التنقيبات من المبانى الراسخة فوق مساحات وهياكل فسيحة تبلغ فى اتساعها سعة المدن حيث يتراص فيها الصخر الناطق بابهة العواصم والمعبر عن عظمة الملوك ، والمشير الى ساعات التاريخ الحافلة .

واذ يغشى الظلام محيط المعبد الكبير وهو ظلام مشوب بما يلف القرى من ضباب أزرق يتوارى ما خلف الماضى من آثار البلى ويبدو لنا وكأننا نشهد المعبد كما كان فى أيام أبهته عندما كانت الجماهير من رجال الدين تبعث الحياة الى أبوابه . وفى هدأة الليل وغمرة الظلام تبدو الصور المنقوشة على الجدران وكأنها تتحرك من حولنا .

لقد كان هناك حقا عالم من الكهنة يعمر تلك الهياكل العظمى. من كبير الكهان ــ وكان من الشخصيات الكبيرة المرموقة فى سياسة الدولة ــ الى أدناهم رتبة حتى أصحاب الحرف . وهكذا كانت هناك طوائف من الخدم والكهنة والمساعدين فى شتى المجالات من مختلف الكفايات يذيعون الحياة فى سائر الأفنية والمجازات داخل المحيط المقدس . وفى الكرنك ــ وفى عصر « آمون » الزاهر ــ كان عدد العاملين الموجودين بالمعبد خلال ساعات اليوم يعد بالمئات ، ان لم يكن بالألوف . ولدينا من عصر رمسيس الثالث (١١٩٨ ــ ١١٦٦ ق.م) قرطاس يسجل مجموع من كانوا يعملون فى خدمة «آمون» من الرجال بين كهان وفلاحين ثم صيادين ومن رجال الملاحة

والاداريين وغيرهم من مختلف العمال • قد بلغ عددهـــم ٨١٣٢٢ شخصا • كما نعلم من المصدر نفسه أن المعبود المحظوظ كان له ٤٣٣ حديقة ومساحة قدرها ٢٣٩٣ كيلومترا مربعا من الحقول و ٨٣سفينة و ٤٦ دارا لأعمال البناء ، و ٦٥ قرية صغيرة تعود غلاتها على تلك الأماكن المقدســـة • ومن هذه الأرقام نسـتطيع أن نتصور الأهمية الكبرى التي يتمتع بها موظفو « آمون » والتي ينعدم نظيرها ، كما يمكننا أن نتخيل – في سهولة ويسر – العدد المذهل من الكهنـــة والرجال الذين يؤدون مختلف الأعمال المتصلة بالعبادة وبادارة مثل هذه المنظمة الكبرى • وقد أمكن معرفة ١٢٥ وظيفة من الوظائف المختلفة التي كان يشغلها الموظفون الملحقون بخدمة هذا المعبـــود العظيم •

وتلك كانت بالطبع حالة شاذة • فأمام هذه الثروة الضخمة تبدو ثروات المعابد الأخرى ضئيلة بشكل واضــح ، فمعـــابد « هليوبوليس » و «منف» – وهما أكبر مدينتين في مصر بعد طيبة – كانت مواردهما أقل من ذلك بكثير • فكان عدد العاملين في كل منهما $\frac{1}{7}$ ، $\frac{1}{27}$ على التوالى من عدد العاملين في معبد آمون • وفيما يلى جدول يبين موارد من المعابد الثلاثة وامكاناتها .

	طيبـــة	هليوبوليس	منف
رجال	٨١٣٢٢	١٢٩٦٣	٣٠٧٩
ماشـــية	٤٢١٣٦٢	٤٥٥٤٤	١٠٠٤٧
حدائق	٤٣٣	٦٤	٥
حقول (بالكيلو متر المربع)	٢٣٩٣	٤٤١	٢٨
ســـفن	٨٣	٣	٢
ورش	٤٦	٥	–
قرى	٦٥	١٠٣	١

من ذلك يبدو واضحا تفوق «طيبة» مع العلم بأن «هيليوبوليس» « ومنف » كانتا مدينتين كبيرتين جدا • ولقاء هذا الاكليروس الأيد القوى النفوذ ، والذى كان يمثل دولا داخل الدولة ، نجـد على النقيض بعض العبادات التى كانت تمارس فى مكان ضيق صـغير ولا يعمل فى خدمتها أكثر من شخص أو اثنين • بل كانت هنـاك معبودات تحدثنا النصوص أنه لم يكن لها اكليروس خاص عـلى الاطلاق ؛ وانما كان لها بعض الفائض من خدام معبودات ذات غنى وتأبى مكانتها قبول مثل ذلك •

وبين هاتين الحالتين المتناقضتين ـ فى تطرف ـ عاشت غالبية المعابد المصرية بعدد متوسط من الكهنة • فكان معبد « أنوبيس » القريب من هرم الملك « سنوسرت الثانى » (١٩٠٦ ـ ١٨٨٨ ق٠م) بالفيوم يخدمه خمسون شخصا : ٦ من الكهنة الدائمين و ٤ مجموعات متغيرة يتكون كل منها من ١١ خادما • أما فى أسيوط فكان المعبود (اوبوواووت) يكتفى للخدمة فى معبده بعشرة من الخدم ، على حين كانت « الحيبة » ؛ بلدة « پتيزيس » التى سـبق الكلام عنها فى الفصل الأول يخدم فى معبدها ٨٠ كاهنا بصفة دورية ، أى بمعدل ٢٠ كاهنا فى كل شهر بالاضافة الى وجـود بعض الأشـخاص الدائمين • ومما لا شك فيه أننا لا نجاوز الصواب اذا ذكرنا أن أى هيكل متوسط كان يتبعه ـ بصفة دائمة ـ عدد من الموظفين يتراوح بين ١٠ و ٢٠ أو ٢٥ موظفا •

رتب الكهنـة :

لم يكن ذلك الحشد المختلط الذى يعيش داخل المعابد كله من الكهنة • وان كانت كثرة منهم من ذوى الرتب المختلفة •

الواقع أنه ينبغى ان نفهم أن المقصود بالكاهن كل أمرىء قد تطهر جسدا بالقدر الذى يسمح له بالاقتراب من المكان المقدس

أو مس أى شىء ، او اى طعام مكرس للاله . وكانت الوسيلة الى ذلك مختصرة • اذ لم يكن التعيين – بخاصة فى وظائف الكهنـــة الصغيرة – يحتمل أى تأجيل • فكان واضحا أنه اذا تضخم عـــدد الكهنة (المطهرين) استدعى ذلك وجود هوة سحيقة تفصل بين الكاهن المرتل والكاهن الموكل برؤية الاله •

ومن ذلك يتبين أنه كان هناك عدد كبير من الدرجات يشغلها أولئك الأشخاص الذين يعملون فى المعابد ويستحقون لقب الكاهن• وعلى ذلك فقد كان من الممكن التمييز بين طبقات الكهان العليـــا والدنيا ، وطبقة الكهان المساعدين • الا أننا نجد صعوبة اذا حاولنا التفرقة الدقيقة بين كل هذه الطبقات •

وأول هذه الصعوبات أن تلك الطبقات يمكن أن توصف بأنها كانت دائما بين مد وجزر فمن الطبقات الكهنوتية ما كانت تعتبر أحيانا من العليا وأحيانا أخرى من الدنيا وأحيانا ثالثة من طبقات الـ pastophores متـــلا ، أو من المنشدين كذلك • وجائز أن المكان كان يتحكم فى الترتيب فيجعل منهم شخصيات أساسية وأخرى ثانوية ، ويحتمل كثيرا أن أهميتهم كانت تنمو بمرور الوقت والواقع انه من واجبنا ان نقيم السلطة المقدسة فى الوقت نفســه على أساس ما جاء فى المصادر المصرية المتعددة فى جميع العصور وما جاء فى القوائم الاغريقية التى لايمكن أن تكون غير انعكاس متأخر لصور من نظام الكهنوت •

وثانى هذه المصـــاعب أن ما وصل الينا ليس كافيا ؛ لأن الطبقـــات المختلفة لرجال الدين أو المتخصصين الذين يعملون فى المعابد لا يمكن ربط بعضها ببعض باسلوب قياسى رتيب . وكذلك كانت الحال فى شأن الاداريين ، ورجال الدين أحيانا ، والعلمانيين غالبا ، ثم هى كانت كذلك فى شأن الفنيين ، وهم الكهنة المرتلون ومفسرو النصوص ، والكهنة المتناوبون الذين يؤدون فى العبادة –

أو فى الحياة الجارية فى المعبد بمعنى أصبح — دورا بالغ الاهمية • ومن السهل مع ذلك اعتبارهم من العلمانيين المتخصصين • وعلى ذلك سنتخذ تنظيما أكثر تفصيلا يعتمد فى انشائه على الدور الفعلى الذى كان يقوم به كل خادم بدلا من الاعتماد على الاهمية المرموقة التى تسند الى نشاطه •

العمال الاداريون :

وحين يكون المعبد متواضع الحجم ، وليس له من أملاك الارض غير قدر ضئيل ، ولا يضم غير عدد محدود من العاملين ، كانت ادارته بالطبع ميسورة • ويقتصر العمل فيها على مراجعة الغلات الرتيبة التى ينالها المعبد من حقوله لتزويد مائدة المعبود وموائد خدامه من ناحية ، ومن ناحية أخرى مراقبة حسن القيام بالخدمة الدينية وحسن السير بالاحفال المرسومة • ولم تهمل النصوص من الصور مايرينا كهنة هياكل صغيرة تجمع الى ألقابها الكهنوتية ألقابا ادارية ، وينصرف أصحابها عن العبادة الى الاهتمام بالغلال وتعبئتها فى العباب •

وحين يحظى المعبد بشىء من الاهتمام يصبح مثل هذا الجمع الذى أشرنا اليه مستحيلا • فلقد كان لمعبد «آمون» فى طيبة جهازه الادارى الخاص الذى كان يعتبر وزارة قائمة بذاتها ولم يكن فيها للموظفين الدينيين أى شأن • فكان هناك من يديرون الاراضى كرئيس كتبة الضيعة ، وكتبة الحسابات ، ورؤساء الجنود ، ورؤساء الرديف ، كل أولئك كانوا يحتلون وظائف هامة بجانب منصب رئيس الخدم فى بلاط المعبود ، وكبير خدامه ، والمشرف على موظفيه ، «ورئيس الشرطة» • وكان يوكل بنتاج المعبد وغلاته من يدعى « رئيس قطعان الماشية ، من ذوات القرون والاظلاف والريش» • أما الحقول فكانت تحت اشراف مدير الحقول والاراضى

الصالحة للحرث • على حين كانت المحاصيل تحت اشراف « رئيس مخزن الغلال المزدوج » وسيطرته • وكانت الخزينة تحت اشراف « مدير الخزانة ورئيس كل شيء يقع تحت يمين الاله آمون » •

وكان تحت كل شخص من كبار الاداريين أولئك جيش من النواب والمساعدين والكتبة وصغار الموظفين الذين يكونون الجهاز الادارى العام الذى يعمل فى الأجهزة العديدة ببلاط الاله .

ومن القرطاس نفسه الذى سبق أن استخلصنا من نصوصه قائمة أملاك المعابد الثلاثة الكبيرة ، يمكن أن نتبين الارقام الضخمة التى توضح لنا النفقات الباهظة التى تتكلفها سنويا كل ضيعة من ضياع تلك المعابد ؛ نذكر من ذلك ــ على سبيل المثال ــ ما كان يناله كهنة آمون من المقادير الضخمة من الذهب والفضة والنحاس فضلا عما كانوا يحصلون عليه من الالوف من قطع النسيج ومئات الالوف من الحبوب ومن أعداد الطير • ويمكننا كذلك أن نتخيل عدد الكتبة وعدد القراطيس التى كانوا يستخدمونها فى احكام مثل هذا التنظيم . كما نستطيع ان نفهم كذلك لماذا اعفى الكهان أنفسهم من حمل هذا العبء وألقوه على كاهل جهاز ادارى ، ومع ذلك فقد كان من الممكن ــ عمليا ــ أن يصبح أعضاء الجهاز الادارى الدنيوى على اختلاف درجاتهم من «رجال الدين» • وفى أغلب الاحوال كانت الهيئة الادارية لمعبد معين ــ بما فيها مدير المعبد ومدير قطعان الماشية ورئيس خزانة الاله ، وكاتب داره ، ومدير خزائن غلاته ــ يرأسها أمير المقاطعة الذى كان يضطلع الى جانب وظائفه ببعض المهام الدينية • فقد كان «حاب زفاى» أمير أسيوط فى عهد «سنوسرت الاول» (حوالى ١٩٥٠ ق•م•) يعتبر نفسه عضوا من أعضاء الجهاز الدينى ولا يقل عمله فى المعبد عن عمل الذين يؤدون الطقوس الدينية فيه •

وبالتدريج ، ومع مرور الزمن فقدت وظيفة الادارى مظهرها الكهنوتى فأصبح Lêsonis العصور المتأخرة (وقد أصبح شخصا «سنويا») مجرد وكيل أكثر منه كاهنا ، كما أن ال épistate وهو الذى حل محله فى العصور الاغريقية والرومانية — قد أصبح فى الحقيقة هو الرئيس المدنى لممتلكات الاوقاف • ويخضع لاشرافه وسيطرته محصلو الضرائب والعوائد الذين يتــولون جبـاية هذه الاموال وتوريدها للمعابد ، وكذلك الوكلاء المكلفون بادارة الاراضى المقدسة والمحاسبون الذين يتولون القيد بالدفاتر أولا بأول •

العاملون فى الخدمة الدينية :

ومقابل هذا الجهاز الادارى — الذى لا يعادل الدينى — كانت هناك طائفة من رجال الدين انتظمت فى « خدمة الاله » سماهم ، الاغريق — فى غــير دقة — بالنبيئين (prophètes) وليس الاله المصرى فى الواقع قوة معنوية تعبد فى كل مكان ، بل يعتبر سندا قويا محصورا قابعا بصفته المادية فى المقدس ، كمـــا أن الخدمات التى تقدم له خدمات مادية سخية تتمثل فى الطعام والزينة ••الخ ومن هنا كان العــاملون فى خدمته من رجال الدين أشـــبه بمن يحيطون بعظيم فى قصره ويتسمون مثلهم «خدما» •

وفى كثير من الاحيان نجد أن المعـــابد المتوسطة فى يد عدد محدود من «خدام المعبود» • ولكن حين يكون المقـــدس من الاهمية بمكان ويتضخم عدد العاملين فيه كان الامر يقتضى وجود عدة طبقات تحمل هذا اللقب • وهكذا كما اقتضت طبيعة الحال فى اكليروس آمون الذى تدرجت طبقـــات «خدم المعبود» فيه أكثر من غيره من المعـــابد ، فقد احتـوى على أربع طبقـات من العـاملين ذوى الأيد والسلطان ، فضلا عن الخدم الذين لم ينتظمهم سجل الدرجات العلى •

مثل هذا التقسيم الذى انتظم طبقـــات رجال الكهنوت فى معبد آمون ـ وقد كان ضروريا بالنسبة اليهم ـ قد امتد الى بعض الفئات الأخرى من رجال الكهنوت بسبب ضخامة العدد .

وبعد تحديد هذا التابع فى رتب الكهنوت نرى من المنطق أن كلا منها تبدأ فى التقدم بانتظام على حسب مراحل الوظائف الدينية المتتالية • ولدينا فى الواقع الـــكثير من الوثائق التى توضح أن الكهنة كثيرا ما كانوا يتخطون بسرعة أدنى الدرجات وأوسطها • والواقع أن حياة كل كاهن لم تكن شاقة أو متعبة كما قد يتبادر الى الذهن ويمكن القول بأن الترقيات كانت تؤدى الى اختيـــار أكثر الاشخاص صلاحية لشغل الوظائف الكهنوتية وأن عـــدد الكهان الذين بلغوا أعلى الدرجات كان يقل كلما علت الوظائف •

ففي اكليروس آمون الطيبى كان ثانى كهانه الاقــربين يحتل فى الدولة مكانا مرموقا ، وكان ذا حيثية كبرى ، وكان يحــل فى بعض المناسبات محل خادم المعبد الأول الذى كثيرا ما كانت تضطره مهام وظائفه المتعددة ـ السياسية منها والدينية ـ الى التغيب عن معبده • وكان يضع يده بصفة خاصة على جزء كبير من دخل الاله آمون ، وكان له الاشراف على دور الصناعة والحقول ومراقبة الجزية الاجنبية التى تؤدى الى الاله • وقد كان مخصصا له «بيت» مزود بجيش كامل من الموظفين والكتبة والمرءوسين المبـــاشرين الذين يقومون باعداد الوثائق الادارية باسمه ويســهرون على حسن سير المصالح الموضوعة تحت اشرافه •

فأما خادم المعبود الاول أو «الكاهن الاكبر» فقد كان صاحب مكانة عالية جدا ، يستمد قوته فى الدولة بالطبع من قوة الاله الذى يقوم على خدمته • وكان يحمل فى بعض الاحيان اسما خاصا ارتبط بوظيفته المحددة التى كان يمارسها قديما فى عبادة الهه ، ومن ثم

كان أكبر الكهان في طيبة لا يحمل سوى اللقب البسيط « رئيس كهنة آمون فى طيبة » • فأما العنشمى (صاحب « عين شمس » هليوبوليس) — اذا أخذ بأحد التفاسير الجديد — فكان له اسم واضح البلاغة • فقد كان يدعى « من يستطيع رؤية العظيم (الاله) » وهو اللقب الذى حور — بعد أن أعادت تفسيره الاجيال التالية الى « أعظم الرائين (من يستحلون) طلعة الاله رع » • فأما رئيس كهنة الاله بتاح بمنف فقد كان يحمل اللقب الفنى « أكبر رؤساء أهل الصناعة » (= الصناع) • اذ كان الاله بتاح ، كما نعرف حامى الصناعات جميعها •

وكان فى مقدور رؤساء الكهنة أن يخرجوا احيانا عن الصف، بعد أن يكونوا قد رقوا درجات المناصب الكهنوتية المختلفة • وقد كان من المألوف — فى الوسط الكهنوتى الهام فى مصر — أن يرتبط مصير الكبار من أولئك الكهان بالظروف السياسية المحيطة بهم، وبمكانهم من الملك • وكان من الجائز اختيارهم ممن يخدمون فى دار آمون ومن سائر رجال البلاط وكبار قواد الجيش • الا أنه كان من حق الملك فى الوقت نفسه اختيارهم من خارج نطاق هذه الفئات ذات الحظوة ، فهكذا كانت الحال فى أمر «نبونف» • فقد كان فى حرية الاختيار هذه ما يسمح للملك بوضع رجال جدد من خلصائه على رأس الوظائف الدينية ليستطيع الى حد ما مقاومة مطالب ذوى النفوذ القوى من الكهان ؛ وقد كانت فى ازدياد مستمر • ولسوف نرى أن أعلى المناصب الكهنوتية ما كان يشغلها رجال الكهنوت أولئك، الذين أصبحوا أعلى شخصيات الدولة •

وعندما كان الملك يعين رئيس الكهنة من غير رجال الاكليروس الذى سوف يتولى قيادته فقد كان من المتبع آنذاك أن يؤيد هذا التعيين بنبوءة الهية • وعند اتمام التعيين — سياسيا وسماويا — كان

الرئيس الجديد للكهنة يتلقى حلقتين من الذهب وعصا رمزية على حين يصدر الملك نطقاً تقليديا :« ها أنت الآن كبير لكهنة الاله (فلان) ، خزائنه ومخازن غلاله تحت يمينك ، كما أنك رئيس لمعبده » ٠

كانت تلك هى عناصر الاكليروس الخاص بالهة مصر ، طبقة خدام الاله والذين يستطيعون - كما يقول النص الخاص بذلك - « فتح أبواب السماء » واستجلاء طلعة الاله أثناء العبادة اليومية ٠ وكانت هذه الطبقة هى الصفوة المختارة من تلك المجموعة الدينية التى تضم الرؤساء الروحانيين فى مصر وكبار الكهان أحيانا أخرى وأمام هذه الطبقة المميزة كان يعيش جمهور غفير من أهل الدرجات الدنيا للكهنوت وطبقة المساعدين ٠ ولا يصح أن نغفل عالم الكهنة المنعزلين بعض الشيء عن غيرهم ؛ ويقصد بهم أولئك الاشخاص الذين لم يكن لهم من عمل سوى دور معين من طقوس العبادة وهم الذين يمكن أن نسميهم « المتخصصين » ٠

الاخصائيون :

كان هؤلاء الاخصائيون فى الاغلب الاعم ينتظمون أما فى قوائم كبار الكهان ، أو يدرجون مع من هم أدنى من أولئك فكانوا بذلك قسمة بين الفئتين ، وأحيانا أخرى لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ٠ والواقع أن أهم ما فى الامر هو جانب التخصص الوظيفى وليس جانب التقويم الادبى الذى يجعل منهم كبارا من ذوى الايد أو عمالا غير مرموقين ٠

بين هؤلاء الكهنة غير المتخصصين ، كانت هناك طائفة المزينين stolistes الذين عرفوا فى الوثائق الاغريقية بأنهم الكهنة الذين يقومون كل يوم بالباس التماثيل الالهية وتزيينها ٠ كما كانوا يحتفظون بالمجوهرات والملابس وأدوات الطقوس والعبادات فى قاعات المعبد المخصصة لذلك ، ولم يكن لأولئك المزينين تعريف خاص

فى النصوص الهيروغليفية • وتحدثت وثائق الدولة الوسطى عن «كاهن التنوره» الذى كان فيما يبدو أحد هؤلاء الكهنة • فأما نقوش العصر المتأخر فقد وصفت أولئك الكهنة فى اسـهاب «فهم الذين يشرفون على زينة الاله ويدخلون قدس الاقداس ليجملوا الاله بأقمشتهم» • (مرسوم كانوبس) • ومعنى ذلك أن هذا الدور كان فى العصور القديمة من اختصاص أحد «خدام المعبود» على أن يحتفظ باللقب السابق الاشارة اليه وحده دون غيره من الالقاب وذلك بصرف النظر عما يتمتع به من امتيازات أخرى كان من المنتظر أن ينالها • وأخيرا أصبح من المناسب تعيين أولئك الذين يقومون بالباس التماثيل الالهية بلقب خاص • وفى عداد المتخصصين انتظم العلماء والمفكرون فى «بيت الحياة» ولسوف يتاح لنا أن ندرس بالتفصيل معارفنا عن هده المؤسسات الملحقة بالخدمة الدينية وحسبنا الآن أن نشير الى أنها كانت تجاور المعابد وفيها كانت تنشأ وتدون الكتب الدينية التى تقتضيها العبادات وحيث كانت تسوى عناصر العلم المقدس • والى هذه المؤسسات كان ينتسب كتبة بيت الحياة ، وكذلك خدامها وعمالها • وهم أولئك الذين سماهم الاغريق مفسرى النصوص • وكان بعضهم كهانا ذوى تقدير خاص مبعثه ثقافتهم الواسعة باعتبارهم ممثلى العلم الرسميين داخل محيط المعبد • ومن بينهم كان يختار موكلو الاكليروس الملكى عند قيام البعثات الرسمية التى ينبغى من اجلها اشتراك المعابد المصرية• من ثم نرى أنه فى السنة الرابعة من حكم الملك «بسماتيك الثانى » (٥٩١ ق•م) عندما اقتضى الأمر اختيار كاهن يحمل ضميمة زهر من آمون الى الملك ، اختير فى الحيبة «بتيزيس» كاتب بيت الحياة ذلك الاديب الذى يمكن أن يسأل فى أى شىء فيجيب عليه اجابة مرضية • وقد اجتازت شهرة العلم هذه شواطىء البحر فهناك كثير من النصوص الاغريقية واللاتينية تتحدث ولا زالت عن حكمة هؤلاء الكتاب المقدسين ومعرفتهم الفنية • كانوا يستطيعون

ابراء المرضى (Horapollon, II, 28) ويعرفون العقاقير (Galien) ، والجغرافيا (هيرودت جزء ٢ فصل ٣٨) ، والعلامات المميزة للحيوانات المقدسة وتاريخ الملوك والقدماء (ديودوروس) ، ويتفاهمون على التنبأ بالمستقبل (Joseph, Suidas, Elien) ، وكذلك العمل على نزول الامطار . فأما زملاؤهم الكهنة المنشدون من نساخ الكتاب المقدس ــ الذين سماهم الاغريق ptérophores بسبب الريشتين الكبيرتين اللتين كانتا تزدان بهما شعورهم ــ فقد شاركوهم هذه الشهرة العالمية وتلك الشعبية فى بلادهم الاصيلة .

ولم يكن هؤلاء الكتاب العلماء دائما من الكهان : فغالبا ما كان يجيء ذكرهم فى نصوص علمانية ! فهم مثلا كانوا يعملون عن رضا فى الاحفال الجنائزية باجراء بعض الطقوس الخاصة : «يؤدون الطقوس لندن الطبى ٨ ، ١٢ وقرطاس برلين الطبى ٨ ، ١٠) . وهم يقومون في الاحفال الجنازية باجراء بعضالطقوس الخاصة «يؤدون الطقوس التى تنفع الارواح السعيدة حسب ما جاء فى الكتب السرية المنزلة من علم الكاهن المرتل » . كما كانوا فى النهاية للشعب المصرى بخاصة طرازا للسحرة الشعبيين أبطال الروايات والحوادث الخرافية التى كانت تروى فى أمسيات السمر .

من ثم نسبت النبؤات التى استمتع بالاصغاء اليها الملك «سنفرو» في عصر الدولة القديمة الى الكاهن المرتل (نفرتى) أحد علماء شرق الدلتا . على حين تنقل لنا قصةخوفو التى نزلتبالكاهن المرتل «أوباونر» الذى تمكن بواسطة السحر التخلص من منافسه الذى أغرى زوجته بحسنه وجماله . ومن خلال الفصل نفسه نتعرف على «جاجا ــ ام ــ عنخ» الساحر الماهر الذى توصل بألاعيبه ان يسرى عن الملك ويعيد اليه البهجة التى كان قد فقدها . ولن ننسى أخيرا أن قصة الساحر الناشىء : تلك القصة الشعبية قد تبحث عن اسطورة «لوسيان» وكان بطلها «كاتب مقدس من منف» . واليك

ما روى لنـــا مؤلف (Philopseudès) اللطيف من الكوارث التى حلت ببطلها •

« كنت لا أزال شابا صغيرا أعيش بمصر ــ حيث ارسلنى أبى لاستكمال دراستى ــ وخطر لى يوما أن أصعد فى النيل حتى «قفط» ولأتجه من هنـاك لرؤية تمثـــال ممنون وأستمع الى ذلك الصوت الشجى العذب الذى يردده للشمس عند شروقها • وحينئذ سمعته يرسل صوتا غير متصل اللفظ كما يفعل الناس • غــير أن ممنون نفسه قد فتح فمه ونطق بنبوءة من سبع أبيات من الشعر أستطيع أن أسردها عليكم ، لولا أنها ستكون خارج موضوعنا • وعند ركوب اليم ، حدث ان كان بين الركاب مواطن من مدينة منف ، واحد هؤلاء الكتاب القديســـين ، وكان رجلا رائعـــا بمعرفته وتعمقه عقائد المصريين كلها . وقيل انه قضى ٢٣ عاما فى الهياكل القائمة تحت الارض حيث كانت ايزيس تعلمه السحر •

وقال «اريجنوتس» : ان «بانكراتيس» الذى تتكلم عنه ، هو معلمى • وهو رجل مقدس حليق يلبس الكتان ، مفـــكر ، يتكلم اليونانية (ولكن فى غير طلاقة) وهو ضـــخم أفطس الانف ، غليظ الشفتين هزيل الساقين •

ويستطرد «أيوكراتيس» أنه هو بعينه «بانكراتيس» •• وكنت أول الامر أجهل من يكون الرجل ولكن عندما رأيته يقــوم بالمعجزة تلو الأخرى كلما القت السفينة مراسيها ــ وخاصة اعتلاءه ظهــور التماسيح وسباحته مع الوحوش التى كانت تنحنى أمامه وتداعبه بذيولها ــ أيقنت حينئذ أنه رجل مقـــدس • وأخذت أتقرب اليه بالبشاشة ، الى أن صرت رفيقه • وظلت الصلة تتوثق بيننا الى حد جعله يفضى الى بكل أسراره • واستحثنى آخر الأمر على أن أترك كل من كان يخدمنى فى منف وأن أتبعه وحدى ، قائلا لى : اننا لن

نعــدم من يقــوم على خدمتنا · ومنذ ذلك الوقت عشنا بالطريقة التالية :

عندما نصل الى نزل كان صاحبى هذا يعهد الى قضيب الباب أو المكنسة أو المدق ويغطيه ببعض الثياب ويتلو عليه أحد التعاويذ السحرية ، فيجعله يسير ويعتقد كل الناس أنه رجل ، وكان هذا الشىء يسعى ليأتينا بالماء ويعد لنا الطعام ، ويقضى لنا حوائجنـــا جميعا بكل مهارة ، ويقوم بأداء ما يلزمنا ، واذ يرى الساحر أنه فى غير حاجة الى خدماته يرد المكنسة مكنسة ، أو يجعل المدق مدقا بعد أن يتلو عليه تعويذة أخرى · وساورتنى بعض رغبات فى معرفة هذا السحر ؛ الا أننى لم أستطع الحصــول عليه منه ؛ اذ أنه كان ضنينا به ، أما فى سائر ما عداه فقد كان دائما فى خدمتى · وفى ذات يوم اختبأت فى ركن معتم قليـــلا فسمعت التعويذة دون أن ينتبه هو الى ذلك ، وكانت كلمــة من ثلاثة مقاطع · ثم اتجه بعد ذلك الى الساحة بعد أن أمر المدق بما كان يريد منه القيام به ·

وفى اليوم التــالى ذهب الســاحر الى الساحة ليقضى بعض حاجته فتناولت المدق وألبسته كما كان يفعــل المصرى ، ثم نطقت بالمقاطع الثلاثة وأمرته باحضار الماء · وعندما ملأ الجرة وأحضرها الى قلت له : «كفى هــذا ولا تحضر ماء آخر وعد مدقا» · الا أنه لم يطعنى واستمر فى احضــار الماء الى الحد الذى جعل الماء يغمر بيتنا كله · وقد أخذنى ضيق شديد وخشيت أن يحضر «بانكراتيس» فيغضب منى ؛ وذلك ما حدث بالفعل · فما كان منى الا أن أخذت فأسا وشققت المدق شقين ، فاستمر كل شق يعمل فى ملء الاوانى بالماء واحضارها · وبدلا من أن يقوم واحد باحضار الماء أصبح الذى يحضره اثنان · وفى اللحظة ظهر «بانكراتيس» وأدرك ما حدث فجعل من حاملى المياه قطعا خشبية كمــا كانا · ولــكنه تركنى دون أن اشعر واختفى ولا ادرى الى أين » ·

وينضم الى هؤلاء المتخصصين فئتـــان من الـــكهنة : كهنة النوبة(١) ، والكهنة المنجمون ، وقد ترددت الآراء المختلفة فى شأن الفئة الاولى ثم تداولتها الكتب فيما بعد • فقد ظن مثـلا أن أولئك «الدينيين» لم يكونوا سوى أشخاص مدنيين من أهل الرأى الصائب ممن كانوا يأتون لقضـــاء ساعة فى خدمة المعـابد دون أن يكونوا مجبرين على ذلك ، وتوضيح وضعهم هذا قد ســـاعد على تعليل النصوص المتعددة التى عرضت لذكرهم • ويبـــدو فى الواقع أن كهنة النوبة كانوا غير ما يصورون تماما ، فهم الفلكيون الموكلون بتحديد الوقت الذى يجب أن يبدءوا فيه أى طقس من الطقوس فى ساعات الليـــل والنهـــار • وهم الذين تجعلنـا بعض النصوص نتصورهم جاثمين فوق شرفات المعابد يتابعون بالابصار التحركات السماوية فى الليل •

أما المنجمون فكانوا يعرفون التقـويم الخرافى فيتحدثون عن الايام السعيدة وأيام النحس فى السنة المصرية • وقد عثر بالفعل على أمثلة متعددة لمثل هذا التقويم ذكر فيها كل يوم من أيام السنة موضحا فيها يوم الخير ويوم الشر وما بين هذا وذاك طبقا للأحداث التى جرت فى الاســاطير الالهية والتى حدثت فى ذلك اليوم فى الماضى السحيق • وهناك أيام معينة كانت تعتبر أياما مشئومة ، فمن قدر عليه حظه التعس أن يولد فيها كان حتما أن يلقى حتفه بطريقة أو بأخرى •

واذا جاز لنا أن نأخذ بما جاء فى الروايات الشعبية كان لنا أن نقرأ من أنبائها أنه عندما يولد لأحد الملوك وليد كانت الجنيات (الارواح) البقرات السبع (المعبودات السبع) تهرع لتحدد مصيره•

---

(١) يسمون فى اللغة المصرية كهنة الساعة • لأنهم كانوا يتناوبون على عملهم لساعات معينة (المترجمة)

غير أنه لم يكن حتما على تلك المعبودات النبيلات أن يحملن أنفسهن ذلك العناء عند كل مولد. بل كان على الاب ـ سعيدا كان أم شقيا ـ أن يسعى بنفسه الى متخصص فى علم التقـويم ليسأله عن هذه النبؤات السعيدة أو المشئومة . وهنا كان على الـكاهن المنجم ان يقوم بارضائه . وفيما بعد وفي أواخر عصـور الحضارة المصرية أصبح الكاهن المنجم عالما كبيرا . اذ سرت الى مصر فكرة ربط مصير كل كائن حى فيها بظروف مولده الكونية . وهنا نشأت ـ وازدهرت فيما بعد ـ عادة التنبؤ بمسـتقبل الجديد من المواليد عن طريق ربطهـا بالتأثيرات الكونية التى كانت سائدة وقت الولادة . ولكن لم يكن لهـذه العادة التى ظهرت فى العصور المتأخرة مايرسيها على أى أساس مصرى قديم . ومن ثم يمكننا تحديد وظيفة الكاهن المنجم ـ ان صح أنه كان موجودا بصفة مستمرة فى معابد العصور الزاهية ـ بأنه كان يقوم بتحديد طبيعة أيام لميلاد سعيدة هى أم شقية ، وذلك عن طريق الربط بينها وبين الاحـداث الاسطورية التى حدثت فى مثل هذه التواريخ .

المنشدون والعازفات :

وكان للمنشدين والعازفات ، كما كان للمتخصصين دور هام فى الحياة الدينية بالمعبد . اذ لم تتضمن العبادة فصولا يترنم بها فحسب ، بل كان يصاحب أداء طقوسها فى مختلف الاوقات بعض القطع الملحنة فتغنى أحيانا على نغمات العود . وسوف نتكلم فيما بعد عن تحية الصباح الموسيقية التى تشنف سـمع الاله عند كل صباح، كما ان هنالك بعض النصوص فى «دندرة» وفى «الميدامود» وفى أماكن أخرى منظومة على وتيرة ايقاعية مع بعض مقاطع يرددها مجموعة من رجال التخت كما كانت تتضمن أيضا لازمة متكررة . وهذه المظاهر الفنية كانت تتطلب اخصائيين .

ولدينا الكثير من المعلومات عن أهل العزف والانشاد الدينى من رجال ونساء ٠ ويبدو أن أهمية دورهم قـد أخذت فى الازدياد مع مرور الوقت ٠ فهذا «كليمنت السكندرى» يجعل المغنيين ــ وهم الذين أطلق عليهم لفظ hymnodes ضمن طائفة الكبار من الكهان٠ فلضرورة ضبط الاصوات ومطابقة الايقاع فيهـا لتقـاليد البيان المقدس القـديمة ، كان لا بد من بعض التـدريبات لتكوين هؤلاء الفنانين الذين احتلوا فيما يبدو مركزا اجتماعيا مرموقا٠ وتحت حكم الامبراطور «جوليان» فى نهاية الفترة الوثنية كان الموسيقيون يجندون فى الاسكندرية للاحتفالات الدينية ٠ (Julien, Lettres 109 (56)

أما فى العصور الاقدم فاننا نشك فى أن المنشدين فى المعابد وكانوا من الشخصيات المرموقة فهناك كثير من الوثائق الاقتصادية والاجتماعية ذات أهمية كبيرة وهناك صكوك المنـح تصورهم لنا فقراء يملكون رقاعا صغـيرة من الارض يهوون موسيقاهم الجميلة ويهبون أنفسهم وممتلكاتهم الى معبد معين ٠ ولقـاء تلك المواهب الفنية كان الاكليروس يكفل لهم الامن وأسباب العيش ٠

وتشير كل الدلائل الى أن جشـع خزانة الدولة والاحتكارات العسكرية لم توفر لهم الامتيازات نفسها فى حياتهم المدنية .

أما فريق النسـاء الذين نراهم هنا للمرة الاولى فى محيـط المعبد فيبدو أنهن قد تمتعن بمركز اجتماعى أكثر تقديرا ٠ والواقع فيما يبدو أنه كان فى استطاعة النساء فى بعض المناسبات القيام ببعض المهام الكهنوتية ٠ ولدينا من أيام الدولة القديمة أمثلة من خدمة النساء فمنهن من كن كاهنات لآلهات بل لآلهه ٠ ويبدو أنهن قد قمن بطقوس العبادة مثل الرجال ٠ وقد كن من سيدات المجتمع الراقى أو مجرد بنات لكهنة ثم ورثن وظائف آبائهن ٠

ومع ذلك فقد ضعفت هـذه الظـاهرة بمرور الزمن • فأخذ التخصص في الدور الذى قامت به المرأة في العبـادة يتضـح بالتدريج • فالمعبد الطيبى الذى جعل للاله صـاحبة في الارض وكانت تدعى «الزوجة الآلهية» ـ والتي احتلت مكانة سامية في كهنوت آمون ـ ظل أمره منفردا ليس له في المدارس الدينية الأخرى نظير • أما وجود المنشدات العازفات في المعابد فقد كان أمرا ثابتا تقريبا • وتصورهن لنا النقوش وهن يقمن بهز الصـلاصل أو يداعبن أوتار قيثارة في حضرة المعبود • وفضـلا عن هـذا الدور الفنى البحت كان النساء يظهرون في مناسبات محدودة جـدا ، نذكر منها على سبيل المثال : أثناء تمثيـل الاسرار الدينية كانت تقوم سيدتان بتمثيل دور الالهتين : ايزيس ونفتيس ؛ فيؤتى بعذراوين طاهرتى الجسد خالصتين من كل شعر فيه ، يزين رأس كل منهما شعر مستعار ، وبيد كل منهما دف وعلى كتف احداهما : «ايزيس» وعلى كتف الاخرى «نفتيس» • ثم يقومان بغناء أبيات هذا الكتيب في حضرة الاله (من قرطاس رقم ١٠١٨٨ بالمتحف البريطانى) •

ومما جاء في قرطاس آخر (برلين ١٤٢٥) فان هـذا المشـهد كان يمثل أمام بوابة معبد أبيدوس الموصلة الى أبهائه • ولكن ليس في الامكان التأكد من أن هاتين الفتاتين اللتين تقومان بهذه الطقوس تدخلان في عداد العاملين الدائمين في المعابد ، وان كان من الممكن أنهما كانتا تدعيان في مناسبات الاحتفالات الدينية كمـا كان يدعى الكثيرون غيرهما من الاخصائيين لأداء هذا الدور بعد القيام ببعض مظاهر التطهر • تلك كانت على الاقل حال فتـاتين عودتنا النصوص اليـونانية على تسميتهما « توامتا السيرابيوم » • وقد تكون قصتهما طويلة جـدا اذا ما رويت بكل تفاصيلها وهذه على الأقل سماتها الرئيسية : كانت امهما قد فرت مع جندى اغريقى فاختبأ أبوهمـا في « هراكليوبوليس » خشـية أن يغتاله منافسه

المحظوظ الى أن نوفي • وهكذا ظلت الفتاتان وحدهما فمــا كان منهما الا أن طلبتا الحمـــاية لدى كهنة السيرابيوم بمنف ، وكان هناك صديق لأبيهما (١٦٣ ـ ١٦١ ق•م) • وهناك كان عليهما للحصول على وســائل العيش أن يقوما بأداء دور الالهتين الأختين ايزيس ونفتيس خـــلال احتفالات الجنائز التي تقام عند دفن « العجل أبيس » •

وهناك أخيرا بعض النقوش التي تصور لنا نســاء مقنعات يؤدين دور الالهتين أثناء الاحتفالات • وليس من شك في أن النساء قد كن يقمن بأدوار أخرى في المعابد فقد أفرد « التقويم الكهنوتي في تانيس » بابا يمثل نشاطهن في طقوس العبادة .

وقد سبق أن أشرنا الى أن أى هيئة كهنوتية تابعة لمعبد معين كانت تتضمن بعض كهنة دائمين ومجموعات أخــرى من الكهنة تتناوب العمل • وكان يحدد هذه الدورات نظام « المجموعات » الكهنوتية • ممن سماهم الاغريق « الفيالق » ، وفيما يلي القاعدة التي بني عليها تنظيم هذه المجموعات والتي اتسمت بالبســاطة المتناهية :

كان العاملون غيرالدائمين ينقسمون الى اربعطوائف متساوية في العدد وفي توزيع الوظائف • فكانت طائفة من هــذه الطوائف تقوم بالخدمةالدينية لمدة شـــهر ، أو بمعنى آخر مدة لا تزيد في مجموعها على ثلاثة أشهر في السنة ، يفصل بين كل مدة وأخرى ـ بالنسبة لكل مجموعة ـ ثلاثة أشهر للراحة • وفي العصر البطلمي زيدت تلك الطوائف فاصبحت خمسا ونقص بذلك مدى مشاركة كل مجموعة في صيانة العمل وسيره في المعابد • ويوجد على رأس كل من هذه المجموعات الأربع أو الخمس رئيس • وفي نهاية الخدمة الشهرية تخلي الطائفة التي تغادر المعبد مكانها للطائفة التالية التي

ستحل محلها فى الخدمة وتسلمها جميع المعبد بأدواته ومطاليه .
وفى هذه المناسبة كانت تستخدم « سـجلات المعبد » المدونة على لوحات من الخشب أو أحيـانا على فراطيس من البردى ، لتتمكن الفرقة الحاليـة من التـأكد وقت استلام العمـل من وجـود الأدوات جميعها والمعدات اللازمة لطقـوس العبـادة من تماثيل وأدوات موسيقية ومصليات سهلة النقل وأوان مخصصة للطقوس .. الخ .

أدنى طبقات الكهان :

تشمل هذه الطبقة كل الكهنة الذين لهم الحق فى حمـل لقب المتطهرين ، ولكنهم لا يؤدون فى العبـادة ـ وأثنـاء تأدية الطقوس الدينيـة ـ الا دورا ثانويا . وهم فى النهـاية طبقـة الشمامسة .

هؤلاء « المتطهرون » كان فى امكانهم أن يقـوموا بأعمال مثل حمـل المراكب المقدسة والقيـام برش المعبد ، أو الاشراف على النقاشين والرسامين . ورياسـة الكتبة ورياسة الصـناع فى الضيعة المقدسة ، أو أن يكونوا مجرد صناع فيها يشرفون مثـلا على نعال الاله . وفى المعـابد التى يتسع فيهـا الاكليروس كانوا ينقسمون فيما بينهم الى طبقـات . فمنهم طبقة رؤساء المتطهرين « او كبار المتطهرين » . وذلك فضلا على مرءوسيهم الذين يدخلون فى زمرة الكهنة الذين ليست لهم صفات خاصة بل هم كهنة يقومون بكل شئ .

وفى عداد طبقة الكهان الدنيا هـذه كانت تنطـوى طبقة الـ Pastophores وهم الذين يحمـلون الأدوات المقدسـة ويثير دورهم بل أسمهم مشاكل يصعب حلها . والنحارون الذين يذبحون الحيوانات المخصصة للقربان لم يكونوا قصابين عاديين .

فالنصوص الاغريقية تربطهم بطبقة دنيا من الكهان ، على حين تضعهم بعض النصـوص المصرية فى مصاف العاملين فى « بيت الحيـاة » مشيرة بذلك الى أنه كان عليهم معرفة بعض قواعد الرموز الدينية، وأن وظيفتهم كانت أجل من أن تكون مجرد عمل مادى . فالحيوانات المخصصة للآلهة كان من الواجب اختيارها طبقا لقواعد معينة .

وهناك أخيرا « معبر الرؤى » ويسميه الاغريق (onirocrites) وكان مثقفـا وصاحب دراية قوية بعلم الرؤى الليلية .وكان على استعداد لخدمة المؤمنين الذين يتشوفون الى تفسير أحلامهم .

ومن المرجح أن يكون للعصور التي انتشرت فيها عادة قضاء الليـل فى المعبـد لتلقى انذارات الاله أثر فى وقوع عادة تفسـير الرؤى واقتضى ذلك أن اكتسب أولئك السدنة من طبقات الدنيـا أهمية وتضاعف عدد كتبة بيوت الحياة .

المساعدون والنزلاء الطارئون :

وعلينا أخـيرا أن نذكر على الأقل العاملين الـكثيرين من المساعدين العلمانيين الذين كان نشاطهم يؤدى الى دفع عجلة أمور المعابد المادية برغم أنهم لم يكونوا كهنة بالمعنى المفهوم من هـذه الكلمة . وهم البوابون وحراس المبـانى المقدسة ، والعـاملون القلائل فى دور الصناعة ، فالقصابون والخبازون ، وزراع الزهور ورعاتها ووكلاؤهم وحاملو القرابين الذين كان عليهم نظريا تقديم الطعام للاله على المائدة مرتين فى اليوم. والكناس وهو الذى كان يقوم بازالة كل أثر للأقدام على الرمال فى المقـاصير . ثم طاقم الفنانين والمهندسين والنقاشين والرسامين والنحاتين الذين كانوا يقومون باعمال الترميم والتشييد والزخرفة فى المبانى الدينية طبقا لتوجيهات العارفين فى بيت الحياة ، ثم الرقيق الذين لم تحدد

وظائفهم بعد • وأخيرا طبقة المساعدين الذين يسهرون على رعاية الحيوانات المقدسة واطعـــامها ويمكنون الســــائحين فى بعض المناسبات من رؤيتها لقاء مكافأة مشروعة •

والى جانب هذه الأعداد الهائلة من المساعدين الذين لم يتمكنوا من الحظوة بلقب كهنوتى الا فى حدود متواضعة ، كانت هنـــاك مجموعة من الأشخاص ضخمة وغريبة فى آن معا لا ينبغى أن يهمل حسابهم وأولهم النساك (الخلوتية) ، ففى أواخر عصور الحضـارة المصرية نشأت مؤسسات مدنية طابعها التقوى ، وألزمت نفســها بقيود دينية حتمت عليها الاسهام فى الانفاق على صيانة الهياكل وبقائها ، وكان لذلك أثره فى تشجيع كثير من المدنيين الراغبين فى البعد عن الحياة بصورة ما يمكن أن نسميه بالانعزال أو الاختلاء مع أنهم احتفظوا بالامتياز الذى يخول لهم حق الخروج من المعبد متى يشاءون • يقابل ذلك فريق آخر من الأفراد كانوا لا يجدون فى قربهم من المذابح راحـة لنفوسهم فحسب بل يجـــدون فيه ملاذا يهرعون اليه هربا من واجبات الحياة التى يلقونها على أيدى رجال الشرطة ، ومحصلى الضرائب والتجنيد ومشاكل أخرى • وفى استطاعتنا أن نتخيل هــذا الموكب البائس ، ونتصور من فيه من المساكين العراة ، أو من المشاغبين قطاع الطرق الذين جاءوا يطلبون لقمة تقيم أودهم فى ظل أسوار الضيعة المقدسة التى لا تنتهك حرمتها أبدا ؛ يطلبون الأمان من مصيرهم المظلم • ومنهم من نذر نفســـه فى الظاهر مدى الحيــــاة لخدمة الاله مثل أولئك الرعاع الأتقياء — اذا صحت التســـمية — فى ســـيرابيوم منف أو أولئك الذين رغبوا فى اختلاء للعبادة والذين عثرنا على بعض عقود لهم • وكانوا يحصلون من رجال الكهنوت على نوع الحماية لقاء تنازلهم لهم عن بعض ممتلكاتهم وكان فى استطاعتهم أن يمارسوا احدى الوظائف الملحقة بخدمة الاله . فهذه امرأة تدعى «تانبتينس» وهبت نفسها

لاله معبد صغير بالفيوم وربطت نفسها به بما يفسره قولها الآتى : « اننى خادمتك وكذلك أولادى وأولاد أولادى . ولن أستطيع التحرر من رباطك ابدا ، ولسوف تحمينى وتحفظنى سليمة معافاة ، كما أنك ستدفع عنى كل روح شريرة ، ذكرا كانت أو أنثى ، ومن كل متكلم فى نومه ، أو مريض بمرض الصرع ، ومن كل شخص معرض للمرض ، ومن كل ميت ، ومن كل غريق ، ومن كل روح معاكسة » .

اما الأشرار فقد كانوا يكتفون بالأمن المادى الذى يكفله لهم المعبد على أن يقوموا لقاء ذلك ببعض الأعمال البسيطة من أجل لقمة العيش التى ينالونها كذلك .

والى جانب أولئك اللاجئين بمحض اختيارهم ظهر كذلك المرضى الذين جاءوا طلبا للتنفيس عن آلامهم أو التماس وسيلة لشفائهم عن طريق الاحلام .

وأخيرا عرفت معابد العصور المتأخرة نوعا من النزلاء كان أمرهم غاية فى العجب : أهل الكشف وهواة العذاب . وقد رسمت لنا نصوص « المنجمين » صورا حية لهم : « كان اهمالهم للعناية بأجسادهم رهانا لكمالهم الروحى . فقد كانوا يلبسون ثيابا رثة ، ويتركون شعورهم بدون تهذيب فيبدو على شكل ذيل الحصان . وكانوا أحيانا يكبلون أجسامهم الهزيلة بالسلاسل اشارة لسجنهم الاختيارى . ولا شك أنهم كانوا يفرضون على أنفسهم الامتناع التام عن بعض أشياء ، ويجبرون أنفسهم على النظام . كما أن زهدهم فى الحياة كان يجعلهم فى نظر عامة الشعب يستحقون أن يتجلى لهم الاله Fr. Cumont وكانوا يقومون أحيانا بشرح الأساطير الالهية للزوار والسائحين والحجاج قائمين بذلك بوظيفة التراجمة ، كما كانوا كثيرا ما يتنبئون بالغيب ، وتتناوبهم الرعدة قبل التنبؤ فيجنون بعض المكاسب بسبب الجنون الالهى الذى يعتريهم .

الباب
الرابع

أوجه النشاط المقدس

أوجه النشاط المقدس

يتذكر كل من زار مصر منظر مصاطب سقارة العجيب • فعلى ضواحيها يتوهج ضوء الشمس المحرقة فى عالم مدمر : آثار تئول الى السقوط ، وتلال من الرمال لا تستطيع العين احتمال وهج الضوء المنعكس منها ، وعلى العكس من ذلك يشيع فى المقابر جو منعش جميل ويفاجىء الرائى بعث عالم قديم قدم الأهرام • وفى صفوف متراصة ودقيقة تصور النقوش فى الوقت نفسه كثيرا من الشخوص متحركين عاملين مغنين تحت عين سيدهم المسعدة اليقظانة فى آن معا • فها نحن فى ضيعة غنية ولواحد من أثرياء العصر الماضى ، يحيط به عدد من الخدم والمريدين الذين يعملون فى خدمته • فهذا أحد الخدم يضبط على رأسه شعره المستعار حين يفيق من نومه • وآخر يدلك له قدميه ، وثالث يقدم له ملابسه • وأولئك بعض أقزام ممن ألف يتخيرون القلادة التى سوف يتحلى بها ، على حين يستقبله من يعزفون على القينارة ومن يغنون مايشجى من النغم • ثم يحين وقت العمل فنجد وكلاءه يقدمون اليه تقاريرهم • ويبدو أن هذا اليوم سيكون من الأيام الحافلة بالعمل وأنه سيمضيه

فى التفتيش على الضيعة الواسعة التى يعيش فيها كسيد ، وعليه يقع واجب نجاحها وازدهارها ٠

مثل هذه الحياة التى يحياها ذلك السيد الاقطاعى المهيمن على ضيعته والمقيم فى قصره ومن حوله طوائف من الخدم يتزاحمون على خدمته ، نقول مثل هذه الحياة قد صورها المصريون القدماء لآلهتهم٠ فقد نزل الكائن الأعظم (الاله) الى الأرض وسكن قصرا منيفا « قصر الاله » بينما كفل له خدام الاله وهم الكهنة الرعاية التى تقتضيها حياة ذوى الشخصيات العالية ؛ فهو منذ اليقظة حتى النوم يغسل ، ويلبس ، ويعطر ويطعم ويسرى عنه بالغناء والموسيقى والحرص على صفاء مزاجه لينفذ قضاءه الالهى الخير ، وهو تأكيد مسيرة الكون فى سلام ٠ تلك كانت الخدمة الواجبة لكائن أعلى يقوم بها الكهان ٠

وهو سيد أيد لا يدع أحدا يتقرب منه كأى عمدة من عمد الريف ٠ ومن ناحية أخرى فان اعتدال مزاجه أو انحرافه لن يفضى بتقرير مصير بضع عشرات من الفلاحين فحسب ، بل قد يؤدى غضبه الى فناء البشرية جمعاء ٠ ولن تستطيع قوة الهية فى نهاية الأمر أن تقيم على الأرض حيث تكون عرضة لأن يمسها شىء من الفساد والشر فيعتورها ٠ ولذا اقتضى الأمر اتخاذ الاحتياطات اللازمة كافة لضمان سلامة الوجود الالهى ، وذلك فى أكثر أماكن المعابد سرية وأبعدها عن الأنظار وعن ماق الوجود من رجس٠ ومن هنا كانت العزلة وطهارة المعبد والقائمون فيه بالعبادة زيادة على الصرامة المتناهية فى ممارسة العبادة مع حسن تنظيم القرابين وترتيبها الدقيق من الزم ما يؤدى لارضاء الاله ٠ تلك كانت هى المبادىء التى لا تتغير أبدا وسود العبادات فى مصر جميعها .

الآن وقد غشى النوم الحياة فى مصر ، ونشر السكون جناحيه على المدن والقرى ، ثم على النيل والصحراء ، ومن وراء أسوار المعبد

المقدس الشاهقة ، وعلى شرفة المعبد وقف رجل يرقب ؛ أنه يرصد بروج السماء ويسجل عند جنوح النجوم انقضاء ساعات الليل ٠ وينقضى الليل ويحين الوقت ٠٠٠٠ وعلى ندائه (أو أذانه) يهب فى محيط الحرم الالهى حى بأكمله فتضىء أنوار وتوقد نيران ، وتبدأ الحياة من جديد ، وخلال الساعات التالية تبدأ الخدمة المقدسة ، ويكون كل شىء قد أعد لذلك ٠ فتملأ الحياة أنحاء المعامل وأماكن البيع والتجارة والمخابز ؛ فهؤلاء الكتبة يدفعون الى رؤساء العمال قائمة القرابين فى اليوم الذى حل ٠ ويسير العمل فى سرعة سريعة ؛ فبينما توقد الأفران لاعداد الفطائر وأصناف الخبز . يقوم القصابون بذبح حيوان الضحية بعد ما قرر الكاهن البيطار سلامته ٠ وتعد الفاكهة والخضر تمتلىء بها الصحاف وينشغل المحاسبون بتسجيل ما ينتظر تقديمه ضمن القرابين من ثمار ؛ ويطهر بعض الكهنة قطع اللحم بماء البئر المقدس ٠ وفى هذا العمل الجارى داخل أماكنه فى حماسة ونشاط تنقضى الساعات التى يعلن انقضاء كل منها صوت قوى يطلقه المؤذن القابع فوق شرفته ٠

ويبيض وجه السماء ، ويهب فريق آخر من مدينة الحرم ٠ فنرى الكهنة وقد غادروا دورهم قاصدين الى البحيرة المقدسة فى جموع صغيرة تنم عليهم تحت بقية الليل الباهتة ثيابهم الكتانية البيضاء ٠ ومن الدرج الأربع فى جوانب البحيرة ينزلون الى الماء الذى يغشاه الضباب ٠ وهم عند اغتسالهم لا يطهرون اجسادهم فحسب وانما هم يبتغون أن تسرى الى نفوسهم حياة الهية تدب فيها شيئا فشيئا ٠ فالماء المقدس فى اعتقادهم يجدد ويخلق خلقا جديدا ؛ تماما كما يفعل النون الذى خرج منه العالم فى البداية ٠ فمن اغتسل به أحس قوة جديدة تملؤه وتنقله من هذا العالم ليدخل فى العالم اللانهائى حيث تقيم الآلهة ٠

وهاهم يبلغون هذا العالم فيدخلون اليه ، ولا يكادون يجاوزون أول الأبواب فى سور ذلك البناء المقام من الحجر الرملى من حول

المعبـد حتى يصبحوا فى المجاز الخارجى الكبير الذى يحيط ببنـاء القدس كله · وهنالك يتفرقون فيذهب كل منهم ليقوم بعمله · ومن ذلك القيام بتجديد الماء فى حرض « الاحتياطى » ، ثم حرق البخور وعمليات التطهير المختلفة · تلك خدمة دينية تحضيرية تجرى فى الخزائن الجانبية التى تضم الأدوات المقدسة ، وفى الطريق الذى سوف يسلكه بعد قليل موكب القرابين · ويمر الوقت ويبدو فى شرق السماء لون أفق الصباح وهنا يبدأ الاحتفال بتقديم القرابين· وتنشط المعامل فى انجاز أعمالها ؛ وهى كدأبها دقيقة فى مواعيدها — فوجبة الصباح التى تقدم للاله — تعد فى وقتها المحدد فترى الخدم ينطلقون فى المجاز الى جانب القدس وبأيديهم صحاف رصت عليهـا ألوان الزهر والفاكهة ، وفوق رءوسهم المرتفعـــة فى اتزان دقيق أحمال ثقيلة من الخبز أو اللحوم التى يشتهيها الاله ، وجرار الجعة أو النبيذ التى سوف تروى ظمأه · ويمضى ذلك الموكب متقدما الى القدس يقوده كاهن يرتل بعض الأناشيد وتفتح أبوابه واحدا بعد الآخر · وعند تقديم الطعام الى رب المعبد ترتفع الأصـوات داعية اياه أن يتقبلها وحين يبلغ الموكب رحبة المذبح التى تتوسط المعبد بالقرب من قدس الأقداس ، يتوقف عن المسير فيضع الخدم الصحاف على الموائد والمذابح ، وينزلون جرار الشراب على حوامل تبلغ فى ارتفاعها النصف الأسفل من أجسادهم النحيفة ناثرين بين القرابين المتنوعة ألوانا من الزهر والنبات الغض ·

وينسحب حمالو القرابين ، فيأخذ الكهنة فى تطهيرها برشونها بالماء ؛ ويحرقون من حولها البخور · وتبدأ مرحلة أخرى من مراحل الخدمة الدينية · وقد أخذت أشعة الضوء الذى انتشر فى الخارج تنفذ الى قاعة المذبح من الكوات الضيقة تحت جوانب السقف · وفى مواجهة الكهنة والمرتلين الذين وقفوا الى جانب القرابين ترتفع واجهة المدخل الى قدس الأقداس شماء · ويتقدم واحـد من كبار

الكهان تفرد وحده بالمثول بين يدى الاله فيرقى الدرج المؤدى الى قدس الأقداس مفضيا الى ختم الصلصال - الذى كان قد وضع فى عشية اليـوم الفائت لتحريم الدخول الى هـذا الجزء من المعبد - فيفضه ثم يدفع الباب فينفرج مصراعاه · وعنـدما تأخذ الشمس طريقها مرتفعة الى السماء من أفقها الشرقى ينشد رئيس المنشدين فى حضرة الاله مرتلا أنشودة الصباح « أفق أيها الاله الكبير فى سلام ، أفق فانك فى سلام » ·

يردد المنشدون معا بصوت يجلجل من تحت السقوف التى ارتفعت فوق البناء منذ مئات السنين ؛ لينتقل من مصلى الى آخر فى دوى صاخب هائل « مفيق أنت » وانك فى سلام · افق فى بهـاء وسلام أفق يا رب هذه المدينة بحياه ! ان الآلهة يمجدون روحك مضحين ، أيها القرص المقدس ذو الجناحين ؛ الذى يضىء عند الاشراق من أمه « نوت » ! انك أنت الذى تفضى ختم حجابك من الصلصال وتنشر على الأرض ذهبك المنثور · أنت يا من تولد فى الشرق ثم تغيب فى الغرب لتريح فى معبدك كل يوم » ·

ويردد الكاهن ابتهالته القصيرة مع تغيير ما سبق من صفات الاله ، على حين تردد بطانته باستمرار لأزمتها دون تغيير بعـد كل مقطع. ويتم المنشد ذكر الصفات الالهيةجميعها لينتهى الى الأرباب من رفاق الاله ، ثم الى أعضـاء الجسـد الالهى التى انبعثت الى الحياة فيقول : « عيناك ترسلان لهبا ، عيناك تضيئان الليل، يرتفع حاجباك فى بهاء · أيها المحيا المشرق يا من لا يعرف الغضب » ·

وبذلك كانت الأعضاء المقدسة التى كانت تولد كل يوم من جديد خمسا وأربعين مرة على حين تردد المجموعة بالتالى لأزمتهـا

نفسها خمسا واربعين مرة « أنه مفيق ، انك فى سلام ٠٠ انك تنشر على الأرض ذهبك المنثور . . » .

فى المواجهة :

ويدخل الكاهن المنفرد بحق الاقتراب من الاله الى القدس وقد غشيه ظلام مطبق ، ذلك لأن الشمعة التى أوقدت بالأمس قد أخذت تذبل شيئا فشيئا حتى انطفأت الى أن يعود الليل ٠ وعلى أحد الجوانب استقر الزورق المقدس فوق قاعدته ، وهناك الناووس وهو خزانة صغيرة من الجرانيت أو البازلت ويغلقه باب ذو مصراعين من خشب ٠ وفى جانب آخر صندوق من الخشب به بعض ما يقتضيه أداء الشعائر من أدوات وبعض قطع من النسيج ، وأخيرا المذبح الذى وضعت عليه أمس صحفة القرابين ٠

يبدل الكاهن المصباح فينتشر النور ٠ وتبدو ظلال الزورق والناووس والكاهن فى تحركه ، وينعكس كل أولئك على الجدران المنقوشة وتزينها ألوان زاهية ، فتعود الحياة الى القدس بعد السبات الطويل الذى استغرق الليل كله ٠ ويفضى الكاهن بعدئذ الى الناووس فيفض ما على بابه من ختم ، ثم يجذب مصراعى الباب فى حرص ودقة ٠٠ تلك لحظة جليلة ، لحظة اشراق الاله فى صورته من عالم الليل وذلك فى الوقت نفسه الذى تبزغ فيه الشمس من الأفق مشرقة مع الكلمات الأولى من نشيد الصباح ٠٠٠

ولابد أن يذكر سائر من طوفوا بقاعات متحف اللوفر تلك المقصورة الصغيرة التى خصصت لتمثال الاله «أوزيريس» والمستقرة فى ممر تحت الأرض ٠ هناك حيث يبدو الاله فى كوته وقد انتشرت على جوانبه أضواء المصابيح ٠ وكثيرا ما ينبهر الزائر بذلك المنظر الرائع لهذا التمثال الخشبى وهو يشرق من جوف الظلام فى فتنة

وسحر برغم ما يبــدو في نحته واخراجه من خشــونة ونقص في الاتقان ·

وعلى هذا النحو وبمثل هذه الصورة كان يبدو ــ غالبا ــ اشراق الاله عندما يفتح الكاهن باب الناووس علىَ مصراعيه ، أو تلك صورة ليس من اليسير تمييز ملامحها في الظلام ؛ غير أن بريقا كانت تلمع به عيناه المطعمتان وتاجه وسائر علائقه وحليه المعدنية · ولم تكن مشاهدة الاله من الأمور التي يتاح للناس جميعا أن يحظوا بهــا اذ المفروض أن الملك وحده هو الذي يستطيع ذلك بوصفه ابنا للاله · والواقع انه قد كان بكل معبد عدد يسير من ذوي الدرجات العليا عن الكهان لهم الحق أن ينوبوا عن الملك في مشاهدة التمثال المقدس الذي تتمثل فيه قوة الاله كامنة وجها لوجه عند كل صباح · وعندما كان الكاهن يضع يديه على رأس التمثال فيما يشبه العناق لكأنما كان « يرد عليه روحه » · وهكذا كان الاله الظــاهر في ســماء مصر يعود فيهيمن من مستقره الأرضي وليستوي ملكا طوال اليوم في معبده ، وبذلك يمثل وجوده صورة في ناووسه وهو حقيقة رمز لوجوده في العالم كله ·

ويقوم الكاهن للصلاة مرخيا ذراعيه على جانبيه في خضوع واحترام مكررا دعاءه مرات أربع ليبلغ آفاق الوجود الأربعة وهي حدود الكون · « وانني أمجد جلالتك بتلك الكلمات المختــارة ، بصلوات تزيد من جلالك في أسمائك العظمى وفي تجليك المقدس الذي أشرقت به أول أيام الدنيا » ·

طعام الاله :

على أن القرابين لا تزال على المذابح الى أن يرضى الاله فيقبل الاستمتاع بها ؛ وهنا يجيء الكاهن فيرفع صحفة الأمس الموضوعة في

القـدس ، ثم يمضي ليملأها من قاعة المذبح بالخبز والفطائر الحلوة الطازجة • وكانت تلك المجموعة الرمزية فقط هي التي تقرب من الاله لتمثل مجموعة اللحوم والحلوى والخضر والفاكهة التي تغص بها الموائد • ثم يتم في فصلين رمزيين : تقديم البخور ، وتقـديم « ماعة » ، بهما يتم للاله غذاؤه ، ثم ما للكون الذي يهيمن عليه سلطانه •

.

تلك عملية رمزية روحية ، فالاله لا يطعم ما كان يقدم اليه ، وانما كانت الطعـوم والأشربة انما تقدم الى تمثـاله حيث تكمن الروح • لذا كان ذلك يتم بعيدا عن الأنظار • فما خال القوم في الطعام من روح كان مصيره الى ما خالوا للاله من روح ، كل أولئك دون أن يبدو أي تغيير في ترتيب القرابين التي تكدست فوق المذابح أو تنظيمها • وحين يخال القوم ــ بعد وقت محدد ــ أن الاله قد شبع وشبعت معه أرباب أخرى من بلاطه في معبده ، توضع القرابين على المذابح أمام تماثيل ذوى المقامات العــلا ممن حظــوا بشرف اقامة تماثيلهم داخل النطاق المقدس • ثم ترد بعدئذ الى المعـامل حيث توزع طبقا لنظام محدد بين مختلف كهـان المعبد وهكذا كان يعيش السدنة الدينيون من تلك القرابين المخصصة للاله مستمتعين بحقيقتها المادية بعدما شبعت روح الاله وأرواح الموتى من ذوى المقامات العلا بجوهرها الروحي • ولما عرف نظام الوقف الزراعي لصالح احد المعبودات ضمن الفراعنة في الوقت نفسه طعام الاله ومن يقومون بخدمته الدينية . ولم يكن الاكليروس دائما من الدقة بحيث ينفذ ماتقتضيه الشرائع • وبذلك كان ينحرف نصيب من هذه الموارد دون أن يقدمها للاله ليتمتع بها ، وان كانت النصوص قد حددت ذلك بكل دقة « انهم يعيشون من مئونة الاله ، وهي كل ما يخرج من المذبح بعد أن يستمتع به الاله » (معبد أدفو) •

الزينـــة :

وينتهي الطعام ويبدأ التزيين ، فيغسل تمثال الاله ، وتخلع عنه أردية الأمس ، ويبدلونه بأخرى جديدة ثم يزينونه · ومن المعروف أن كل نسيج لم يكن صالحا لالبـــاس الاله والكهنة · فالصـــوف بخاصـــة لم يكن فى الامكان بأى حال تقريبه من الأشـــخاص أو الأدوات المخصصة للاله · والكتان الرقيق وحده كان صالحا للباس الاكليروس ، ومنه تنسج اللفائف اللازمة لتماثيل الآلهة · ومن أجل ذلك ألحقت بالمعابد مصانع للنسيج يقتصر عملها على اعداد النسيج الخاص بالعبادة · ولدينا من الوثائق التاريخية الخاصة بذلك مايلى : « ··· واشتهرت معامل سايس فى الدلتا بخاصة » · وفى أثنـــاء العصر اليونانى الرومانى ما يذكر بكثرة ما كان يقع من خلاف بين المعابد وبين السلطان على تحديد نصيب كل منهما بما تخرج هذه المعامل ·

وقامت هذه المعامل بامداد المعبد امدادا متصلا ، وكان بين أبهائه قاعة تعرف « بغرفة النسيج » وكانت مخصصة لحفظ الاحتيـــاطى من النسيج · وبعد فقد كان هناك الكاهن المختص والذى يدخـــل القدس ليقوم بالباس الآلهة لباسهم ، وكان هو المسئول عن تلك الأقمشة وصاحب الحق فى احتكار استعمالها ·

ويجرى تزيين الاله فتقدم على التوالى لفائف أربع من الكتان الرقيق أخرجت من الصندوق الخشبى المحفوظ بالقدس ، أولاها من نسيج أبيض ، والثانية من الأزرق ، والثالثة من الأخضر ، والرابعة من الأحمر · والواقع أن لباس الاله لم يكن يبدل كل يوم ، وانما كان يحدث ذلك فى مناسبات قد تقع مرة أو مرتين من كل أسبوع · أما الذى كان يحدث يوميا فقد كان مجرد تقديم اللفائف الأربع التى مر ذكرها وعلى هذا النحو كانت تجرى عملية التزيين على تمثال الاله ، فهى لم تكن تقع الا فى الأعياد ·

ونود أن نذكر في هذه المناسبة أنه قد كان بكل معبد قاعة صغيرة يحكم اغلاقها في الأوقات العادية وكانت تسمى الخزنة · يحفظ بها الثمين من أدوات الشعائر وكل مقتنيات الاله المادية من قلائد وعقود من كل نوع ، وقلانس صغيرة دقيقة وغير ذلك مما يمثل سائر اللوازم التي لا يكاد يحصيها العد مما يتاح لكبير كهان الاله أن يتحلى بها · كل أولئك الى طائفة من القرابين الرمزية مثل العين الواقية «أوجات» والساعة المائية والصلاصل والقلائد التي يسمونها « منات » ، والصوالج والأساور · كل أولئك المحفوظات قد كانت تصاغ من أجمل المواد الذهبية أو الفضية المطعمة باللازورد أو بعجائن من المينا من مختلف الألوان · وكل هذه الأشياء كانت متقنة الصنع ، وبلغت صناعتها درجة رائعة من الفن وقام بانجازها صناع مهرة · ولم تكن هذه الأدوات تظهر الا أثناء أداء الشعائر في الاحتفال حين كان الكاهن يخرجها واحدة واحدة ويقدمها للاله ليكمل بها زينته وبهاءه بعد أن يكون قد ألبسه كتانا رقيقا · ولم تكن تلك القرابين النفيسة تقدم أثناء الخدمة الصباحية اليومية المعتادة · وانما كان يجرى عوضا عن ذلك حفل تنتهى به زينة الاله بمسحه بزيت يسمونه « مدجت » . فنرى الكاهن ممسكا بيده اليسرى قارورة صغيرة من المرمر مملوءة بذلك الدهن الثمين ، يغمس فيها الخنصر من يده اليمنى ثم يمس به تمثال الاله وهو يردد ماينبغي أن يقال في هذه المناسبة · والى هنا في الواقع تنتهى شعائر تزيين الاله · فالاله قد غسل وألبس وزين ومسح بالزيت المعطر وهو فوق ذلك قد شبع ، فصار معدا لاستقبال الظلام الذى يغشى القدس · وهكذا كانت القوى الالهية مصونة من كل عدوان وقادرة على أن تنهض يوما آخر للقيام بدورها الكونى ·

خاتمة الطقوس فى صلاة الصبح :

وتبقى بعد ذلك طائفة معينة من الشعائر ينبغى أن نؤدى لتتم بذلك طقوس العبادة ، اذ أن الضرورى قد تم بالفعل · ولم يبق غير بعض اجراءات مثل رش الماء على الناووس وعلى التمثال ثم على القدس تأكيدا للطهارة المادية ، ثم يقدم الكاهن الحبات الخمس من النطرون (نطرون « وادى الملح » — وهو وادى النطرون الحالى — ونطرون من ناحية الكاب بصعيد مصر) · تم خمس حبات من ملح نطرونى آخر ، وأخيرا خمس حبات من صمغ الصنوبر · وبعدئذ يحجب الكاهن من جديد وجه التمثال فى الناووس الذى يغلق بابه ويختمه بختم من صلصال ليظل على هذا الوضع حتى اليوم التالى · وأخيرا وقبل أن ينسحب بعد احراق البخور للمرة الأخيرة لتطهير الهواء من كل مكروه ؛ يريق على الأرض ما تبقى فى ابريقه . ويزيل بمكنسته ما تركه على الرمال التى تغطى الأرض من وطأ الأقدام ، فاذا ما أفرغ ، انسحب تاركا الناووس مغلقا ، على الشمعة التى أخذت تذبل شيئا فشيئا وصحفة الخبز على المذبح ، ثم يغلق أبواب القدس على ذخائره النفيسة وبهذا تنتهى خدمة الصباح · اما مايبقى من تفاصيل تلك المراسيم الدقيقة ، مثل الزمن المادى للتلاوات والأناشيد واعادة تنظيم المعبد بعد انتهاء خدمة الصباح ، فقد كانت تتطلب فسحة من الوقت · وحين تكون الشمس قد ارتفعت فى السماء ، وقت مغادرة غرف القدس المظلمة ، يبهر الكهان ما يلقون من ضوء الشمس القوى ينبعث من سماء مصر · وهنالك يمضون وقد تحرروا من واجباتهم المادية الى أن يحين وقت خدمة الظهيرة ، والى أن يحين ذلك ماذا تراهم كانوا يفعلون ؟ من المحتمل أنهم كانوا يبدءون راحتهم ليستردوا نشاطهم · وفى الوقت نفسه تكون القرابين قد نقلت الى مذابح الاله ، ثم الى موائد ذوى المقامات العلا المنصوبة تماثيلهم فى المعبد · ثم ترد أخيرا الى المعامل لتكون فى

انتظار الطاعمين · ويستطيعون بعد ذلك أن ينصرفوا الى كثير من الأعمال المتصلة بوظائفهم الدينية كالادارة الداخلية ، والقيـــام بالتسجيلات المختلفة ، واعداد التقارير ، وحـل المشاكل المتعلقة باقامة المبانى المقدسة أو اصلاحها وأخيرا تحقيق العدالة فى محيط الاكليروس فاذا ما كانت الظهيرة ، وحان حين خدمتها ، انصرفوا عن تلك المشاغل العديدة ·

خدمة الظهيرة :

كانت خدمة الظهر أقصر بكثير من سابقتها الكبيرة فى الصباح· فقد سبق توزيع كل ما تقتضيه خدمة الاله بالفعل؛ ولذا يظل القدس مغلقا والآلهة لا تتناول شيئا من طعام قبل غروب الشمس ، ولم يكن هناك من غرض يهدف اليه بصلاة الظهر ســـوى الاشارة بطقوس دينية معينة الى اللحظات الكونية الهامة فى حياة الاله ، وحيث تكون قد بلغت من سيرتها وقت الزوال ، ولما تبدأ بعد فى الانحدار · ومعنى ذلك أن الأمر لم يعد أن يكون مجرد زيادة عدد المراسيم التى كانت تحظى بها التماثيل المقدسة عند الفجر ·

وكانت خـــدمة الظهيرة تتمثل أساسا فى رش الماء وحرق البخور أمام مظلات الأرباب وذوى المقامات العلا ممن يحظون بقرب الاله وجواره فى المعبد ، وحول القدس أمام القاعات الصغيرة التى خصصت للعبادات المشتركة · فتنظيف الأباريق وتجديد الماء فى الحوض الذى ينبغى أن يكون دائما ممتلئا ـ وذلك لون من ألوان حياض الماء المقدس ـ الذى ينبغى أن يظل فى قاعة المذبح ، ثم سكب الماء ، واطلاق البخور فى مختلف الأماكن التى تحددها الخدمة فى الظهيرة ، كل أولئك من شعائر تلك الخدمة ·

الخدمة المسائية :

واذا كانت خدمة المساء قد كان يكسوها شيء من الجلال فانها ظلت مع ذلك أقل بكثير من خدمة الصباح • وهذه الخدمة تعتبر في عموميتها ترديدا للخدمة الأولى من خدمات اليوم ، وان ظل القدس مغلقا بحيث تجرى المراسيم فى زوايا الصلاة التى تحيط بقدس الأقداس من تقديم القرابين والنذور ، وسكب الماء وحرق البخور ، ورفع الأطعمة ، ثم عمليات التطهير الأخيرة • فكل عناصر الطقوس الصباحية تتكرر الى أن يتم التبخير الأخير ، وهناك تغلق أبواب زوايا الصلاة ، ثم ينسحب الكهنة • وحين يسدل الظلام أستاره وشيكا على الوادى تروح الآلهة ــ كالبشر ــ فى سـباق عميق ، ولا يبقى غير الكاهن الفلكى ليرصد من فوق الشرفة ظهور النجوم يتلو بعضها بعضا ليحسب بذلك ساعات الليل •

وكانت تلك العبادة اليومية كما وصفناها تقام فى الوقت نفسه وبطريقة ثابتة تقريبا فى كل معابد مصر • الا أن أبهـة المحافل وأعداد من يشاركون فيها ووفرة ما يقرب من ألوان الطعام ؛ كل أولئك كان مرتبطا بمكانة المعبد • فقد كانت هناك طوائف من أماكن العبادة المتواضعة يقوم بالخدمة فيها شخص أو شخصان ؛ فلم يكن الأمر فيها يقتضى شيئا من مظاهر الأبهة والترف • ومع ذلك تشير كل الدلائل الى أن روح الخدمات الثلاث اليومية التى سبق ذكرها كانت مقدرة • ويمكننا على الأقل أن نؤكد أن نظام الخدمة الدينية كان يتم فى المعابد الكبرى ــ مثل الكرنك وأبيدوس وأدفو (ومنهـا أخذنا سائر معلوماتنا) ثم فى دندرة وفيلة ــ بطريقة مماثلة وفى الأوقات نفسها وبطقوس يطابق بعضها بعضا مع تغيير فى الصفات والأسماء الخاصـة بالآلهة • وكانت بعض تفاصيل العبـادة تحتل مكانها كبر أو صغر حسب الأحـوال • واذا كنا قد أهملنا بعض التفاصيل الثانوية الخاصة بما يجرى من طقوس العبادة وشعائرها فى معبد بعينه ، فانه يلاحظ فيما سبق أن أشرنا فى اطار الصورة

النظرية التى رسمناها ، الى الترانيم التى كانوا يرتلونها · كما بينا فى وضوح كل ما يتصل بنظام الخدمة الدينية مما لم يكن يقع فى أثناء الخدمات التى تؤدى خلال الأحتفالات ، وذلك لنتمكن من الكلام عن العبادات فى مصر جميعا · ومع ذلك فلن يخرج المظهر العام ـ لما يتبقى بعد ذلك كثيرا ـ عن كل ما كان يتم فى معظم أماكن العبادة ·

وانه ليتضح لنا بعد ذلك أن العبادة المصرية لم تخل من مظاهر العظمة ؛ وان كان كثير من مظاهر هذه العبادة يبدو بسيطا وعاديا · كما أن مظاهر الصور الالهية المادية التى تتصل بالغسل والكسوه والطعام لم تكن تمثل فكرة الروحية البحتة فى العبادة ، وأنه ليغم علينا ـ فضلا عما ذكرنا ـ بعض الرموز المتصلة بالتطهير ، وقيمة حرق البخور ، وتقديم الابتهالات · ولكى نجعل ذلك واضحا ملموسا يجب علينا أن نسرد كثيرا من الايضاحات لا يتسع لها هذا المجال · ولكننا لن نجانب العدالة اذا أخذنا عن العبادة المصرية تلك الفكرة التى لا يحددها سوى هذين المؤثرين ·

وقد سبق أن أشرنا فى المكان المناسب الى أن أنظمة الخدمات الدينية كانت تجرى طبقا لما فى السماء من سيرة الشمس والنجوم · وينبغى ألا يغيب عنا أن هموم الكهان فى معابدهم قد كانت قاصرة على السهر على صيانة صنم مغمور بالاحتياجات والرغبات الانسانية ، بل كانوا يدخرون لأنفسهم نصيبا من السلطان الالهى الذى يتجلى فى الحياة نفسها وفى حركة العالم كله · فكل لحظة ذات بال فى سيرة الشمس كانت تدعو الى مرسوم خاص من شأنه أن يهدى الى ما يمثل الاله المشرق على الأرض · فتبديل الكلمات فى نظام المعبد ، وتنسيق الطقوس وتنظيم المراحل الهامة فى حركة الكون ، كل ذلك لم يكن يخلو مطلقا من الشاعرية والعظمة ·

ولا يمكن بعد كل ما ذكر اغفال أن العبادة ـ فى الصورة التى كشفت لنا عنها النصوص ـ كانت من قبل ومن بعد أفعالا صريحة

يتلو أحدها الآخر ، ويحددها نظام معين رتيب تمليه الطقوس وكانت تتم في أوقات معينة . فكل شيء سبق التفكير فيه قبل بدء اجرائه وكل شيء محدد ؛ الزمان والمكان والملبس والحركة والصيغة . ومثل خدمة السيد العظيم التي سبق أن أشرنا اليها في أول هذا الفصل، تجرى أمور هذه الخدمة على سنن وأفعال يجب أن تؤدى ، وفي غير كثير من المران الذهنى الجوانى . فالعبادة شيء هام في الحياة الدينية ، ولكنها تمثل عنصرا واحدا من عناصرها . ومما يلفت النظر أن الشعب لا يشارك في شيء من أمور الخدمة الالهية اليومية فهذه الخدمة من عمل المختصين ، ثم هي عمل جد خاص في الحياة الدينية لا يعبر الا عن وجه من أوجه هذه الحياة وهو الوجه الذى يوصف بأنه أقل مظاهر العبادة فردية . فأما الروحانية الواسعة التي قد توجد أحيانا عند خدام المعبد فسوف تعبر عن نفسها في ظروف أخرى . أما الحمية والحماسة الجماعية التي خبت نارها تماما في القدس والتي لم نقدر اتساع مداها فلن تظهر الا أثناء الاحتفالات الدينية التي تجرى خارج المعبد .

ولم تكن عبادة الآلهة اليومية داخل المعبد لتمثل وحدها نشاط الكهان الدينى ؛ فغالبا ما كان يحل طقس من طقوس أحد الأعياد محل الطقس المعتاد . وكان اجراء هذا الطقس يقتضى من مظاهر الأبهة ما يفوق ما يقتضيه اجراء الطقس المعتاد . فغالبا ما كان يتجلى فيه خروج موكب « الاله » فتجرى الاحتفالات خارج المعبد ويحمل فيها تمثال الاله داخل مقصورة من خشب موضوعة على أكتاف الكهنة ويطوفون به في أنحاء القرى .

وكان الزورق نموذجا مصغرا من زورق أكبر كثيرا كان يستخدم لتنقلات الاله على النيل كما يستخدم لأسفاره الطويلة . وفي الأيام العادية كان الزورق بما يحمل من مقصورة الاله وتمثاله يحفظ فوق قاعدة صغيرة من الحجر داخل القدس أما في بعض المعابد

الفسيحة فقـد كان للزورق قاعة مفتوحة من طرفيها كمـا كانت الحال فى معبد الكرنك حيث جعل له مستودع خاص ·

وكان مقدم الزورق ومؤخره كلاهما يزدان برأس معبود أو معبودة مثل « حتحور » ذات المحيا الباسم أو « حورس الصقر » ، أو « خسو » يعلو رأسه بدر التمام ، وذلك حسب الأحوال · وفى الوسط تقوم المظلة الخشبية بمصراعيها ثابتـة وقد حفظ بداخلها التمثال · ومن فوق هذه المقصورة عريش من خشب رقيق أو من التيل مشدود على عمد صغيرة · وكما هى الحال فى سائر الزوارق العادية نجد من يقف على أحد جانبى الزورق ممسكا بمجداف طويل ليقوم مقام الدفة ، وكان فى بعض الأحيان على هيئة معبود · ومن أمام الناووس يجثو من يقدم الخضـــوع والتجلة الى ســـدة الاله المستور · وأخيرا وعلى الجزء الأمامى تنتشر على الستائر المتسدلة على الناووس صور لبعض الشارات المقدسة التى تختلف من معبد الى آخر · فمن صورة تمثل « أبو الهول » واقفا الى أخرى تمثل الصقر وغيره ··

ويختلف هذا الزورق فى حجمه عن الزوارق النيلية العادية· وليس يفوتنا أنه كان يحمل على ظهور الرجال فيمضون به غالبا مسافات طويلة · كما كان يحفظ داخل قاعات فى المعـــابد ذات أبعاد متوسطة · ولكن رسوما فى بعض المعابد الكبيرة تصور لنا زورقا ضخما يقتضى حمله من الرجال عددا لا يقل عن ثلاثين ·

واذا كان لقب « حامل الزورق » يبدو ضمن الوظائف الدينية الدنيا فمن المرجح أن الرجال كانوا يتتابعون ليحل بعضهم مكان بعض فى حمل هذه الزوارق الضخمة أثناء مواكب الاحتفالات يرون فى ذلك ما يرفع من أقدارهم ويذيع من شهرتهم بين أهل بلدتهم ويهيىء لهم فى قلب المعبود مكانا للرضا · وهذا أحد المصريين من عصر الرعامسة يقول : « لقد حملت « بتاح » على ذراعى ، فليمنحنى هذا الاله من فضله نورا » ·

واذا لم ينحقق لمن يشارك في ذلك شيء من المنافع الروحية فقد كان ذلك يهيىء لهم الانتفاع بعقد بعض الصلات مع الآخرين، وبذلك يحدثنا من يدعى « موسى » فى النصوص التى نركها على لوح له فى متحف تولوز فيفول : انه تعرف على أحد أقربائه حينما حمل معه زورق الاله ... فكان يتقدم الموكب من أمام الزورق كاهن يحرك بيده مبخرة لينشر منها دخان حبات التربنتين لطرد الأرواح الشريرة التى قد تحوم حول الزورق ، ومن خلف الزورق نجد الكهنة من ذوى الوقار ، يتهادون فى ثياب من الكتان الناصع البياض وهم يرددون مقطوعة غنائية يوقعونها توقيعا وحولهم جماهير الأتقياء والعمال يمـــوج بعضهم فى بعض ، وتنطلق من حناجرهم صيحات البهجة والسرور ، أو مشاركة المغنيين والعازفين . وقد احتفظت مدينة الأقصر بصور من تراث هذه الطقوس القديمة اذ أنهم ما زالوا يسحبون خلال احتفالهم المحلى فى عيد ولى الله «أبى الحجاج» ـ حامى المدينة ـ زورقا يطوفون به الشوارع موضوعا على مركبة ذات عجلات يسهل دفعها .

الوقفـــات :

لم يكن موكب الاله أثناء خروجه فى الاحتفالات يقطع المسيرة كلها ثم يعود بعدها الى قدسه دون توقف ، بل كانت تتخلل سبيلها وقفات يريح فيهـا الموكب فى مقاصير صـغيرة خصصت لذلك . وعندها يستريح الحاملون بعض الوقت ، على حين يؤدى الكهنة فى ظلها طقوسا معينة (تتمثل غالبا فى احراق البخور وتقديم مختلف القرابين ، وقراءة الكتب المقدسة) . وكانت تقع فى هذه المناسبة أيضا بعض التنبؤات عن طريق الاستشارات المكتوبة . فاذا ما كان المساء يعود الموكب بالاله الى معبده أو ينزل ضيفا فى أحد المعابد الأخرى ثم يتابع فى اليوم التالى رحلته خارج معبده .

ولم يكن ذلك الأمر بالشيء النادر وقوعه ، فهذه « التقاويم الدينية » التى ما زالت ماثلة فى مختلف المعابد تحدثنا أنه كان يقع فى كل شهر ـ تبعا للفصول ـ من خمس الى عشر مرات ؛ فيخرج على هذا النحو موكب اله أو أكثر من آلهة المنطقة ، غير أن طريق المسيرة كان يختلف باختلاف الهدف الذى أقيم من أجله الاحتفال طبقا لظروف المعبد الذى وقع عليه الاختيار لقضاء الليل •

على أن الاله كان يخرج فى مناسبات أخرى ، فى غير زورق ، ففى مدينة « بوتو » مثلا كان الاله « مين » يبدو فى لباس أحمر اللون يزدان عنقه بقلادة تتدلى على صدره فيتجه به الموكب محمولا على عجلة تجرها الخيل الى حيث يريح وكانت الجماهير وهى تشعر حينئذ بأنها تشهد عرضا هاما لمآثر الاله تهزها الرهبة من أثر ما ياخذها من قدسية وجلال •

ويوضع الاله آخر الأمر على عجلة يجرها المخلصون من أتباعه فكانوا يهيئون بذلك جوا خالصا من تاريخ الأساطير • ولقد كان ذلك هو نفس ما يحدث فى أعياد « پاپريمس » التى يحدثنا عنها هيرودوت فيقول : « ان الكهنة كانوا حين احتفالهم بها يتبادلون أقوى الضربات وأعنفها اكراما لالههم حتى كان ذلك ينتهى الى وقوع بعضهم صرعى متأثرين بجراحهم » •

فالحياة الدينية كما نرى كانت تعرض أصحابها لبعض المخاطر• هذا علما بأن أعمالهم خلال الاحتفالات الشعبية كانت تتسم بكثير من الهدوء • ولقد كان دورهم يختلف باختلاف طبيعة الاحتفالات ، فهم فى حرس الاله عند أشراق موكبه ، وعليهم أن يقوموا بتأدية بعض الطقوس حين تتوقف المواكب • كما كان عليهم القيام ببعض الفرائض الدينية المتصلة بجوهر الاحتفال • وكانت هذه الأعياد انما تقام بمناسبة أحداث معينة • فعيد للفيض (عيد النيل) وعيد للحصاد ـ وكلاهما يتصل بالسنة الزراعية ـ ثم عيد الشراب وأعياد

لأوزيريس وأعياد لآمون بالاقصر ؛ تقام لذكرى مراحل حياة الآلهة .
ثم عيد الوادى فى طيبة وكان مخصصا لآلهة الموتى وذكرى الموتى
أنفسهم من الناوين فى الجبانة • وأخيرا أعياد خاصة بكل معبد احياء
لذكرى انتصار الاله على أعدائه ، أو تمجيدا سنويا لذكرى تقديس
حيوان من تلك التى يرمز بها الى لون من قدرات الاله ، أو احياء
لذكرى حلول الاله بتمثاله على الأرض • وكانت بعض هذه الأعياد
شعبية تقام فى المعبد منتقلة من مصلى الى أخرى وسط مظـاهر
البشر والبهجة والحبور • كما كانت هناك أعياد أخرى سرية تختفى
مراحل الاحتفال بها خلف الأسوار • ومع ذلك فقد ظل الكهنة ـ فى
كل الحالات ـ أولا وقبل كل شىء « خداما » للاله الذى يقومون على
خدمته داخل المعبد وخارجه • وفى أثناء أشراق الاله كان اشتراك
الجماهير واضحا وصريحا ، فهم قد كانوا يهللون ويهتفون باسم الاله
ويستمتعون بمشهد موكبه وان كانوا لا يشاركون فى طقوس هـذه
الاحتفالات بالمعنى المفهوم • وسوف نرى أن الكهنة ـ فى بعض
ظروف معينة وحسب، مثل استنباء الوحى ـ كانوا يقومون بالوساطة
بين الاله وبين البشر من العابدين •

وقد كان تدين الشعب من غير رجال الدين وتقواه يقتضيان
اقامة طقوس يؤديها رجال الاكليروس • حينئذ تتخذ عبادة الآلهـة
مجالا تشارك فيه الجماهير ؛ وذلك عندما يرغب أحدهم فى الالتجاء الى
الاله يسأله الهداية • وتبدو قيمة الالتجاء الى بصيرة الاله واستخارته
حين يتصل الأمر بالخصام بين طرفين أو بتعيين أقوم السبل للسير
والسلوك فى مستقبل الأيام • فالاله هو صاحب المعرفة الذى يسع
علمه كل شىء ، كما أنه قادر بالطبع على أن يفرق دون البشر بين الحق
والباطل ، وأن ينبىء بالغيب من أمور المستقبل ، ذلك فضلا عن أنه
ـ نظرا لكماله ـ لا يتأثر بالظروف الاجتماعية للشاكين ولا يفرق
فى حكمه بين غنى وفقير • فقد جاء فى نشيد من أيام الدولة الحديثة•

« أيها الاله آمون رع ، انت قاضى البائسين لانك فى غنى عن مال الغاصبين » .

ومن ذلك كان التطور الكبير فى عادة اللجوء الى الاستنباء فى الدولة الحديثة . فأصبح للكهنة منذ ذلك الوقت دور اجتماعى خطير بوصفهم حاملين لكلمة الاله ومفسرين لارادته .

والواقع أن أمر استنباء الاله لم يكن دائما يسيرا ، وانما تعددت الوسائل فى سبيل ذلك .

استنباء الزورق :

وكان من أكثر ألوان الاستنباء ذيوعا ما كان يقتضى التوجه بطائفة من الأسئلة الى الاله خلال تجليه في موكبه وقد سبق أن أشرنا الى الأعياد التى كان الاله يترك فيها معبده ليزور أصحابه من الأرباب الأخرى . فينتقل الموكب بتمثاله على أكتاف حامليه وسط تهليل جموع الجماهير من أتباعه . وتلك كانت الفرصة المواتية لسؤال الاله ، فكان الشاكون يشقون الزحام محاولين الوصول الى الزورق ؛ وهنالك يعم الهدوء وتسعى الرهبة الى نفوس الجماهير . وكانوا يتوجهون مباشرة الى الاله سائلين : « يا سيدى الطيب ، هل صحيح أننى سرقت هذا الشىء أو ذاك من هذا الشخص ؟ » ويكون الانتظار ويسود القلق ، ويطول الوقت أو يقصر حسبما تقتضى ارادة الاله من وقت يردد فيه سؤال السائل بينه وبين نفسه . وعلى حين فجأة يشعر من يحملون الزورق أن الارادة الالهية قد أخذت تسعى اليهم . ويبدأ صدر الزورق يتثاقل على حامليه ، ويشعر من تحته بذلك حتى اذا ما استحال عليهم النهوض ، ناءوا وكأنهم تحت أثقال من رصاص . وفى ميلة الاله على هذا النحو ما يشير الى الجواب بالايجاب . وفى أحوال أخرى يشعر حملة الزورق أنهم مندفعون بشدة الى أمام ، أو مضطرون الى التقهقر فى عنف ، وكان ذلك يقع

بالطبع بارادة من الاله متجليا فى تمثاله حالا فى زورقه . فاذا أراد الاله التقدم كان معنى ذلك الرد بالايجاب أما اذا حدث العكس فمعنى ذلك أن الاله قد رفض . فاذا ما أرضت النبوءة أحد الشاكين ؛ كان من حق خصمه أن يستأنف محاولا تعويض نفسه مما لقيت من هزيمة ، ولم تكن هزيمته اذا ما تكررت بمانعة اياه من الاستئناف لدى اله آخر فى مناسبة أخرى ومكان آخر . ولما كان رجال الاكليروس يختلفون فى أسلوبهم وفيما يرون فى هذا الشأن ، لم يعدم الشاكى أمله فى الانصاف بين يدى اله آخر أكثر تسامحا وأقرب رحمة وغفرانا .

ويبدو أن هذا التقليد الغريب له أصوله العميقة الثابتة فى حياة المجتمع المصرى . فلم تكن دهشتنا فى الواقع قليلة عندما قرأنا منذ عدة سنوات فى احدى صحف القاهرة صدى حادث اهتزت له مشاعر أهل قرية من قرى الصعيد . وليس من شك فى أن هذا الحادث قد استمد صوره من نفس المصدر الاجتماعى الذى انبعث من الطقوس القديمة التى مر بنا ذكرها . فتحت عنوان جذاب « نعش يرقص فى الهواء » روى كاتب المقال الأحداث التالية : « كانت احدى القرى فى حداد على شيخ من شيوخها المسنين ، وكان على درجة كبيرة من الحكمة فانتقل الى عالم أفضل من العالم الذى نعيش فيه . وحين انتهى الناس من اعلان نعيه بالصراخ والعويل المألوفين فى هذه الظروف ، لف الشيخ فى حصيرته ، ثم وضع فى نعش حمل به الى مثواه الأخير . وكان حملة النعش يتناوبون بين لحظة وأخرى ، اذ كان كل منهم يرى أن يشارك ما استطاع فى حمل هذا المولى الصالح الى مثواه . وبينما الأمور تجرى فى سبيلها الطبيعى بأسلوب رائع والموكب يتقدم يحدوه المشيعون بتلاوة الأوراد الجنائزية ، يقع الحادث الغريب ! فاذا النعش يتأرجح ويتهاوى حملته من تحته بعد أن ثقل عليهم فجأة وكأنه صخر . وأصبح أمر ذلك يقتضى التفكير ، واشتد

حوله الجدل فى صخب وعنف كما يحدث دائما فى صعيد مصر ، ثم انتهى جدلهم بالاتفاق على أن المتوفى المبجل يفضل قطعا أن يسلك الى مثواه الأخير طريقا آخر • واستدار الموكب فعلا متخذا طريقا آخر موازيا للطريق الأصلى ، وهنا أخذ وزن المتوفى يخف على حمال نعشه عن ذى قبل ؛ كل ذلك بمعجزة طبعا • الا أن الأمر لم يلبث غير قليل حتى تبــدل الحال غير الحال ، فقد تهاوى النعش مرة أخرى بالقرب من المكان الذى سبق أن تهاوى فيه من قبل • وعاد القلق فساد نفوس الجماهير وباتوا يشعرون بوجود قوة تفوق قوة البشر وداخلهم احساس رهيب مشوب بالرعب والخشوع • ولم يكن بد من التوقف والتأمل فى هذا الحادث فالشيخ المسن قد رفض مرتين أن يمر موكبه بدار واحد من أهله لا من أمامها ولا من ورائها ، فأخذت الاستفسارات اللازمة تتوالى ، وبات الناس يتساءلون ، وينعمقون البحث، وعنفت وسائله، حتى أفضت الى الاشتباك والتضارب فاتضح أن موت الرجل المسن لم يكن طبيعيا كما بدا للوهلة الأولى • بل كان نتيجــة لحادث وأن قريبه هــذا قد تسبب فى وقوعه ، ووضــعت الموازين ، وأقيم العدل بالقسط فى سرعة سريعة ، ودون انتظار البيان من أحــد ، وعلى النحو الذى يلجأ اليه الفلاحون من صعيد مصر لتسوية مشــــاكلهم العائلية ــ وهكذا اســـتطاع المتوفى من عالمه الآخر بفعلته حين أوقف حملة نعشه على نحو ما قدمنا ، أن يفضح قاتله من أهل بلده •

وتلك تقــاليد قديمة كمــا نرى ، تجرى متصلة فى حيـــاة المجتمع ، فمنذ ثلاثة آلاف سنة كان الاله يحدد وهو فى موكبــه مشيئته فى الكائنات ويمليها على من يحملونه بما يشاء من حركات •

أصوات النبوءات :

لم يكن الخروج بموكب الزورق يقع فى كل يوم • وكان هناك

من الأسئلة المعقدة ما لا يقتضى الرد عليها أو الفصل فيها بمجرد الايجاب أو النفى · فكان الناس فى هذه الحالة يقصدون رأسا الى الاله الذى يرد بصوته الواضح · ولم يكن وصول المصريين فى ذلك العهد الى رحاب الآلهة مستحيلا كما يظن · الا أن لقاءها لم يكن ميسورا كما كانت الحال عند اليونان · ولكن كان يقع فى بعض الأحايين أن يلقى امرؤ على شاطىء أحد المستنقعات ما يرعبه فيصاب بمس من جنون · أو لم نقرأ فى الأساطير أن راعيا قد أصيب بالذهول حين رأى آلهة فى أبسط صورها تخرج تحت بصره من وسط الغابة ؟ ···· على أن الآلهة كانت تقيم فى معابدها حيث يذهب اليها الناس لاستشارتها ·

وقد كانت الدار الصغيرة التى أقيمت فى العصور المتأخرة على الشرفة العليا من معبد الدير البحرى تجـاه مدينة الأقصر مثلا مخصصة لمثل هذه الاستشارات وهى عبارة عن قاعتين تتلو احداهما الأخرى يفصل بينهما باب · وكان الزائرون ـ وفى بعض الأحوال المرضى الذى جاءوا يلتمسون الشفاء لدى الاله ايمحتب ـ يقيمون فى القاعة الخارجية ذلك لأن مقر الاله كان فى الداخل · وبينما كانت تلك الطوائف الصغيرة من المعتلين تنتظره صابرة أن يرضى الاله فيرزقهم الشفاء ، كان ينبعث من الهيكل صوت رزين ورهيب فى آن معا حاملا الى كل مريض دواء لآلامه · وفى القبو الذى يعلو الباب كانت هناك كوة فكان فى استطاعة الكاهن المختبىء داخل الهيكل أن يعبر عن ارادة الآلهة · (ولم يكن أحد من المرضى يشك فى تدخل أى قوة فوق العادية) · ومع ذلك فقد كان هناك من ذوى العقول السليمة من لا يعتقد الا فيما يستطيع التحقق منه · وبين أيدينا من المخربشات الصخرية نص يونانى غاية فى الجمال والروعة يحدثنا أنه بينما كان أحد الزائرين واسمه « أتينودور » يقيم الصلاة فى القاعة العامة من المصلى ، سمع صوتا ينبعث من هذا الهيكل وكان

هذا الرجل المستقيم جنـديا اكتسب من حياته العسـكرية بعض المبادىء العظيمة التى اشتهرت بها تلك المعاهد العسكرية . فكان لديه من الجرأة ما جعله يندفع الى الباب ويفتحه ليعرف بنفسه من المتكلم ليطمئن قلبه ـ وكان الكهنة يومئذ قد توقعوا حدوث مثـل هذه الأمور فأعدوا بطريقة محكمة مكانا يلوذون به ـ فلم ير بطلنا هذا أى شىء شاذ فتأثر تأثرا شديدا . ومما زاد فى التأثير عليه شفاؤه بالفعل فاعتبر هذا الحادث جديرا بالتسجيل .

والواقع أن الغرباء لم يكونوا ـ فى الأغلب الأعم ـ يعتقدون فى النبؤات التى تصدر عن الرؤى ، بل كانوا يشكون فى ذلك . وقد مال بعض الاغريق مطمئنين الى مبادىء الديانة المصرية الى حد جعلهم يشركون المصريين فى عقائدهم . وان كان فريق كبير منهم لم يكن يؤمن الا بما يسـتطيع التحقق منه فعلا . ونحن نجد فى بعض ما لدينا من القراطيس مايعبر عن خيبة أملهم ، ثم ما يتبع ذلك بالطبع من أثر الشكوك والريب « أقسم بسرابيس أنه اذا لم يثبت ما ادخر لك من تقدير فانك لن ترانى بعد ذلك على الاطلاق اذ أن كل ماتقوله آلهتكم ليس على الاطلاق لأنهم وضعونا فى موقف لا نحسد عليه . وفى كل مرة تعلن لنا رؤياك أننا سننجو نجد أنفسنا نغوص أكثر وأكثر » (قرطاس السيرابيوم رقم ٧٠) . وتجاه مثل هذه العقيدة الشاذة لا نشك فى أنها كانت منتشرة ، ونستطيع أن نفهم كيف دفع كهنة الدير البحرى « أتينودور » الساذج الى أن ينقش على الجدران قصة الحادث المزعج الذى وقع له .

وكانت فى بعض المعابد الأخرى مثل معبد «كارانيس» بالفيوم مايشبه ما كان فى الدير البحرى . كما كانت بعض التماثيل الالهية جوفاء يتصل بها بوق يستطيع من يختفى وراء التمثال أن يتكلم فيه باسم الاله .

كانت هـذه الطريقة فيما يظهر منتشرة بصـفة عامة · ولدينا العديد من النصـوص التى تحدثنا كيف كان رجال يذهبـون الى الأماكن المقدسة يقضون الليل ابتغاء أن يأذن الاله فيريهم ـ فيما يرى النائم ـ من الرؤى ما يهديهم الى ما ينبغى لهم · وهكذا كان يفعل المرضى ، وكذلك كان يفعل اللائى يرغبن فى الانجاب من النساء · وفى قصة « ساتنى » الديموطيقية ان السيدة « محيتوسـخه » كانت تعانى أشد التعاسة لأنها لم تنجب · ولما أدركها اليأس مضت لتقضى ليلة فى معبد « ايمتحب » اله الشفاء وهناك رأت فى المنام : « من يقول لها : ألست أنت « محيتوسخة » زوجة « ساتنى » التى تنام فى المعبد تلتمس البرء من عقمها لدى الاله ؟ اذا ما غدوت فاذهبى الى ينبوع ساتنى زوجك وستجدين هناك أصل شجرة تنمو· فاذا لقيت الشجرة فاقتلعيهـا بأوراقها لتصنعى منها دواء تعطيـه لزوجك ، ثم تنامين بجواره وسوف تحملين منه فى ذات الليلة » ولما أفاقت السيدة ذهبت لتنفيذ نصيحة الاله بحذافيرها وسرعان ما تحققت أمنيتها ·

وهكذا نرى كيف كان واجب الكهنة يقتضيهم القيـام ببعض العمل حتى أثناء الليل · ولم تختف آثار تلك العقائد التى كانت تقتضى النساء الذهاب الى المعبد والاقامة فيه التماسا للحمل سواء تجلى عليهم الاله أم لم يتجل · وفى خلال المرات الست التى قضينا فيها الشتاء للعمل فى صعيد مصر للقيام بنقل نقوش معبد اسنا، كان يحدث كثيرا أن نرى سيدات من أهل القرى يدخلن قاعة الأعمدة الكبرى ويدرن ـ مؤمنات ـ حول الأعمدة سبعا وفى غفلة من عين الحارس ـ مؤمنات بانهن يضمن بذلك انجابا عاجلا · ولم لا ألا تؤكد لنا نصوص المعبد الهيروغليفية ان الاله « يهب أولادا لمن يدعوه وبنات لمن يتوسل اليه ؟ » ولكن كان على الكهنة بوصفهم حاملى كلمة الاله أن يقوموا أحيانا بمعالجة بعض المسائل الأشد تعقيدا من ذلك

بكثير • فقصة « ساتني » نفسها تصور لنا ساحرا أوشكت أن تنتهي حيله أمام زميل له أكثر منه براعة ؛ تصوره يركب سفينة الى الأشمونين ـ مدينة الاله تحوت ـ ثم يذهب ليقيم الصلاة لهذا الاله في معبده ، ضارعا اليه أن يعينه ، فيريه الاله في منامه المكان الذى يستطيع أن يجد فيه الصيغ ذات الأثر القوى الفعال والتى يستعملها هو (الاله) بنفسه لينسخها • وينفذ الساحر عند استيقاظه تعليمات الاله فيتم كل شيء كما ظهر له في الحلم •

وعلينا أن نذكر أخيرا أن الاله لم يعدم بعض الوسائل الأخرى المباشرة للتعبير عن ارادته • كأن يحل مثلا في جسد رجل أو طفل فيملؤه رعدة ورهبة ، ثم يملي ارادته عن طريقه • وتروى لنا قصة « ون آمون » حالة مشابهة من حالات الجذب الالهى • وسنعرف فيما بعد أن الأطفال « الفقراء » اللاجئين الى المعابد قد كانوا وسطاء ينقلون كلمة الاله •

وسائل أخرى للاستنباء :

لم يتوقف الكهنوت عند هذا الحد لينقل الارادة الالهية الى الشعب • فقد استخدمت وسائل فنية أخرى عديدة كانت تقتضى تقديم توسلات مكتوبة الى الاله • وهذا نص من عصر الكاهن الأكبر « باى نجم » يعرض لنا الاستشارة كما يلي :

اتهم أحد كهنة آمون بأنه كان يأخذ لحاجته من خزائن علال الاله فكتب كتابان فى حضرة آمون أثناء خروج الموكب بزورقه جاء في أحدهما : « آمون رع يا ملك الآلهة وياسيدى العظيم ! يقال ان « تحوتمس » الوكيل الذى يدير الأراضى قد أدخل فى حوزته شيئا لم يمكن العثور عليه » وكتب فى الثانى « آمون رع يا ملك الآلهة ويا سيدى العظيم ! يقال أن تحوتمس الوكيل الذى يدير الأراضى

لم يدخل في حوزته شيء مما لا يعثر عليه » • وهنا يتوسل كبير الكهنة الى الاله أن يصـدر حكمه • فاذا ما استجاب الاله العظيم ووضع الكتابان بين يديه اختار ثانيهما • ثم تعاد الكرة فيعيد الاله اختياره وبهذا يخرج المتهم بريئا معافى من هذه المحنة ويحظى على أثر ذلك بترقية ذات أهمية بعد وقت قصير •

وقد كشفت أعمال التنقيب التي أجراها الفرنسيون في منطقة دير المدينة عن كثير من اللخاف عليها نقوش يتصـــل موضـــوعها بالاستنباء اذ كان الملتمس ينقش سـؤاله على بعض قطع من الفخار أو على اللخاف . وكانت الأسئلة تدور حول موضوعات شتى نورد بعضـــا منها :

- « هل هذا العجل سليم فاقبله ؟
- هل يعطي لنا الوزير رئيسا الآن ؟
- هل يرتضونني رئيسا ؟
- هل افتريت ؟
- هل سألام ؟
- هل نهبه الجند ؟
- يا الهي الطيب هل احدى معزتاى عند « بتاح موسى » ؟

فأمور الترقي والتجارة وحوادث السرقة في القرى قد كانت ضمن الموضوعات الكثيرة التي تطرح أمورها بين يدى الاله وكان الاله يرد عليها كلها . فكيف كان اذن يقوم بذلك ؟ قد يتضح لنا الجواب من احدى قطع الشقف التي عثر عليها الفرنسيون عام ١٩٥١ ولم يكن عليها من النقوش سوى لفظ « كلا » • ومن ذلك يبدو أن الاله كان يختار أحد ردين ـ نعم أو كلا ـ ويقوم كاهنه بنقل جوابه الالهي الى السائل •

وكانت العادة التي انتشرت في الدولة الحديثة لها شأنها الهام بعد ألف عام أيضا • فقد عثر في المعبد الصغير الذى أقيم للاله « سوكنوبايوس » (Soknopaios) بالفيوم على بعض أسئلة موجهة الى الاله من سكان المنطقة • ومنها نرى كيف ظلت المشاكل تشابه الى حد ما مشاكل أسلافهم البعيدين : شراء وبيع ، ومسائل تختص بالضرائب ، ونصائح خاصة بالزواج أيضا • « هل سيكتب لى أن أتزوج السيدة فلانة • وهل لن تصبح هى زوجة لرجل آخر ؟ اكشف لى عن ذلك واستجب لهذه الضراعة المكتوبة » •

الاستنباء بوساطة الحيوانات المقدسة :

اختلفت الوسائل التى استخدمت لسؤال الاله اختلافا كبيرا فمنها ما كان يتم بطريق استنبائه بوساطة التمثال ، ومنها ما كان يتم باستخدام الزورق المقدس أو أصوات المتنبئين تعبر عن ارادة الاله أو الرؤى وكذلك كان الحيوان من مقدسات الاله من الممكن استخدامه فى نقل رده والتعبير عن ارادته ومن ذلك استخدام العجل أبيس • وقد كان يسمح باخراجه عادة من مربطه مرة فى كل يوم لقضاء ما تقتضيه حياته ، ومن ذلك مشاهد يستعرضها السائحون لقاء عطاء مشروع •

ويحدثنا سترابو فيقول : « وفى ساعة معينة من ساعات النهار كان يطلق أبيس حرا فى ذلك القناء خاصة لعرضه أمام الغرباء • وعلى الرغم من أنه كان بامكانهم أن يروه من نافذة تطل على حظيرته ، فانهم كانوا يصرون على رؤيته حرا طليقا خارج هذا المكان ؛ يرتع فيه ويلعب ، دائرا وقافزا بعض الوقت ثم يرد الى داره » •

ومما لا شك فيه أن حركات العجل قد كانت تؤول الى نبوءات • ولدينا من النصوص العديدة ما يشير الى أن أبيس كان

يكشف عن المستقبل لمن يستشيره · وفى معبد من معابد العصر اليونانى الرومانى عثرت البعثة الفرنسية للتنقيب على منصة صغيرة كان العجل يرد من فوقها على الأسئلة التى كانت تطرح عليه ·

ممارسة القضاء عند أبواب المعابد :

رأينا كيف كان الكهان يردون باسم الههم على ما يطرح فى ساحته من أسئلة أو يرفع الى حضرته من شكايات ، وكيف كانت تلك الردود تقوم مقام القانون · فكثيرا ما كان يحدث فى الدولة الحديثة أن تقام المحاكم فى المعابد أو بالقرب منها · ذلك فضلا عن أن الكهنة كانوا يقيمون بالقرب من الموظفين المحليين فى محاكم كل مدينة (انظر مرسوم حور محب) · ويبدو أن عادة الالتجاء الى العدالة الالهية أيام الدولة الحديثة قد انتشرت بالنسبة للمسائل الدينية أكثر من المسائل المدنية ، وحسبنا دليلا على ذلك أن يصف القوم يومئذ المدخل الى المعبد بأنه « باب السبيل الى ساحة العدل » · كما أكدت الوثائق « هذا هو المكان الذى يستمع فيه شكايات الشاكين جميعا ويحتكم فيه الضعفاء والأقوياء التماسا للفصل بين الحق والباطل » · ويبدو أن جوسقا من تلك التى كانت تلاحق المدخل الى معبد الميدامود الكبير كان مكانا لاحدى هذه المحاكم الملية · ولكن ترى أى الدعاوى تلك التى كان يترك الفصل فيها لتقدير الاله ؟ وأى الكهان كان أهلا للنطق بالأحكام ؟ وبأى عين كانت تنظر الادارة الى هذه المحاكم غير الرسمية ؟ ···· ذلك ما لا نستطيع الرد عليه نظرا لعدم توافر الوثائق الهادية فى هذا الرأى · وكل ما قد يمكن ادراكه هو فكرة بقاء هاتين السلطتين القضائيتين جنبا الى جنب ـ كل فى حدود اختصاصه ـ ذلك اذا ما ذكرنا أن المحاكم الشرعية ظلت حتى السنين الأخيرة فى مصر الاسلامية الى جانب المحاكم الأهلية ·

وقد أخذ الكهنة فى القرون الوثنية الأخيرة مأخذ الجد الدور الذى مارسوه كمفسرين لارادة الاله تماما كأسلافهم حملة الزوارق وممن كانت كواهلهم تحس بأقل دفعة أو حركة يقوم بها الاله .

وهناك وجه أخير من أوجه النشاط الذى كان يجبر الكهنة على ترك معابدهم والقيام برحلات عبر البلاد تبعا لما تقتضيه واجبات الكهنوت ؛ ونعنى البعثات الرســمية دينية كانت أو سياسية . فكانت الأولى تقع أثناء الأعياد الكبرى الى المعابد المجاورة . فبرغم ما يبدو من استقلال هذه المعابد بعضها عن بعض – لأن كلا منها انما خصص لمجموعة معينة من الآلهة – فان الجوار كان يخلق بينها من الصلات ما ييسر أمر ادارة الممتلكات أو الجمع بين اقامة الشعائر والعبادات تحت قيادة مشتركة . وقد ينتهى الأمر الى اندماج أصوله من معين قديم تفجر عن بعض العبــادات . فمعبدا مدينتى أخميم وأبيدوس مثلا كان يستطيع أن يديرهما – فى بعض المناسبات – كاهن واحد . وقد كان قرب احدى المدن من غيرها من العوامل التى تقتضى ذلك وتعين على قيامه .

وكانت هذه الحالة أكثر حدوثا بالنسبة لمدينتى منف وتل المقدام المتجاورتين واللتين كان لهما فى الأغلب الأعم أيام العصور المتأخرة – كهنوت مشترك من الطبقة العليا . وكانت لمعبد «فيلة» و « أباتون الفنيتين » أيضا ادارة مشتركة . وكان على الكهنة المنوط بهم مثل هذا العمل أن يقضوا أوقاتا معينة من حياتهم فى سفر .

ولقد كانت القرابة بين عبادتين – على بعد الدارين – تؤدى الى اتصالات كثيرة الوقوع بين رجال الكهنوت فى كليهما . فكذلك كانت الحال مثلا بين ادفو ودندرة؛ حيث كان يعبد الاله الصقر حورس وصاحبته الرقيقة الآلهة حتحور . ففى « عيد اللقاء الجميل » من كل عام ، تغادر الالهة معبدها فى دندرة ، وتبدأ رحلة على النيل مداها خمسون ومائة كيلو متر لتلقى صاحبها الاله فى معبده بمدينة ادفو

ولتقيم عنده أسبوعين · وعلى طول الرحلة من مدينة الى أخرى يزداد حجم الأسطول الصغير بما ينضم اليه من زوارق جديدة ، فقد كان كل معبد هام يرى من المناسب أن يوفد أحد ممثليه ليشارك فى حضور الزواج المقدس ، حتى اذا ما بلغ الأسطول من الرحلة المدى أصبحت المراكب القليلة التى غادرت دندرة محاطة ومتبوعة بعدد لا يحصى من السفن الرسمية التى تقل ممثلى الطوائف الكهنوتية الصديقة ومندوبيها فضلا عن تلك المجموعة الهـائلة من الزوارق الصغيرة الخاصـــة التى استقلها أصحابها لمشاهدة هـذا الطقس السنوى يشاركون المحتفلين فى أفراحهم وفى أعمـــال البـــدل والتجارة التى تجرى خلال ذلك .

ولقد كانت بين الكهان لقاءات ذات صبغة ادارية وسياسية بحتة · فبالرغم من تعدد طوائفهم المختلفة ، ومظاهر استقلال كل منها عن الأخرى ، كانت العبادات فى مصر كلها تنضم اداريا تحت رياسة كهان المصريين . ومن هنا يستطيع المرء ان يتصـور وجود « كهنوت مصرى واحد » تسمو فيه المصالح العليا على كل المشاكل الفردية البسيطة للمعابد الاقليمية الصغيرة · وكان الملك يحرص أشد الحرص على كسب ولاء هـذا الكهنوت خالصا لنفسـه ، فهو يصدر فى بعض الأحوال مرسوما يقضى باستدعاء كاهن من كل معبد ويجعل من هؤلاء ما يشبه مجمعا مقدسا ؛ يشهد معه حفلاته ويرافقه فى رحلاته · ومن ذلك ما حدث فى العام الرابع من حكم « پسماتيك الثانى » حين أراد فى اليوم التالى لانتهاء حملته على بلاد النوبة أن يثبت قيام سلطانه فى أقاليم آسيا : « وأمضيت الرسائل بالمعابد الكبرى فى مصر العليا ومصر السفلى تقول : ان فرعون ماض الى بلاد خور بسوريا · وعلى الكهان أن يقبلوا باقات الزهر من لـــدن آلهة مصر ليحملها الى بلاد خور مع فرعون · وبناء على ذلك بعث برسالة الى مدينة الحيبة جاء فيها : وعلى أحد الكهـــان ومعه باقة

زهر من لدن آمون ليذهب مع فرعون الى بلاد خور · فاجتمع الكهنة واتفقوا على أن يقولوا لبيتزيس : « أنت الذى وقع عليك الاختيار لتذهب مع فرعون اذ ليس فى المدينة أحـد غيرك يستطيع أن يقوم بذلك · فأنت فى الواقع كانت بيت الحيـاة وليس هنـاك شىء تسأل عنه ولا تستطيع الاجابة عليه اجابة مناسبة · وفضلا عن ذلك فأنت كاهن آمون » وليس خافيا أن كهنة كبار آلهة مصر هم الذين يصاحبون فرعون ·

وكانت معابد مصر تبعث بممثليها برفقة تمثال لالهها للمشاركة فى الحفاوة ومظاهر البهجة والسرور فى مناسبة الاحتفال بعيد الذكرى الملكى · وتوضح لنا لوحة من الكاب (يرجع تاريخهـا الى نهاية الدولة الوسطى) ، وأنباء بعثة الوزير « تا » فى العام التاسـع والعشرين من عهد رمسيس الثالث بعض الحديث عن هذه العادة · ذلك فضلا عما ادخره لنا معبد أعياد الذكرى فى « بوبسطه » من صور تمثل وفود الكهان التى جاءت الى مدينة الدلتا الكبرى فى مناسبة عيد الملك « أوسركون » · وفى حديث هيرودوت « أنه كما كان الشعب الطيب يشرب من النبيذ فى هذه المناسبة أكثر مما كان يشرب فى بقية العام » فالشىء الذى لا شك فيه أن أعضاء الوفود الدينية لم يحرموا الاستمتاع ببعض أوقات يقضونها فى اللذات · وتحدثنا بعض النصوص فى دقة ــ أن الكاهن قد كان يلقى زميلا له من غير بلده فلا تترك فرصة اللقاء تمر دون أن يتساقيا كأسا صغيرة من النبيذ الصافى الذى يثير الضحك والغناء وذلك أمر يبدو منطقيا لا غرابة فيه · ولكن هذه اللقاءات بين الكهان قد كانت برغم ذلك تتيح لهم أن يشتركوا فى مناقشة المشاكل الخاصة بمختلف معـابد القطر وبخاصـة ما اتصـل منهـا بالضرائب والايرادات والاصلاحات التى يجب القيـام بها والتوسعات المرغوب فيهـا · فيستطيعون بذلك أن يرفعوا ملتمساتهم الى الملك · وكانوا يتلقون

منه ـ لقاء الاستجابة لذلك ـ التعليمات المجمعة الخاصة باقامة عبادات جديدة كالعبادات الملكية مثلا أو بانشاءات جديدة · ومن مثل هذه اللقاءات نشأت « المجامع » التى رأيناها تستكمل تكوينها ونموها أوائل عصر البطالمة · فكانت جماعة من الكهان تلتقى كل عام فى هيئة مؤتلفة ، وتعقد اجتماعها في العاصمة لتتلقى التعليمات الملكية ثم لتناقش مع كبار الشخصيات فى الدولة المشاكل التى تخص المعابد ورجال الدين · وكانت اجتماعاتهم تلك تتصل ويطول زمانها فيبلغ فى بعض الأحيان أربعة أشهر · وبذلك أصبح الكهنوت دولة داخل الدولة، وصار فى مقدورها التعامل مع الملك، ولكن على اى نحو أو بأى طريق كان يجرى ذلك ؟ ليس من العسير أن نصور ذلك · فالبطالمة لم يكونوا ينظرون الى العبادات المصرية الا بعين الازدراء · وكانوا يرون الكهنة كالرعاة الحريصين على تربية الماشية واشباعها · أما الكهان فقد كانوا يطوون صدورهم على احتقار لأولئك التعساء الذين لا يحملون من الفرعونية غير الاسم ، ويصورون فى المعابد كبارا يديرون أمور العبادة ويشرفون عليها · ومع ذلك فقد كان البطالمة فى حاجة الى كهان يؤثرون تأثيرا فعالا على الجماهير الشعبية ويشاركون في المحافظة على أسطورة المقدونى ـ الفرعون ـ وقد نال الكهنة فى مقابل ذلك بعض الامتيازات المالية من الخزانة وبعض الحقوق والاعفاءات وذلك عن طريق اظهار ولائهم لسادتهم الجدد · وفي جو من الاحتقار المتبادل رأى الاكليروس أن مصلحته تقتضى أن يسير فى سبيل الدولة ويبادلها العون ·

ولكن المجامع الكهنوتية قد كان بقاؤها رهنا بأيام البطالمة الذين كانوا يرون ارضاء رجال الدين فى مصر عن طريق بعض المنح والهبات · فلما وصل الرومان تبدل الحال غير الحال ، ولم يصبح الكهنة سوى موظفين يقوم بالاشراف عليهم ـ فى دقة وصرامة ـ جهاز ادارى ·

ولا ينبغي أن ننتهي من هذا الفصل الخاص بألوان نشاط الكهان خارج المعبد أن يفوتنا الحديث عن طائفة أخرى من الكهنة لم نشر اليهم بعد ، وأولئك هم الكهنة الذين كانوا يضطلعون بطقوس الجنازة· وسوف نضطر ـ نظرا لعدم وجود وصف فنى خاص بهم فى لغاتنا الحديثة ـ الى استخدام الوصف نفسه «خدام الاله» و « كهنة الجنازة » · والواقع أن هاتين الفئتين من الكهنة لم تشاركا الا فى طبيعة وظائفهما الدينية · فاذا ما حدث أن انتمى كهنة الموتى الى كهنوت خاص بآلهة العالم الآخر مثل : انوبيس وأوزيريس، فانهم كانوا فى الأغلب الأعم يبقون منفصلين عن المعابد يشكلون ما يشبه النقابات المهنية ، ولا شأن لهم على الاطلاق بعبادة الآلهة ولا بأى نشاط خارجى مما اعتاد الكهان أن يقوموا به · أما الكهنة المنتسدون فكانوا يستطيعون وحدهم ـ بسبب معرفتهم بالمخطوطات المقدسة ـ أن ينضموا الى عداد العاملين فى المعابد والمشاركة فى الشعائر الخاصة بالموتى ·

وكان على « كهان الجنازة » أن يقوموا بدور هام أثناء اجراء ذلك · فهم الذين يتلون فصول الطقوس الجنازية ويؤدون على مومياء المتوفى أو تمثاله كل الشعائر والأدعية الخاصة بالاستعطاف والطقوس المحيية التى تجعل من الهيكل العظمى ـ الذى جف بالطبع وأصبح مملحا بعد التحنيط ـ جسدا غضا أعيد اليه الشباب ومنح كل حواسه الأرضية القديمة حتى يزين للظهور بمظهر يرضى فى جنات العالم الآخر ·

وغالبا ما كان يتسمى الكهان الذين نرى صورهم فى موكب الجنازة بأسماء عتيقة قد تكون من أسماء أجدادهم الأولين الذين كانوا يشتركون فى الجنازات الملكية فى عصور فجر التاريخ مثل

« ايمى خنت » وحامل ختم الاله ، ومرافق .... » وتسود اليوم فكرة عامة مؤداها أن احتفالات الدفن المصورة على جدران مقابر من كانوا من سراة المجتمع المصرى انما تصور طقوسا مخصصة فى الماضى لجنازات صغار ملوك الدلتا . ولذلك يكون الكهان قد احتفظوا بالألقاب التى كان يحملها فى تلك المناسبات أسلافهم والمقربون ممن كانوا يشيعون الرئيس الراحل الى مقره الأخير . وقد تكون تفاصيل هذه الاحتفالات شديدة التعقيد أن نحن أوردناها هنا ، ويمكن أن نقول ببساطة : انها كانت تقتضى تلاوة ترانيم متعددة ورش المياه وحرق البخور . كما كان يؤدى على باب المقبرة أكثر الطقوس ضرورة وهو طقس « فتح الفم » الذى يقوم أحد الكهنة أثناءه بفتح شفتى المتوفى ممثلا فى تمثاله ليرد عليه قدرته على الكلام ومختلف قدراته الجسمانية .

وكان الحرص على التأكد من استئناف حياة من انتقلوا الى الآخرة بعد أن ردت اليهم شهوتهم الى الطعام ، يتردد فى تلك النقوش والرسوم الملونة التى تزين جدران المقابر ؛ فهى فى الواقع تبين لنا عقيدة القوم أن مجرد تصوير كل ما يمكن أن يحتاج اليه المتوفى فى عالمه الآخر يكفل تزويده به . على أن هذا التصوير لم يكن سوى اجراء أخير ؛ فقد كانت طقوس الجنازة كفيلة ، بتوفير حاجات المتوفى الجسمانية كافة .

وكانت هناك طائفة خاصة من الخدم هم « خدام الكا » كان عليها أن تمون يوميا أو دوريا موائد الفرابين بألوان الطعام ، وتسكب على المطهر حاجة الموتى من الماء . وكان الموتى يهبون من الأرض الزراعية ما يكفى نفقات من يخدمون قبورهم من كهان الجنازة ويقيمون فيها الطقوس . وقد كان المفروض أن تقدم هذه الأطعمة الى

الموتى بانتظام على نحو ما كان يجرى لهم وهم أحياء · ويتغير الحال بمرور الزمن فيصبح رمزيا · فاذا ما كانت العصور المتأخرة انحصر أمر ذلك فى سكب الماء ، تقوم به طائفة معينة من الكهنة يطلق عليها اسم (coachytes) يفعلون ذلك وهم يرددون أناشيد موروثة يترنمون بها ، التماسا لما يعتقدون أنه ينفع الموتى ، ويهدى ظلالهم الخفيفة وهى تهيم بين مسالك الآخرة ·

الباب الخامس

العالم المقدس

العلم المقدس

لن يغفل المطلع على النصوص القديمة رأى الكتاب القدامى فى مصر ، فهى عندهم مهد العلم والحكمة جميعا . فاكثر العلماء والفلاسفة الهيلينيون شهرة قد عبروا البحر يلتمسون الأصول والمبادىء فى كل جديد من العلوم فى رحاب الكهان ۰وكان الذين لم يتمكنوا من ذلك ، يضيفون الى ما يسطرون من سيرهم من الوقائع بعض ما يشير الى وقوع هذهالرحلة التى أصبحت تقليدية بقدر ما كانت ضرورية فى حياتهم ۰

ترى من هم أولئك المشاهير من الرحالة ؟ ــ كان أولهم كبار السلف مثل Orphée الذى شارك فى الاحتفال بأعياد الأسرار الخفية الخاصة بالاله ديونيس (ديودورس الجزء الأول صفحة ۲۳، ۲) وهوميروس نفسه الذى زار البلاد (ديودورس الجزء الأول صفحة ٦۹) ۰ وفى العصور التى برئت أيامها من اللونالأسطورى الطاغى ، عبر « صولون » البحر بدوره الى مصر ۰ أما « أفلاطون »

فقد روى عن رحلته ما يلي : «كان صولون يقول : ان أهل سايس قد أحسنوا استقباله ، وأنه عندما استفسر عن الآثار القديمة - وكان الكهان أعظم العلماء في هذا المجال - وجد أن أحدا من الاغريق - وهو على رأسهم - لايعرف كلمة واحدة عن هذه المسائل ٠وأراد ذات يوم أن يستوضح الكهنة المصريين ما يعرفون عن الآثار فأخذ يحكى لهم أقدم ما تعرفه : فورونيوس المسمى أول مخلوق ، ونيوبى طومان دوكاليون ، وبيرا بكل ما ينقل عنهم ٠ ثم قام بوضع سلسلة لأنسابهم ذكر فيها كل أحفادهم ثم حاول بحساب السنين أن يحدد تاريخ هذه الأحداث ٠ ولكن صاح فيه أحد الكهان من الطاعنين في السن قائلا : صولون ، صولون - انكم يا معشرالاغريق مازلتم أطفالا ؟ فليس فى اليونان شيوخ ! فسأله صولون : ماذا تقصد ؟ فرد عليه الكاهن المصرى : ان مداركم ما زالت شابة ، ذلك لأنهم لا تملكون قديما من التقاليد ولا من المعارف ما شيبها الزمن » . ثم يستطرد الكاهن الشيخ فى بيانه : ان هناك كوارث متصلة تخرب وجه الأرض ، وأنها لتحدث فى الأجناس خلطا وتغييرا وقد تهدم بذلك حضارة لتقيم مكانها أخرى ٠ وقد تكون هذه الأخيرة بعيدة كل البعد عما للحضارة التى سبقتها من تراث عقلى وحضارى ينبغى أن تجنى ثماره ، ومن هنا تجد نفسها فى نقطة البداية ، وعليها أن تقطع الطريق المفقود مرة أخرى ٠ ولكن مصر بخصائصها الجغرافية والمناخية لا تخضع لهذه القاعدة شبه العامة: « ففى مصر - وفى كل الأحوال - لا تتدفق المياه من المرتفعات الى المزارع بل قد يبدو على العكس ، وكأنها تخرج من بطن الأرض ٠ وهذا هو السبب - فيما يقال - من أن التقاليد القديمة قد حفظت فى هذا المكان ٠ وما من شىء جميل أو عظيم أو عجيب وقع فى أى مجال من المجالات سواء عندكم أو عندنا أو فى أى قطر معروف لدينا الا وذكر - منذ أمد طويل - مكتوبا أو محفوظا فى معابدنا »
(Platon, Timée, 22-23)

ففي مصر اذن يستطيع المؤرخ الهيليني أن يستقي أجود مصادر المعلومات • ولكن لم يكن هـذا هو العلم الوحيـد الذي استطاع الكهنـة في مصر أن يقدموه الى ضيوفهم الأجانب • وقام « طالس المالطي » من أجل ذلك برحلة « قصد فيها الى كهـان مصر ومنجميها (رجال الفلك فيها) » • وظاهر مما جاء في احدى تراجمه أنه أخذ الهندسة المساحية عن المصريين (Diogène Laerce) • فالهندسة والفلك كانتا مما يشير اليهما الكتاب الاغريق في أغلب الأحوال عندما يذكرون كهان مصر ، وقد يضيفون اليهما أحيانا علم اللاهوت عندما يرضى الكهنة فيكشفون لضيوفهم عن أسرار هذا العلم • غير أن أمر ذلك لم يكن غالب الوقوع • ولم يكن الكهنة يتحمسون دائما لاستقبال هؤلاء السائحين المتسائلين • فما أكثر ما استقبلوهم ضائقين بهم ضنينين عليهم بكل سر وأظهروا لهم في صراحة ما في تفكيرهم من منطق ولو أنهم كانوا في بعض الأحيان يفعلون هذا عن غير اقتناع ؛ فأظهروا أنفسـهم بمظهر من يميلون الى الاعتقاد في النتائج التي يمليها العقل بدلا مما ترويه القصص الخيالية عن تقاليد ضربت في القدم • ولقد فطن الكهان من سابق تجاربهم الى مقدار ميل أولئك الهيلينيين وما فيهم من حب الاستطلاع ؛ فحاولوا لذلك التخلص من « فيثاغورث » الذي جاءهم بناء على نصيحة « طالس » يلتمس من لدنهم معرفة العلم والتقوى •

وقد تحدث برفيروس (٢٣٣ ـ ٣٤٠) عن رحلة فيثاغورث بما يأتي :

« بعد أن استقبله الملك « أحمس » (ملك مصر ٥٦٨ ـ ٥٢٦ ق • م) حصل منه على رسائل توصية لكهنة هيليوبوليس الذين أرسلوه بدورهم الى كهنة منف باعتبارهم أعرق منهم • والحقيقـة أن هذا الاجراء لم يكن مقصودا به سوى ابعادهم عنهم • ولكن كهنة

منف ـ وللأسباب السابقة نفسها ـ ارسلوه الى كهنة «ديوسپوليس» (طيبة) · وهنا ـ خوفا من الملك ونظرا لعدم عثورهم على عذر لابعاد هذا الذى وفد حديثا على معبدهم ـ اعتقدوا أن فى استطاعتهم التخلص منه اذا ما أجبروه على الخضوع لنظام فيه قسوة شديدة ، وأن ينفذ فى سبيل ذلك أوامر غاية فى الصرامة . وغريبة كل الغرابة عن نظام التربية الهيلينية · وهكذا نرى أن كل ذلك كان مقصودا به دفعه الى اليأس ثم العدول عن مهمته · ولكنه صبر على ذلك وثبت له فكان ينفذ فى همة ونشاط كل ما كان يطلب اليه حتى أثار اعجابهم به ، فعدلوا عن سلوكهم ، وأخذوا يعاملونه باحترام ، وبلغ من ذلك أنهم سمحوا له بالتضحية لآلهتهم . وذلك أمر لم يكونوا قد أكرموا به غريبا حتى ذلك الوقت
Porphyre, Pythagore, 7)

وهكذا انتهى هذا النشاط والاصرار والظمأ الى المعرفة بأن فتحوا أمامه أبوابا كانت من قبل مغلقة فى صرامة وحزم · وأتيح له بذلك أن يرضى عنه الكهنة ويكسبهم الى جانبه · ويصور لنا (Jamblique) وهو أحد المشاهير من كتاب السير أن « فيثاغورث » كان يتردد على معابد مصر فى نشاط كبير ··· وقد أعجب به الكهنة والعراقون الذين عاش معهم ، كما أخذ هو يعلم نفسه كل شيء فى كثير من الاهتمام محاولا أن يعرف بنفسه كل من اشتهروا بذكائهم · وكان حريصا على ألا تفوته احدى الاحتفالات الدينية ، كما كان يزور أى بلد يترا له أنه يستطيع أن يتعلم فيه شيئا جديدا · وهكذا كان يلتقى بكل الكهنة ويأخذ من كل منهم ما يعرفه · وهكذا استطاع أن يمضى تحت هذه الظروف اثنين وعشرين عاما بين معاهد مصر
(Jamblique, Vie de Pythagore, 4, 18-19)

وهنا يتردد التساؤل . ترى ماذا كانت العلوم التى حاول بحث عناصرها بصفة خاصة ؟ نعتقد انها كانت الهندسة بوجه

خاص اذ « كان يوجد لدى المصريين كثير من المسائل الهندسية ، فنظريات الخطوط جميعها كانت تنبع من هناك Jamblique وكذلك الفلك الذى درسه فى المعابد طوال مدة اقامته فى مصر » . ويمكن أن نقول فى ايجاز : انه قد أخذ العلم الذى أكسبه صفة العالمية بوجه عام عن كهان طيبة ومنف . وبلغ من ذلك حدا جعله يؤيد فى التعليم الخاص به وسائل رمزية وسرية كانت فيما يبدو مما اعتاد عليه الكهان (بلوتارخ – ايزيس وأزيريس ١٠) .

وقد جاء الى مصر حكماء وفلاسفة آخرون من الأغارقة ليتعلموا فى المعابد المصرية . ونحن نملك من التفاصيل أحيانا ما يبين مراحل تدريبهم . فهذا «أونوبيدس» مثلا أخذ عن «الكهنة والفلكيين كثيرا من الأسرار ومنها بخاصة أن الشمس تدور فى شكل اهليلجى » (أى أن سمت الشمس المنحرفة يقع على خط الاعتدال فى السماء) » وتتجه اتجاها مضادا لاتجاه الكواكب الأخرى (ديودروس الجزء الأول ٩٨) أما « ديموقريط » فقد عاشر الكهنة خمس سنوات ليتعلم ما يتصل بالفلك (ديودورس الجزء الأول ٩٨) والهندسة (Diog ne Laêerce, Democrite, 3)

وأما أفلاطون فيبدو أنه قد جاء ليبحث فى مصر عن أصول الهندسة واللاهوت والعلم المقدس بصفة عامة (أو لمبيودورس ، حياة أفلاطون) . وقد لقى أفلاطون من التعليم مثل ما لقى «فيثاغورث» . أما الجغرافى «سترابون» فهو يروى لنا فى وصفه لمصر (السابع عشر صفحة ١ ، ٢٩) رحلته الى هيليوبوليس فى الكلمات الآتية : «لقد رأينا هناك الابنية التى كانت مخصصة فى الماضى لسكنى الكهنة . ولكن لم يكن ذلك هو كل شىء . فقد أطلعونا على مسكن « أفلاطون » و « ايودوكس » لأن الأخير كان قد صاحب «أفلاطون» حتى هذا المكان » . وعندما وصلا اليها استقرا فيها وعاش كلاهما ثلاثة عشر عاما فى مجتمع الكهنة . وهذه حقيقة

يؤيدها كثير من المؤلفين ؛ فهؤلاء الكهنة الذين انصرفوا يتمفون بحولهم لمعرفة المظاهر السماوية كانوا فى الوقت نفسه أشخاصا غامضين ولم يكن من اليسير تتبع أحاديثهم . فلم يستطع «ايودوكس» ولا أفلاطون الحصول منهم على بعض ما يعرفون من أسرارهم العلمية والنظرية الا بعد مرور وقت طويل والا بعد كثير من حسن التدبير . على أن هؤلاء البرابرة قد استطاعوا أن يدخروا قدرا كثيرا من علمهم . واذا كان العالم يدين لهم اليوم بمعرفة الجزء من اليوم الذى يجب أن يضاف الى ٣٦٥ يوما كاملة لتبلغ بذلك السنة الكاملة ، فان الاغريق قد جهلوا المدى الحقيقى للسنة وجهلوا حقائق أخرى من النوع نفسه الى أن نشرت تلك المعلومات من خواطر الكهان المصريين مترجمة الى اللغة الاغريقية ، فعرفت بين الفلكيين العصريين الذين ما زالوا الى الآن ينهلون من هذا المعين نفسه كما ينظرون الى ما فى كتابات الكلدانيين وملاحظاتهم » .

ولقد كان « ايودوكس » موصى عليه من « اجيزيلاس » لدى «نقطانبو» ملك مصر الذى قدمه بدوره الى الكهنة . ولم يكتف خلال اقامته بالتماس العلم لدى كهان هليوپوليس ، ويحدثنا بلوتارخ أن « أيودوكس » انتظم فى دروس «خنوفيس» من علماء منف (ايزيس وأوزيريس ١٢) . ويحتمل ان كهنة هليوبوليس قد ردوه فى دهاء — كما حدث أيام الملك أمازيس — الى كهنة منف ليعتنوا به بحجة أنهم «أقدم منهم عهدا وأعلى فى العلم درجة» ومهما يكن من أمر فان ايودوكس قد أفاد من اقامته فى مصر واليه ينسبون عادة ترجمة بعض المؤلفات المكتوبة باللغة المصرية الى اللغة الاغريقية (Diogène Laërce) وادخال بعض معلومات دقيقة الى بلدته عن « سيرة الكواكب الخمسة » التى ما زالت لم تحدد بعد بدقة والتى عرف ما عرف عن طبيعتها الحقيقية خلال اقامته فى مصر (Sénèque, Quest. Nat.VII, 3) وتلك فى الغالب هى « نظرية الدائرة التى وسطها على محيط دائرة كبرى» .

ترى ما قيمة هذه الشواهد ؟ ينبغى الحذر ، وحاشا أن نكون من الساذجين • فالجزء الاكبر من هذه الروايات التى سبق أن أورد ذكرها كتاب السير من عصور متأخرة وأيام كانت الرحلة الى مصر فى نظرهم من الضرورات فى حياة فلاسفتهم وكانت تشبه الى حدما تلك السنين التى يقضيها طلاب العلم من أفريقيا وآسيا فى الجامعات الاوربية فى الوقت الحاضر للحصول على شهادة الدكتوراه • فقد كانت مصر تعتبر موطن العلوم ، وكان على كل شيوخ الحكماء أن يمضوا فيها وقت المران والدربة • ولقد نجحت التقاليد فى تأكيد ذلك على الاقل حتى ولو كان بعضهم لم تطأ قدمه على الاطلاق أرض مصر •

وعلى أننا لم نذكر رحلات الفلاسفة تلك لوصف ميراث روحانى غير محدد أو لاظهار «ماتدين به بلاد يونان لمصر» ولا نقصد حتى تحديد البقاع التى نما فيها علم مصر ، اذ أن الرحالة انما كانوا يسألون عما يهمهم وحسب • وسوف نرى فيما بعد ، أنه فضلا عن الهندسة والفلك واللاهوت والتاريخ ، كان الكهنة المصريون يمارسون ثقافات أخرى كثيرة لم يذكر سائحونا عنها شيئا •

هذه اشارات عن حقيقة هى لدينا أهم من الحقيقة التاريخية لهذه الرحلات الدراسية ، ونعنى الشهرة العامة للحكمة والعلم اللذين استقرا فى أذهان الاغريق من أهل العصور القديمة مرتبطين بطبقة كهنوت المعابد المصرية الكبرى • وهذه نقطة هامة ؛ ففلاسفة اليونان مهما كانت شهرتهم كانوا يكتسبون مزيدا من أعجاب شعبهم اذا ما استطاعوا أن يبينوا أن رحلتهم الى مصر كانت مصدرا من مصادر علمهم • والنقطة الثانية فى هذا الموضوع هى أننا أصبحنا نعرف الآن ـ بفضل هؤلاء الاغريق ـ بعض اتجاهات العلم المقدس ومظاهره مثل طبيعته السرية والازدراء الذى كان يبديه الكهنة لبيان مقوماته • وكذلك الرمزية والغموض اللذين كانا

يحيطان بكل ما كانوا يرون الكشف عنه ٠٠ وأخـــيرا نرى تلك المكانة التى كان يحتلها ذلك الايمان الذى لا حد له فى تنمية هذه العلوم فيما كشفته لنا النصوص المكتوبة الى جانب التقاليد الادبية فى الماضى البعيد ٠

العلم المقدس واتجاهاته :

نستطيع الآن وقد أصبح لدينا الكثير من الأفكار الغنيــة أن نتجه الى المصادر المصرية لنحدد «الجو الروحى» الذى بلغ فيه العلم المقدس حد النضج ، ولا يكفى استعراض مبسط سريع للمجالات التى كان يغطيها لمعرفة خطوطه النوعية التى ميزته عن أسلوب البحوث «غير الدينية» والتى كان لها أثر قـــوى على طبيعته ونجاحه ٠ وقد رقى أعلى درج هذا العلم رجال كانوا يعيشــون فى عالم متجه كل الاتجاه ناحية المشاكل الدينية وعلم اللاهوت وممارسة العبادة ٠ وعلى ذلك فقد كان هذا العلم «ذا غرض عملى» وفى اطار جهاز معين ٠ كما أنه علم « تقليدى » يعادى كل ما هو جديد ٠ وأخيرا يتضمن بصفة أساسية «معرفة الكتابة» كوسيلة للوصــــول الى النصوص القديمة التى تعتبر المنابع التى لا تتغير لكل الهام ، كما يعطى مجالا لطريقة من التفكير اساسها القيمة الالهية لنطق اللغة والامكانات المعبرة التى لا حدود لها تقريبا للعلامات الهيروغليفية ٠

وقد كانت العناصر الدائمة التى تحــكم « العلم الكهنوتى » وتعطى له مظهره الاصلى عبارة عن البـــحث فى الكتابات القديمة والاعتقاد فى قوة نفوذ الأصــــوات والتخصص المتدرج فى الكتابة الهيروغليفية بغرض الاستعمال الدينى ثم البحث فى هــذه الكتابة عن طرق متعددة للتعبير ٠

الالتزام بالنصوص المكتوبة :

ان فكرة البحث في المخطوطات القديمة عن عناصر حقيقة «مفقودة» قد لازمت المصريين في سائر العصور، وذلك ميل استمدوه من طابع حضارتهم التي تميزت بكثرة ما ضم تراثها من مخطوطات غير دقيقة. وان كان من الواجب أن نضيف الى هذا العيب السائد عيبا واحدا قد يكون أعمق وأشد أثرا ونعني رداءة الخط .

وينبغي لكي نفهم موقف المصريين أن نضع دائما في الاعتبار التناقض الواضح بين نظرتهم الى الحياة ونظرتنا اليها . فنحن نعيش في عالم نعلم أنه في حركة مستمرة . وان كل مشكلة جديدة لابد أن يكون لها حل جديد . فأما المصريون فلم تكن لديهم هذه الدراية بالزمن الذي يغير العالم ولا بالتغيير الذي يحدث في العوامل ويقتضي بالتالي تغييرا في الوسائل المستعملة لحلها . ففي الاصل خلق المعبود عالما خالدا ثابتا نهائيا يتحرك ويجري كمحرك (كآلة) سليمة موفورة الوقود . واذا وقعت بعض المشاكل ، كأن يبدو في المحرك شيء من ارهاق ؛ فمعنى هذا أن أحد العناصر التي يتكون منها المحرك قد يبلى أو يتحطم ، ووجب أن يخلق مكانه عنصرا آخر وهنالك يأخذ كل شيء سيرته على خير حال ويبقى المحرك كما هو لا يتعطل ولا يتغير في تركيبه أو مظهره أو في عمله . فكل ما يشغل البال من احداث ، أو يقع من توقف في سيرة المألوف من نظام الامور لا يكون في الواقع جديدا ؛ اد أن كل ذلك كان متوقعا حدوثه في العالم . وحله أو علاجه متوافر معروض منذ القدم في لون من سيرة الكون كما رسمه الارباب يوم برأت الكون نفسه . وكل ما يقتضيه الامر هو النظر في الكتابات القديمة للبحث عن الوصفة التي كانت منتظرة لعلاج هذه الحالة أو تلك . فازاء حادث بعينه أو ظاهرة مادية بعينها أو كارثة تحيق بالبلاد كلها لم يكن العلماء

يبحثون عن الاسباب المادية لما حدث ليجدوا له - اذا أمكن - العلاج المناسب ، ولكن كانوا ينقبون بكل نشاط فى أكوام الكتب القديمة لمعرفة ما اذا كان ما وقع قد كان له نظير من قبل ويلتمسون ما يناسبه من علاج .

وليس أدل على ذلك من رواية المجاعة الكبرى التى امتحنت بها مصر فى زمان أحد الملوك البطالمة والتى انتهت الينا منقوشة على لوحة بين صخور جزيرة سهيل :

« لم يصل الفيضان فى حينه خلال سنوات سبع . ولم تكن الغلات متوافرة على الاطلاق وجفت البذور . وكل ما كان مدخرا للطعام كان مقداره ضئيلا للغاية . وييئس كل امرىء من مجىء رزقه . بل بلغت الحال حدا تعذر معها على الناس المشى ؛ فدموع الأطفال منهلة ، وأفئدة الشباب مكلومة ، وقلوب الشيوخ محزونة وهم يجلسون على الارض مثنية أرجلهم مرخية أيديهم على أجسادهم حتى رجال البلاط قد باتوا محتاجين . وغلقت أبواب المعابد وامتلأت المقاصير بالتراب . وفى ايجاز بات الجميع فى هم وكرب .

ترى ماذا كان ينبغى عمله ازاء تلك الازمات ؟ أيقتضى الامر مراجعة نظام التوزيع الداخلى أو استيراد الغلات من الخارج ؟ أم يقتضى تحسين نظام الرى ؟ كلا . فاذا كان النيل لايفيض فى موعده فلا بد أن خللا قد حدث فى «جزيرة الفيلة» فأصاب القداسة التى تهيمن على الفيضان . وهنا يبدأ البحث فى الأوراق القديمة المهملة .

واذن يقول الملك : « لقد عزمت أن أطوى الزمن القهقرى ، لأبلغ الماضى ولأسال كهنة ايمحتب : من أى مكان ينبع النيل ؟ أى مدينة تقع هناك عند منعرج النهر ؟ وأى اله استوى هناك يمكن

أن يسعفني ؟ ثم هب واقفا ليقول : «سوف أذهب الى مدينة «توت» وسوف أدخل قاعة الوثائق استعرض الكتب المقـــدسة ثم أهتدي بهديها • وهنالك انطلق ثم عاد الى في لحظة لينبئني بمخرج النيل (في مناطق الشلال) وبكل ما يعمر هذه المناطق • ثم كشف لى عما هو عجيب وغامض في آن معا • وآية ذلك أن السلف قد قصدوا الى ذلك المكان • وان لم يقصد اليه ملك منذ البداية » • (ترجمة بارجيه) •

ويمضى في الرواية ليقول : ان الملك يتبين كيف أن المعبود « خنوم » يسيطر على تلك المناطق وكيف اله قد أخـذ يتوسل اليه بقرابين يقدمها اليه ويوقف على معبده قطعة من الارض • وهنالك يعود النظام الى كل شيء كما كان •

وهكذا نرى أن البحث في المخلفات من تراث الماضي كان أمرا غالب الحدوث في المخطوطات المصرية ؛ فهي قد كانت الملاذ الأكبر للعلماء حين يغم عليهم الامر • وقد كان يحدث ألا يعدو الامر عثور أحد الكتبة المحظوظين على وثيقة ضلتها العيون فيبدو له أن ما بها ذو أهمية كبرى فيقوم باعادة نسخها بغية الافادة منها •

ومن قبل ذلك ما نجد في تلك المجموعة الضخمة من الصيغ الدينية والسحرية المعروفة باسم «كتاب الموتى» ونعني قسما تحت العنوان المؤثر « صيغة مخصصة لمنع قلب المتوفى من أن يسلب في العالم الآخر » • وقد وجدت هذه الوثيقة الثمينة التي نســـخت منها مئات القراطيس في ظروف معينة ، وجعل عنوانها على النحو التالي :

« عثر على هذه الصـــيغة في الاشمونين على لوحة من بازلت الجنوب منقوشة باللازورد الاصيل تحت قدمي جلالة الملك «منكاورع» عثر عليها ولد الملك المرحوم «جدف حور» ، خلال تنقـلاته للقيام

برصد ما في المعابد في سجلات • ولما كان قد لقي في عمله هذا كثيرا من المشقة فقد طلب تلك الوثيقة على سبيل الجزاء ثم عاد بها عجيبة الى الملك» (ترجمة دريوتون) • وقد سجلت وثيقة أخرى ذات أهمية كبرى هي « لوحة ميترنخ لسحرية » في ظروف مماثلة : كان ذلك في عصر الملك «نقطانبو» الثانى آخر الملوك المصريين (٣٥٩ – ٣٤١ ق•م) ، وذلك حين لاحظ كاهن يدعى «اس – اتوم» أن نقشا هاما قد فقد – من معبد «أوزيريس – منيفيس» في هيليوبوليس • ونظرا لاهتمامه بهذا النقش فضلا عن رغبته في ارضاء الاله فقد أعاد كتابته ثم سجله على لوحة رائعة من الحجر الاخضر الداكن •

أما معبد الالهة «حتحور» الكبير بدندرة والذى أعيد بناؤه فى زمان أواخر الملوك البطالمة ، فقد وجد في أحد مخابئه السرية نص يشير الى أن نظامه العام قد استمد من وثيقة قديمة جدا جاء فيها «ان الاساس الموقر قد كان موجودا في دندرة ضمن كتابات قديمة مسجلة على لفافة من الجلد من زمان اتباع حورس (وهم الملوك الذين سبقوا الملك مينا) عثر بها فى منف فى خزانة فى القصر الملكى أيام ملك مصر العليا والسفلى سيد الارضين ••• ييپى » (ترجمة دوما)•

وهكذا استمد المعبد اليوناني الروماني صورته ونظامه من أصول بلغت في قدمها حوالى ٣٠٠٠ سنة ثم كان العثور عليها بعد ٢٦٠٠ عام على يد أحد من حفاظ الوثائق اثناء تنقيبه فى صندوق قديم من صناديق الاوراق •

ومن ذلك نرى كيف كان للكتب الاثرية فى العصور القديمة قيمة لا يستهان بها • وكان من بين النصوص الممتازة فيها ما لا يقدر بثمن ، وقد يقتضى البحث عنها أن يعرض الانسان حياته للخطر • وفى قرطاس من أيام العصر المتأخر ، مكتوب باللغة الشعبية (الديموطيقية) قصة رجل من ولد الملك يدعى « نى – نفر – كا –

بتاح » حلت به محنة وهو يبحث كتاب زعم أن رب العلم والحكمة «توت» كان قد خطه بيمينه٠لم يكن ل (نى_نفر_كا_بتاح) _ فيما يظهر _ من قصد سوى التنقل على أرض جبـانة منــف (هضبة سقارة) ، يتلو ما فى قبور الفراعنة ثم ألواح وكتاب من كتابات بيت الحياة · كما يستظهر ما يغشاها من نقوش ، ذلك لأنه كان مولعا أشد الولع بالمخطوطات · ويقام حفل تعظيم للمعبود بتاح ، ويدخل « نى _ نفر _ كا بتـاح » الى المعبـد ليصلى · وبينما كان يتـابع الاحتفال ، مفسرا فى السر ما كان يغشى مقاصير الارباب من كتابات مصرية ، رآه عجوز فأخذ يضحك، فسأله « نى نفر كابتاح» : لم نضحك منى ؟ فقال له الكاهن : «كلا لست أضحك منك ولكن كيف أمسك عن الضحك وأنا أراك تقرأ هنا كتابات ليس لها أية فاعلية ؛ اذا أردت أن تقرأ كتابا فتعال معى وسوف أهديك الى مكان يوجد فيه الكتاب الذى كتبه «توت» نفسه بخط يده عندما هبط الى الارض فى ركاب الالهة · وفىهذا الكتاب عزيمتان اذا قرأت الاولى سحرت السماء والارض وعالم الليل ، وكذلك الجبال والمـــاء · كما أنك ستفهم منطق الطير فى الســـماء والزواحف فى الارض كلا بحالته الراهنة · وسوف ترى الأسماك فى لجج البحار ؛ لأن قوة الهية سوف تحلق فوقها على الماء · واذا قرأت الصيغة الثـــانية فسوف تتاح لك _ حتى عندما تصبح فى قبرك _ تقـــويمك الذى كان لك فى الارض ، وسترى كذلك الشمس وهى تشرق فى السماء بموكبها من حشود الالهة ، والقمر فى المنزلة التى يبدو فيها ليسطع ··» على أنه ليس من السهل العثور على هـــذا الكتاب الســحرى · ويستطيع ولد الملك بكثرة التعاطف أن يغرى الـــكاهن بالتحدث والكشف عنه « ان هذا الكتاب فى قلب بحر قفط فى خزانة من حديد فى قلبها خزانة من البرونز ، وبداخل هذه خزانة من خشب القرفة ، وبداخل هذه خزانة آخرى من العـاج والابنوس بداخلها خزانة من الفضة ، بداخلها خزانة من الذهب ، والكتاب داخل هذه

الأخيرة • ومن حول الخزانة التى تضم الكتاب عدد هائل من الثعابين والعقارب والزواحف من كل لون • كما أن هناك ثعبانا مؤبدا ملتفا من حول الخزانة المشار اليها ••» •

وانتهى البحث بأن عثر «نى ــ نفر ــ كا ــ بتاح» على هذا الكتاب المنقطع النظير ــ ويقع فيه على الصيغ التى تؤدى تلاوتها الى الغرض • غير أن «توت» يرى فى ذلك عدوانا عليه • ويدفع « نى ــ نفر ــ كا ــ بتاح » حياته وحياة أهله كافة ثمنا لحب استطلاعه •

وقد يحدث ــ برغم ذلك أحيانا ــ ألا يشعر الاله بمس من عدوان • فهناك رواية أحدث تاريخا من تلك التى أوردنا بعضا من خطوطها ، وبطلها فى المسرح نفس البطل • وهى تحكى قصة صراع سحرى يضع ملوك مصر أمام ملوك «مروى» • وكأن كل ساحر يتحدى منافسه • وفى الجزء الذى يهمنا من النص نجد مصر فى الكفة الخاسرة • ونرى الساحر المروى يفرض على فرعون كل ليلة ضربات عصا كثيرة تتركه محطما • وحينما يبلغ اليأس حدا كبيرا بالساحر المصرى يقصد الى الاشمونين التماسا للمعونة من الاله «توت» : نام «حورس بن بانيشى» فى المعبد ورأى فى الليلة نفسها حلما • فهذا شبح الاله الكبير «توت» يكلمه قائلا : « ادخل صباح غد الى قاعة الكتب فى معبد الاشمونين وستعثر على ناووس مغلق ومختوم • فافتحه لتجد فيه صندوقا يضم كتابا • ذلك الكتاب هو الذى خططته بيدى • فخذ منه نسخة ثم أعده الى مكانه ، لأنه الكتاب السحرى الذى يحمينى من الاشرار وهو الذى سوف يحمى فرعون وينقذه من كيد أهل «مروى» •

ويرجع الفضل الى هذا الكتاب فى أن ملك الاثيوبيين هو الذى ضرب بشدة فى الليلة التالية وانتصرت مصر •

اذا كنا قد توقفنا قليلا عند تلك الاشارات ، فما ذلك الا لأنها تترجم فى كل صورها الجذابة عن أحد اتجاهات المفكرين المصريين العزيزة عليهم ، وعن أسوأ أخطاء حياتهم الروحية فى آن معا ـ وهو الايمان الاعمى بما لتلك النصوص القديمة من أثر قوى • فالبحث عن النصوص القديمة والحرص عليها ، يفوق لديهم مجرد الاهتمام بالتعرف على أفكار عجيبة عاشت فى المـــاضى ، ويفـوق الاهتمام التقليدى بأساليب قديمة تتصل بالفكر أو التصرف • وأنها لتعبر فى الواقع عن الاقتناع بأن هنـــاك أسرارا لا تقـــدر بثمن مختبئة ومنسية وضالة بين المحفوظات التربة • وأنها لديهم لأسرار لا تقتصر قيمتها على نصح يستطيعون اســـداءه ، بل هى لديهم ذات قـوة وفعالية تكفل لمن يكتشفها أساليب لاتستطيع قوة العالم أن تعطلها• وفضلا عن كل ذلك فان هذه الاوراق المقدسة المحفوظة لا تنقل اليهم ذكرى الاحداث القديمة أو روايات من المـــاضى تدعـو الى العجب فحســـب ، بل انهـا لتكشف لهم ـ فى حالات خاصة ـ عن تلك الكلمات التى استعان بها الآلهة على خلق العالم •

هيمنة الاصوات والاشتقاق المقدس للكلمات :

تخيل المصريون خلق العالم فى صور شتى • اذ تصورتها كل مدينة حسب تفكيرها الخاص جاعلة بالطبع أساسها الأصـلى لالهها الاقليمى • ومع ذلك فيبـــدو أن مدارس اللاهوت قـد تبنت كلها أسلوبا فنيا متشابها لفكرة الخلق يقوم أساسا على «الكلمة» • فما هى الا آن تجول ادارة الخـــلق فى خاطر الاله الاول ، حتى يتكلم فتكون المخلوقات والأشياء التى عبر عنها صـــوته • ولم تكن قيمة الكلمة فى الفـــكر المصرى مجرد وسيلة اجتماعية لتسهيل الامور الانسانية بل كانت تعبيرا مسموعا من الداخل عن جواهر الاشياء• وقد ظلت كما كانت منـــذ بدء الخليقة الوسيلة الالهية التى أعطت

كل شيء خلقه . وفى النطق بمقاطع الكلمات يكمن سر وجود الأشياء التى ينطق بأسمائها • وذلك أن النطق بأى كلمة أو اسم لم يكن مجرد وسيلة فنية لنقل ما فى ذهن المتكلم الى ذهن السامع من صور ؛ بل كان النطق باسم الشيء ذا أثر عليه شديد • فهو تكرار (أو اعادة) لعملية الخلق الاولى • ونحن نتبين من النصوص الجنائزية أن المتوفى يود أن ينطق باسمه ، ويتوسل الى الاحياء أن تكون تلاوة صيغة تقديم القرابين بصوت مرتفع «ألف قطعة من الخبز وألف جرة من الجعة •• من أجل ••• » وليس ذلك مجرد هتاف لا طائل تحته • فلقد يكفى في تصور المصريين أن يتلو الزائر التقى صيغة لطلب الرحمة فيتحقق خلق ما فيها من صور بحيث تصبح نافعة للميت • ومن ذلك نستطيع ادراك عقيدة المصريين فى مدى القوة الهائلة التى يكنها أى نص من نصوص السحر المقدسة ، وتصور ما تطويه من وسائل لا حد لها لتعريف الامور لدى من يحظى بحيازتها • ولذلك نجد أن المصريين قد أطلقوا على محفوظاتهم القديمة المقدسة اسم « باورع » بمعنى « القوة الفعالة لرع » فبوساطتها كانوا يلتمسون القوة الاولية التى كانت ــ وفق احدى التقاليد السائدة ــ مما استخدمه الاله رع فى العالم • ومن هنا وبعد معرفة هذه النظرة الخاصة يتضح لنا كثير من أمور اللاهوت • مثال ذلك الاحتفاظ بلغة الطقوس الدينية لا تتغير وترجع فى أصلها الى زمان العصور الوسطى التى ازداد ابتعادها عن اللغة الشعبية ولم يكن من حق امرىء أن يغير فى أصواتها أو صيغها اذ أنها لغة الهية مقدسة • فهى قد سماها أهلها منذ القدم « اللغة المقدسة » وهل هناك ما هو أبلغ من هذا النص فى التعبير عما قدمنا من مجال وان كانت الترجمة تضيق به(Traité XVI, 1-2) ويستعصى عليها :

« وهكذا فان سيدى هرميس ــ خلال الاحاديث التى كثيرا ما دارت بيننا ــ كان من عادته أن يقول لى : ان الذين سيقرءون كتبى سيجدونها بسيطة فى تكوينها وواضحة على حين أنها على العكس من

ذلك غامضة ومعانى كلماتها خفية ؛ بل ستظل غامضة حتى بعد ما يضع الاغريق فيما بعد نصب أعينهم ترجمتها من لغتنا الى لغتهم ويكون من نتائج ذلك تحريف كامل للنص وغموض تام • على عكس الحال عندما يدور هذا الحديث بلغته الاصلية فهو يدخر وضوح معاني الكلمات • وعلى ذلك فان لرنين الصوت وجرس الحروف المصرية خاصة تحتفظ فى داخلها بقوة الأشياء المنطوق بها » •

لم يعتبر المصريون على الاطلاق أن نطق الكلمات التى نطابق الاشارات الهيروغليفية مجرد وسيلة اجتماعية بل ظل ذلك بالنسبة اليهم على الدوام صدى قويا للقوة الاصلية التي برأت العالم ، أو بمعنى آخر عبارة عن «قوة كونية» • ومن هنا نرى أن دراسة هذا الاسلوب الكلامى يتيح لهم فهم العالم •

وهم يتوصلون الى هذا الفهم عن طريق «التلاعب بالالفاظ» • ونظرا لأن الكلمات ترتبط ارتباطا وثيقا بجوهر المخلوقات أو الأشياء التى تعبر عنها ؛ فان تشابه الألفاظ لا يمكن أن يكون اذن شيئا عرضيا ، بل لابد انها تعبر عن تقارب فى الطبيعة ، واتصال دقيق يضطلع الكهنة بفهمه والقيام بتعميقه : ومن ذلك أسماء الاماكن وأسماء الآلهة والالفاظ التى تعبر عن الاشياء المقدسة • كل شيء يصبح من الممكن تفسيره عن طريق الاشتقاق والجرس الصوتى للكلمات ، وهكذا يصبح المجال مفتوحا أمام أكثر الخواطر مخالفة للصواب •

فلنستعرض لذلك بعض أمثلة كلاسيكية لهذا الاسلوب الفنى، بادئين بما يعتبرونه فى رأيهم غاية فى الكمال ونعنى « اسطورة حورس» • ويعتبر الموضوع تكوينا أسطوريا هائلا يظهر أحيانا فى شكل «درامى» يمكن تمثيله على مراحل متتابعة • وقد وضع هذا النص فى مناسبة العيد السنوى الرابع للاله « حورس » اله ادفو

الذى سموه عيد النصر . وهو يحكى انتصار رع وحورس وهمـا يهبطان من أعلى النيل فى موكب نصر بحرى مبعدين عن طريقهم كل الارواح الشريرة وكل أعوان اله الشر • تأخذ القصة سيرتها هابطة من الصعيد الى الشمال وتنصب فكرة الكاتب على تفسير كل اسم من أسماء المدن التى يمر بها الاله فى رحلته عن طريق عمـل من أعماله أو كلمة من كلماته • « حينئذ قال حورس : تعـــالى يارع لترى كيف سقط أعداؤك أمامك فى هـــذا البـلد» • وجاء جلالته تصحبه « عشتروت » فرأى أن الأعداء قد وقعوا على الأرض وتهشمت رءوسهم • عندئذ قال لحورس : «هذا مكان تحلو فيه الحياة (نجم عنخ بو) » • ولهذا السبب أطلق على قصر حورس الى هـذا اليوم اسم «نجم عنخ» • ثم قال رع لتوت : «هكذا جوزى أعدائى» (جبا) ولهذا السبب سميت هذه المقاطعة «جبو» (ادفو) حتى هذا اليوم» •

وهكذا فان كل مدينة وكل عاصمة كانت تأخذ دورا محددا فى حركات الاله الكبير ، كما كانت تتلقى كلمة مشتقة كفيلة بأن تملأ قلوب علماء اللغة اعجابا ورهبة • فهناك مثلا احدى منشآت الدولة القديمة فى مصر العليا بالقرب من مدينة اسنا تحمل اسم «بى ـ ساحورع» أى «ضيعة الملك ساحورع» • ووجودها بالقرب من قرية أخرى اسمها «حوت ـ سنفرو» بمعنى «قصر الملك سنفرو» ، تبين أن هـذه المنطقة كانت منطقة ريفية غنية ازدهرت فيهـــا المنشآت الزراعية أثناء حكم ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة (حوالى ٢٧٠٠ ـ ٢٦٠٠ ق٠م) فى عصر الاهرام • ومع ذلك فقد فسر هذا الاسم ـ « بى ساحورع » ـ فى العصور المتأخرة بطريقـــة مختلفة تماما ؛ ترجم على أنه « المنزل الذى استراح فيه (ساحو) « أى الاله رع» • ونسب انشاء هذه القرية الى مرحلة من مراحـل اغتراب الآلهة • ولذلك فقد ضاعت كل أهمية تاريخية لاسم هذا المكان • وعلى الرغم مما يبدو فى هذا الاسلوب من لعب وعبث ، فانها لا تخلو من قصد

ومنطق اذا ما جاء لنـــا فهم القيم التى ألصقها المصريون بمقاطع المفردات ، تشابه ظاهر فى مقطعين من مقاطع المفردات لابد ان يشيرا فى اتصال مباشر بين العنصرين المذكورين · لذلك نرى أن تفسير أسماء الاعلام جميعا لتحديد طبيعة الآلهة أصـــبح من الامور التى شاع استخدامها فى كل العصور ، بل اقحم فى سائر المجالات حتى أصبح أسلوبا أساسيا فى علم اللاهوت · وهكذا كان الأمر بالنسبة للاله آمون حامى طيبة العظيم · فاننا نجهل المعنى الحقيقى لاسمه غـير أنه كان ينطق مثـــل كلمة أخرى بمعنى « يخفى » أو «يختفى» · ولذلك فقد تلاعب الكتبة بهذا التجانس فعرفوا آمون بأنه الاله العظيم الذى يخفى طبيعته الحقيقية عن أولاده · ولم يتردد البعض فى الذهاب الى أبعد من ذلك · فقد ذكر «هيكاتيه الابديرى» تقليدا لاهوتيا قديما أصبح بمقتضاه هذا الاسم (آمون) فى مصر ، لفظا للنداء ينادى به أى شخص · صحيح أن كلمة امويني تعنى « تعال » أو « تعال الى » وصحيح من ناحية أخرى أن هناك بعض الاناشيد التى تبـــدأ باللفظين «أمويني آمون» بمعنى «تعـال الى ياآمون » · ولكن كان هذا التجانس سببا دعا الكهنة الى الظن بأن هناك علاقة وثيقة بينهما مما أدى الى تفسير اسم الاله : «لذلك فهم يتوجيـــون الى الاله الازلى كمـا يتوجهون الى كائن خفى ويدعونه هاتفين قاصدين بآمون الى أن يظهر لهم ويكشف عن نفسه » ·

وفى الكتب السحرية القديمة نرى أن الايمان بما للالفاظ من قـــوة خـلاقة ، والمظهر المقدس الاصلى للكلمات ، والقيمة المفسرة للاشتقاقات «الشعبية» هى المظاهر الاساسية الثلاثة للفكر اللاهوتى المصرى ، والآفاق الثلاثة التى تبدو من خلالها سائر العلوم · واذا أضفنا الى ذلك معرفة النقوش المقدسة بكل ما اشتمل عليه أسلوبها الكتابى من ثراء اذن لاستطعنا أن ندرك « الجو الفكرى » الذى تطور فى كنفه «العلم المقدس» من قرن الى قرن ·

أسرار النقوش المقدسة :

ظهرت الكتابة فى مصر حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م ويرجع تاريخ آخر نقش مقدس الى الرابع والعشرين من أغسطس سنة ٣٩٤ بعد الميلاد . وليس بين أول نص مصرى هام وآخر نقش كتب في أيام « ثيودسيوس » من فروق نحوية واضحة الا بمقدار ما بين نص كتبه «تيرانس» ، وبين موضوع منقـح تم تدوينه فى السربون على ضوء النحو والاعراب وتركيب الجمل واستخدام المعاجم . غـير أن لغة الكلام التى كان يتداولها الشعب قد أصابها من التعديل ما لم يخرج بها عن حدود ما يجعل فهمها على رجل الدولة القديمة ـ ان وقع عليها ـ مستحيلا . وقد يكون حاله كحال «فرجيل» ان قدر له أن ينظر فى احدى أعمالنا الادبية الحديثة . وهـــذا مظهر طبيعى اذ ليس هناك ما يستطيع أن يوقف تطور لغـة الكلام خاصـــة عندما لا تكون هناك مدارس ومطابع وكتب واسعة الانتشار تستطيع أن تساعد فى تثبيتها أو تساعد على الاقـــل فى استبطاء سيرة حياتها الطبيعية . ولكن يجب أن ندرك أن رجال الكهنوت أخذوا على عاتقهم عدم تغيير لغة كان جرسها من العـــوامل التى استخدمت فى خلق العالم ، وكتاباتها من تعاليم الآلهة . وحسبنا أن العبادة الى يومنا هذا ما زالت تؤدى فى كنائس العالم الكاثوليكية باللغة اللاتينية.

وقـــد ادخـــرها رجال الدين محتفظين بمعرفة أســـلوبها وممارسته ، وهو أسلوب تميز بطابع خاص ظلت لغته جامدة فى مبادئها لا يطرأ على مصطلحاتها أى تغيير . ومنها استطاع الكهنة أن يقوموا بتهذيب كل القواعد التى وضعوها لعلم الاشتقاق المقدس وتنميته ، وأن يقوموا أخيرا بتوضيح أصولها منتفعين الى أقصى حد ممكن بالمبادىء التى تحدد قيمتها . واننا لنجد كثرة فائقة فى اعداد

الاشارات الكتابية فى أيام الحضـــارة المصرية المتأخرة • وقد كان الكتاب فى العصــور الكلاســيكية ـ (أى أيام الدولتين الوسطى والحديثة) ـ يكتفون من ذلك بحوالى ٧٠٠ اشارة هيروغليفية والآن نرى الكتاب يزيدون من عدد المترادفات التى تعبر عن الكلمة نفسها فيخلقون اشارات جديدة أو يقومون ببعث أشكال قديمة كان الناس قد هجروا استخدامها • وتبلغ عـدد الاشارات الكتابية المسكوكة لدى مطبعة المعهـد الفرنسى للآثار الشرقية ـ وهى أغنى مطـابع العالم ـ أكثر من ستة آلاف اشارة هيروغليفية • ومع ذلك فلا يخلو الأمر عنـد نشر أى نص جديد من العصر المتـأخر من القيام برسم بعض اشارات كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة ، وضاعف الكتاب المقدسون من ناحية أخرى هذه القيم حين عمدوا الى الاصول التى وضعت لتحديد القيمة الصوتية لكل اشارة ، فاستغلوها فى تلك الاغراض الى أقصى حد • فالاشارة التى لم تكن تقرأ بغـير صوت واحد ؛ أصبحت لها قيم أخرى بلغ عددها الخمس أحيانا ، فالكتاب فى المعابد يتلاعبون بالاشارات الـكتابية ويضاعفون من أصولها ، ويجعلون منها أداة غاية فى الدقة والتعقيد كما أنهم يزيدونها الى أبعد الحدود ؛ غير عابئين بما ينشأ عن ذلك من صعوبتها التى تضطرد زيادتها ؛ بل على العكس يشعرون بالامكانات الضخمة التى لا تكاد تعرف لها حدودا والتى وضعتها الآلهة بين ايديهم • وهكذا تصبح الكتابة ضحية لأزمة حقيقية ؛ وهى أزمة مزعجة تثير القلق ، واننا لنتصور أصحاب الأدب يسعدون بعثورهم على بعض اشارات جديدة يخلقون لها معـانى جـديدة ، ونتصورهم يعرضون تلك الكنوز على رملائهم فى شىء من الزهو والفخر • وقد كانوا يسـتعيدون قراءة النصوص القديمة ؛ يلتمسون بين ثناياها من قديم الشكول والألوان ما يتبارون فى استخراج كل غريب من معانيها • وكانوا يجعلون من عملهم هذا فنا يمارسونه ويتخذون منه مسلاة عقلية •

التلاعب بالاشارات وفلسفة الكتابة :

وقد تأخذ الكاتب دهشة الرضى حين ينتهى من كتابة جملة تقليديا مستخدما فى رسمها اشارات غير عادية ، ذلك ان معنى النص انما يستخلص من القيمة الصوتية لاشارات تصور شكولها المادية معانى تبعد كل البعد عن قيمتها الصوتية • فلنكتب على سبيل المثال اسم الآلة بتاح حامى مدينة منف مستخدمين فى ذلك اشارات أصلية فنرى الكاتب هنا يعبر عن الحرف الأول من اسم الاله وهو «ب» بصورة السماء • واسمها كما ينطق به فى المصرية « بة » وعن حرف « ت» » بصورة الأرض واسمها المصرى « تا » وعن حرف « ح » برسم الاله « حح » رافعا ذراعيه الى أعلى ومعبرا فى الوقت نفسه عن احدى الوظائف التى استدتها نظرية منف الدينية الى الآله « بتاح » الذى فصل فى خلق الكون بين السماء والأرض • أى أنه قام بالدور الذى قام به « شو » فى « نظرية هليوبوليس » الدينية • وفى وضع رسم المعبود « حح » بين السماء (بة) التى يرفعها بذراعيه والأرض (تا) التى وطئها بقدميه استطاع الكاتب أن يرسم الصورة الصوتية لاسم المعبود « بتاح » وأن يرسم فى الوقت نفسه صورة صغيرة تترجم رؤيتها وظيفة هذا الاله بين عناصر الكون • وأخرى من أمثلة التلاعب بالألفاظ نراها فى تصوير لفظ « دواة » (عالم الموت أو العالم الآخر) وكان يرسم فى ذلك الوقت بساكنين هما الدال والتاء • وهما الساكنان اللذان يصوران فى الوقت نفسه اسم « الجسد » واسم « الأبدية » فى آن معا

ومن ذلك نرى أن الجمع بين اشارتين احداهما رسم الثعبان للصوت « د » والثانية رسم الجسد المسجى فى هيئة المومياء للأصوات « واة » • ومن هذين الشكلين الصوتين يتهيأ لنا اسم العالم الآخر رسما ومعنى •

وهكذا يتيح هذا التلاعب الجديد بالألفاظ مجـــالا للاختيار يقعون فيه على مستودع غير محدود لاشارات تتساوى فى دلالاتها من حيث احتوائها على السواكن اللازمة لبناء الكلمة وهو الغرض الأول ، ومن حيث تصوير الفكرة المعنية من رسم اللفظ فى آن معا.

وهكذا يستطيع النص المرسوم على هذا النحو أن يتحدث الى العقل الذى يتابع الألفاظ ويدرك معانيها الى العيون التى تترسم الصور والشكول ؛ شأنه فى ذلك شأن الفيلم الذى يتحـــدث الى العقول باحداثه والى العيون بصوره ، فيعبر عن القتال بصــورة رجلين يقتتلان .

وبعد مرحلة أخيرة من تلك التجارب الواسعة التى مرت بها الكتابة الهيروغليفية توصل العلماء من الكهان فى شان اشـــارات نصوصهم المقدسة الى ادراك احتمالات التاويلات الثابتة تشبه الى حد ما مايتناوله السحرة بحروف أبجدية فى اللغة العبرية . فهذه الكتابة وهى من عمل الآلهة وقد أبدعت الحياة مقاطع الفاظها ، بحيث أصبح فى الامكان ان تحدد الفكر وتنقله بعد أن رسمت اصوات لفظه ، وأصبح تركيبها كافيا للايحاء بمعناها . ألم يكن من الممكن تخيل اسلوب هجائى تغنى فكرته الكتابية عن الاسم الذىتستخدم فى رسم مبناه بحيث توحى بمعناه ؟ ثم ألا يمكن أن يسبق المجاز الرسم الصوتى فى التعبير عن المعنى ؟ فبدلا من مجرد تأكيد الفكرة التى يعبر عنها بالنطق لصورة متطورة ـ سوف ينشأ من الآن حول اسم اله ما عن طريقة الرسم الهجائى لهذا الاسم ـ هالة من الصور الفكرية كما ينطوى الرسم فى أصوله على طائفة من الصفات التى يمكن أن يرجعها سياق النص الى هذا الاله .

فاذا أخذنا من رسم اسم المعبودة «نة» مثلا لذلك وقد كان يرسم فى الأصل من ساكنين هما «النون» و «التاء» ثم صار يرسم

بالرخمة وقوص الشمس أولاهما « للنون » والثانية « للتاء » ولكل من هاتين الاشارتين معنى غير ما يعبر عنه صوت النون وصوت التاء ، فينطق بالأولى « موة » وتعنى « الأم » والثانية « رع » وتعنى الشمس . فاذا كان النص يحتم علينا أن نقرأ هذا الرسم الهجائى « نة » وهو اسم المعبودة المشار اليها فانه من ناحية أخرى يوحى الينا أن نترجمه الى « أم الشمس » . وذلك ما قصد اليه الكاتب حين أراد أن يستأنف قارىء النص مسترسلا فيقول : « نة أم الاله الواحد الذى لا ثانى له (= رع) » فصفات المعبود يمكن أن توجد باستمرار فى الرسم الهجائى لاسمه على أن تختار اشارته الصوتية بكل دقة .

ونستطيع بهذه المناسبة أن نعرض صورة أخرى للرسم الهجائى لاسم المعبودة « نة » فالنون المصرية ـ وتمثل صفحة الماء ذات الأمواج ـ والتاء ـ وهو الساكن الثانى فى رسم الاسم ويتمثل فى صورة الأرض ـ يمكن أن يفيدا فوق لفظ الاسم « نة » المعنى الذى قصد اليه الكاتب وأصبح مستفادا من سياق النص « الماء الأزلى الذى أخرج الأرض » . ويؤكد السياق عند الاستمرار فى قراءة النص ما ينطوى اسم المعبودة من صفاتها التى عرفها لها المصريون .

تلك التأملات الأخيرة لم تنتشر الا فى أقصى العصور المتأخرة، فنحن نجد فى نصوص معبد اسنا من القرنين الأول والثانى للميلاد ، كما نجد صدى لمثل هذه التأملات لدى « هو رابوللو » فى القرن الخامس الميلادى .

ومن ذلك نرى الى أى حد تطورت الكتابة الهيروغليفية بين أيدى الكهان حتى العشرات الأخيرة من سنى حياتها .

ولم يعد الكهان المصريون ينظرون الى الاشارات الهيروغليفية

على أنها مجرد حروف هجائية اذ أنهم استطاعوا بالفعل أن يتخذوا منها طريقة للتعبير ذات ثلاث شعب ، فهى عندهم تارة حروف (أى أصوات لبناء الكلمة) ، وأخرى أشكال تلائم الفكرة التى يراد التعبير عنها ؛ وذلك بالجمع بين ادراك المنظور والاحساس السمعى · ثم الايعاز بما تنطوى عليه الاشارات التى ترسم بها الكلمة من صفات باضافة الى الكلمة نفسها ··· وليس من شك فى أن الكتاب قد بلغوا عن طريق التلاعب بالألفاظ والشكول حدا مكنهم من استخدام ما بين أيديهم من كلمات فوق استعمالها المباشر كوسيلة للتعبير بأصولها عن تعريف العالم تعريفا حسيا ورمزيا فى آن معا ·

ففى البدء نشا العالم وقوانينه وتاريخه بالنطق الالهى (اى بمنطق كن فكان) . ومن هنا ظل فى رموزهم المقدسة ، بقية من القوة النافذة الفعالة .

نستطيع بعد هذه اللمحات التى قدمنا ــ عن الظروف الفكرية التى تكون فيها العلم المقدس ــ أن ندرك كيف أن الكهنة لم يكونوا كرماء فيما فعلوا · اذ كيف يعرضون ببساطة على الأجنبى السائح فروعا مختلفة لعلم ارتبطت قواعده ارتباطا وثيقا بالأفكار الدينية لمصر ؟ كيف يستطيعون أن يقدموا فى اطار واضح مجموعة أفكار ومعتقدات راسخة لم يتوصلوا هم أنفسهم اليها الا بعد تأمل دقيق ، وبعد تجميع وتراكم من تقاليد الكهنوت والمخطوطات والأساليب الفنية الروحية جيلا بعد جيل ؟ ولقد كانت معرفة لغة مقدسة ، واتقان الكتابة ، فضلا عن تعمق دراسة النصوص والادراك المتصل لقوة الأصوات والكلمات التى لا حد لها من الشروط الأساسية المؤهلة لدرجات العلم لدى الكهان المصريين ·

أما وقد ألممنا بجوهر هذا العلم فترى ما هى الوقائع التى نملكها ازاء ما نعرف عن هذا العلم ؟ وأين يستغنى عنه ؟ وأى المجالات كان يغطى ؟

بيوت الحياة ومكتبات المعابد :

سوف نتلقى أول رد على هذه الأسئلة حين ننظر فيما نعرف عن « بيوت الحياة ومكتبات المعابد » .

ان بيوت الحياة هي مؤسسات لم تزل في نظرنا شيئا غامضا الى حد ما. فالمصريون يتحدثون عنها في غير تفصيل، وواضح أن مفهومها كان معروفا لديهم على حين أنه ليس كذلك بالنسبة لنا . ولكننا نعرف وجودها بصفة مؤكدة في منف وأبيدوس والعمارنة وأخميم وقفط وأسنا وأدفو . فمن الحقائق المفروضة أنه قد كان لكل معبد ذى مكانة ملحوظة « بيت حياة » خاص به . تلك كانت الدور المستخدمة كمعامل ينمو فيها العلم المقدس . ففيها كانت النصوص تدرس ، ويعاد نسخها ويدخر فيها . وربما كانت الضرورة تقتضى أن يقوم الكهان فيها بتدريس بعض المواد فنحن نذكر الحديث عن أستاذ في « بيت الحياة بأبيدوس » كما ورد في قصة ساتنى « ان الغلام الصغير سينوزيريس » حينما تعلم القليل من أصول الكتابة المصرية على أيدى أحد الكتبة لم يلبث حتى جعل يقرأ الكتب السحرية مع معلمى بيت الحياة في معبد « بتاح » ومن الجائز أن يكون الغلام قد قام بمصاحبة بعض المعلمين المحترفين بقصد التمرين أو الاستفادة من علمه الذى كان يراه فوق طاقة البشر حسبما يشير بالأسلوب العام للقصة .

وكان أبرز ألوان النشاط في « بيت الحياة » هو اعداد الكتب الدينية اللازمة للعبادة ، وذلك باعادة كتابة المخطوطات القديمة وتصحيح ما فيها من أخطاء ، وسد ما فيها من فراغ يتسبب عما لحق القراطيس من فعل الديدان الأرضية . وكذلك كانت تعد هناك النصوص الدينية وبخاصة ما اتصل منها بأمور العبادة المتعلقة بكل معبد ، وتسطر الكتب السحرية الخاصة بالحماية

من الشر ، الى جانب الجداول الفلكية ، كما كانت تنسخ من كتاب الموتى » آلاف النسخ . وفيما بين ذلك كانت المشاكل الفلسفية والدينية تناقش فى كثير من الحماسة . ولم يهمل العمل فى الطب ولا أوجه النشاط الأدبى ، ولم يكن العمل فى كل شىء يجرى فى هذه المعامل فى أسلوب قوامه النسخ الآلى . وما أكثر النصوص والمحاولات والفكر الدينية التى كتبت هناك لأول مرة نتيجة لتأملات أو تبادل مثمر لوجهات النظر . فقد يكون من أجمل النصوص الروحانية أو الأدبية التى بين أيدينا اليوم ما صدر عن تفكير كاتب غير معروف أمده بها ايمانه الراسخ . ومع ذلك سنظل نجهل اسمه الى ما شاء الله .

والى جانب النساخين فى بيوت الحياة كان هناك بعض الاخصائيين مثل « منفذ الطقوس » الذى كان عليه خلال القيام بالمراسيم السحرية أن يضرب الحيوانات الملعونة طبقا لطقوس معينة . كما كان هناك طوائف من أصحاب الفنون والصور الزخرفية يقومون بتوشيه جدران المعابد بالنصوص والنقوش ومختلف الاشارات المقدسة ، ورسم المناظر وتلوينها ، وترميم ما سعى اليه التلف والبلى من الجدران وما عليها من نقوش .

ويمكن أن نقرر فى اختصار وبصفة عامة أن كل ما كان ينقش على جدران المعابد وكل ما كان ينسخ من قراطيس البردى التى كانت تقتضيها شئون العبادة وسائر عناصر الثقافة الكهنوتية قد كان يخرج من بيوت الحياة . فأما ما كانت تنطوى عليه تلك الموضوعات من عناصر ،فستكشف لنا عنه قوائم « مكتبات المعابد » .

فاذا كان الكتاب والنساخون فى بيوت الحياة قد كانوا يقومون باعداد مسودات النصوص التى كان على النقاشين أن يقوموا بحفرها على جدران المعابد ، كما كان من واجبهم ادخارها فى خزائنهم للاحتفاظ

بأكثر أصول النصوص اللاهوتية أهمية ، فقد كان من واجبهم الى جانب ذلك تحرير القراطيس التى تقضيها الواجبات الدينية فى تادية الطقوس والشعائر اليومية . وكانت تلك القراطيس تحفظ فى المعبد نفسه لتكون فى متناول الناس وقت تأدية الخدمة ، وقد عثر فى كثير من تلك المعابد على قطع صغيرة يكتنفها الغموض فى اغلب الأحوال ؛ وان كانت تحمل اسم « دار الكتب » • وكانت القراطيس تحفظ ملفوفة فى كوات ضيقة محفورة فى الحوائط كما كان ينقش على تلك الحوائط ، لون من السجل يبين الكتب المحفوظة فى هذه الدور . ومن ذلك على سبيل المثال قائمة الكتب المقدسة فى «معبد ادفو » : وفى : القراطيس البردية والمخطوطات الكبيرة من الجلد النقى الذى تتيح :

ضرب الشيطان •
وطرد التمساح •
وصيانة الساعة •
والمحافظة على الموكب •
ونزهة الفلك الكبيرة •
كتاب للخروج بالملك فى موكب •
كتاب الامامة فى العبادة •
حماية المدينة والدار والتاج الأبيض للعرش والعام •
كتاب تهدئة « سخمة » •
كتاب صيد الأسد وابعاد التماسيح وابعاد الزواحف •
ومعرفة كل أسرار المعبد •
ومعرفة القرابين المقدسة بكل تفاصيلها •
وكل سجلات الهيئات الباطنة للاله •

وكل مظاهر الآلهة والمعاونة والتى يعاد رسمها كل يوم .

من أجل المعبد ، كل يوم ؛ يوما بعد يوم تسكن أرواح الالهة فى (هذا) المكان ولا تهجر (هذا) المعبد ابدا .

كتاب سـجل المعبد .

كتاب لأرهاب الناس .

كتاب لكل ما كتب عن المعارك .

كتاب فى نظام المعبد .

كتاب الخدمات التى يجب أن تؤدى فى المعبد .

ارشادات فى زخرفة احدى حوائط المعبد .

حماية الجسد .

كتاب لرقية الملك فى قصره .

تعاويذ لاتقاء العين الشريرة .

معرفة العود الدورى لنجمين (الشمس والقمر) .

دليل لمعرفة الظهور الدورى للنجوم (الأخرى) .

سجل احصائى بكل الأماكن المقدسة ومعرفة كل ما يوجد بها. كل الطقوس الخاصة بتجلى الاله خارج معبده أيام الأعياد » .

وفى معبد آخر من معابد مصر العليا وهو معبد « الطـود » تنتشر بين أنقاضه كتل وصفائح من الحجر ما زالت تحمل بقايا تشبه ما ذكرنا من سجلات ، ونجد فيها مخطوطات تتناول دخول الاله « مونتو » طيبة ، وطقوس تتصل بالشعيرة التى يسمونها « عيـد حورس » وكتاب « ما على المذبح من قربان فى معبد آمون » وكتاب « عيد المعبود توت فى معبد «خونسو» ، والطقوس الخاصة « باحتفال النصر » ، وطقس خاص « بمولد الاله » ... الخ . وقد عثر فى معبد فيلة وفى معبد اسنا من العصر الرومانى على مكتبات مشابهة

حيث كانت تحفظ في الماضي ذخائر من الادب المقدس الشـــائع الاستعمال ٠

وكشفت أعمال التنقيب أخيرا عن كتب احدى هذه المكتبات في مدينة « تبتونيس » الصغيرة بالفيوم ٠ ومن بين هذه الوثائق ـ فضلا على الطقوس والبحوث في الفلك والطب ـ عثر على عـدد من النصوص الأدبية : (روايتا ساتني وبتوباستيس بالقلم لديموطيقي) وثلاث مجاميع لمفردات صنفت حسب المعنى ؛ وهي التي تنطوي تحت عنوان « ثبت المسميات » وبعض نسخ لكتاب في الحـكم معروف من قبل ٠

ميادين العلم المقدس :

اذا خطر لنا أن نحصر الميادين التي كان يمارس فيها العلم الكهنوتي فسنبلغ ذلك عن طريق الســجلات التي حفظت بطريق الصدفة؛ فلدينا من ذلك ثبت يدعو الى الدهشة٠ ومن الأمور الواضحة أن كل كاهن لم يكن بوسعه أن يشارك في كل أوجه النشاط التي يوجـد ما يشـير اليها سـواء لدى كتبة بيت الحيـاة أو في سجلات المكتبات ٠ فهذا يعمل في رعاية أمور التعبد وترتيبها ، وذاك لم يهتم بأمور الفلك وحساب الزمن ، وثالث خرج عن هـــذا وذاك ليشغل نفسه بتعبير الرؤى أو التخصص في عبـــادة الحيوانات المقدسة ٠ وليس هناك ما يمكن أن يكون أوضح وأدق ـ في تبيين العلوم والأساليب الفنية على اختلاف ألوانها ، وتوزيعها بين طوائف رجال الدين ـ من ذلك الفصل الذي عرض فيه الكاتب المسيحي «كليمانت السكندري» : موكب المعبود ازيريس حينما كان ينظم في المدينة الهيلينستية الكبرى :

« يتقدم الموكب منشد بيده آلة موسيقية . يقولون انه لابد أن يكون قد حفظ كتابين لهرميس ، يحوي أحدهمـــا التســـابيح

للالهة ، ويحوى الآخر السيرة الملكية . ويمشي وراءه العراف ممسكا بيده شعاراته : الساعة وجريدة النخيل الفلكية . وعليه أن يحفظ عن ظهر قلب كتب الفلك الأربعة الخاصة بهرميس والتى يبحث أحدها في نظام النجوم الثابتة والثانى فى حركات الشمس والقمر الدرارى الخمسة (١) والثالث فى التقاء الشمس والقمر واضاءتهما والأخير فى مطلع الأفلاك . ثم يتقدم بعد ذلك مفسر النصـــوص المقدسة وقد زين رأسه بالريش ، وبين يديه كتاب ولوحة صـغيرة يحتفظ فيها بالمداد الأســـود والقلم الذى يكتب به . ويجب على هذا الشخص أن يعرف الكتابة التى تسمى النقوش المقدسة والتى تتعلق بوصف الكون والجغرافيا ، ونظام الشمس والقمر والدرارى الخمسة ، وتخطيط أرض مصر ووصف النيل والارشادات الواجب اتباعها فيما يختص بالأدوات المقدسة والأماكن المخصصة لهـــا والمقاييس والأوانى التى تستعمل فى ممارسة الشعائر . ويمشى وراءهم الكاهن الذى يحمل ذراع العدالة واناء لرش الماء الطهـور . وهو يعرف كل ما يتعلق بتدريس ما يسمى علم سمات الحيوانات والوصايا العشر التى تتعلق بتمجيد الآلهة فى البلاد والتى تنطوى على : التقوى المصرية ، طرق حرق البخور ، والقرابين ، والأناشيد والصلوات والمواكب والأعياد ... الخ . وأخيرا يخرج كاهن وقد حمل الـ « هيدريا » (٢) بادية على صدره ويتبعه حملة القرابين التى يهتفون بها . ثم هو يعرف ـ بصفة كونه رئيسا للمعبد ـ الكتب العشرة التى يطلق عليها المقدسة كما يحيط علما بما يتعلق بالقوانين والمعبودات وعلم الكهنوت كافة » (ترجمة درشان) .

---

(١) الدرارى الخمسة ، هى الكواكب الخنس التى تخنس فى مجراها ، ترجع وتكتنس كما تكتنس الظباء : وهى زحل والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ثم عطارد . (المترجمة)

(٢) جرة من فخار مطلية بطلاء معدنى معروفة عند الأغريق . (المترجمة)

هـــــذا ولا شك عرض واف للعلوم الكهنوتية تتردد بعض عناصره مما نعرفه عن اثبات المعيد على حين نرى البعض الآخـر جديدا يكسو الصورة التى نود ان نرسمها للعلم المقدس فيكملها ببعض اضافات جليلة. على ان هذه المعلومات غير كاملة. فهناك عدد لا يستهان به من الاشارات متفرقة من الوثائق الخاصة بعلم الآثار المصرية ، وبعض اشارات لنصوص وكتب معينة عليها من الواضح أنها كانت من ذخائر المكتبات اللاهوتية وتسمح كلها بتكوين فكرة أوسع عن المجالات التى كان يشملها علم كهنة مصر • وســـوف نقوم بتجميع هذه الأفكار المبعثرة وتصنيفها حتى نستطيع عرض صـــورة مفصلة لأكبر حـد ممكن عن المجالات الكهنوتية • ولنبدأ بالتاريخ •

التاريخ :

ما زلنـــا نذكر ذلك القول الجميل الذى قاله كاهن سايس الشيخ ل « صولون » : « لم يعمل شىء جميل أو كبير أو مدهش فى أى مجال من المجالات سواء عندكم (= فى اليونان) أو هنا أو فى أى بلد آخر معروف لدينا الا وسجل كتابة منذ أمد طويل وحفظ بمعابدنا » • وبالفعل فقد دونت فى المعابد ــ أو من أجل الأغراض الدينية ــ الوثائق الوحيدة التى يمكن أن تسمى محـــاولات فى التاريخ •

لم يعرف فى مصر على الاطلاق مؤرخ خليق بهذا الوصف • وتلك حقيقة قاسية ينبغى التسليم بها كما هى • فانقطاع حقب الزمان المتصلة جعل من العسير ايجاد تقدير مضـــبوط للوقت • فقد كان العام الذى يعتلى فيه العرش ملك ما ، يسمى العـــام الأول • فاذا مات سمى العـــام الذى يعتلى فيه العرش خلفه بالعـام الأول كذلك • واذا أخذنا فى الاعتبار بعض حالات اشترك فيهـــا

ملكان فى الحكم الى جانب مملكتين معاصرتين وفترات حكم وهمية مختلفة لأدركنا مدى استحالة وجـــود أى تقـدير مضبوط للقرون الماضية • وقد كان يقال مثلا « فى عصر الملك خوفو » كما نحـــكى عن « الملك الطيب داجوبرت » فتروى عصره حادثة من الحوادث بعيدة ولكنها محشورة فى هذا الزمن بطريقة مبهمة • ومن ناحية أخرى كانت الفكرة التى لدى المصريين عن عالم خالد غير متغير ، تعوقهم عن ادراك أى ظروف سياسية أو اجتماعية •• وقد حدثت بالفعل انقـــلابات اجتماعية خطيرة كالانقلاب الذى حدد نهـــاية الدولة القديمة • ولكن النصوص الأدبية وحدها هى التى أشارت اليه ، على حين لم يتعرض التاريخ الا لذكر الملوك الذين عاشوا — فى آن معا — خلال تلك الأزمات المضطربة دون أى مجال للتخمين بوقوع أى حـدث له خطره فى ذلك الوقت • ذانك عاملان يتمثل أحدهما فى عدم دقة التواريخ ، ويتمثل الثانى فى الاهتمام الخالص بكتابة الحوليات والاثبات الملكية • هذان العاملان يمثلان الكفة الراجحة التى اثقلت ميزان التاريخ مدى ثلاثين قرنا أو يـــزيد وكان لابد اذن من انتظار الـكاهن « مانيتون » الذى عاش فى العصر الهيلينى — ليكتب لنا أول كتاب فى التاريخ — فندفع ثمنه ثقيلا باهظا يتمثل فى كثير من الأخطاء المرهقة .

لم يعثر على أى أثر لكتب تاريخية فى اثبـــات الكتب اللاهوتية التى مر ذكرها • ومع ذلك فقد وصل الينا بعض تلك الآثار بطريق غير مبـاشر • فهذا هيرودوت يروى أن الكهنة تلوا عليه من كتاب لديهم ثلاثين وثلاثمائة اسم من اسماء ملوك مصر بعد ايام « منا » كان فيهم ١٨ من الاثيوبيين وامرأة واحدة ؛ امرأة من نفس البلد على حين كان الباقون رجالا مصريين• وقد انتهت الينا اثبات من هذا النوع، تزين احداها ممرا فى معبد « ابيدوس » وفيها ترى الملك «سيتى» والد « رمسيس الكبير » وهو يقدم القرابين الى كل أسلافه وهم

٧٦ ملكا تتابعوا بعد « مينا » مؤسس الوحدة المصرية • وجدير بالملاحظة أن هذه الوثيقة تعتبر سياسية أكثر منهـــا تاريخية • « قسيتي » ينتمي الى أسرة جديدة ؛ أى أنه يعتبر الى حد ما دخيلا على العرش • فهو أراد ولا شك أن يلحق نفسه بذلك الصف الطويل من الفراعنة القدامى ملتمسا بذلك شرعية البقاء على العرش • وبين تلك الاثبات بعض ما يعتبر أكثر قربا الى طبيعة « النص التاريخى » مثـل « قرطاس تورين الملكى » الذى يخص الأسرات والملوك ومدى بقائهم في الحكم • ولدينا وثيقة من الأسرات الأولى تعرف في كتب المؤرخين باسم « حجر پالرمو » وقد وجدت مع الأسف مهشـمة ، ولكن أمكن أن يستخلص من محتوياتها بعض الأحداث الهـامة التى مرت بها مصر خلال أزمنة الحكم المختلفة مثل فيضان النهر وتواريخ تتويج الملوك وتواريخ وفاتهم ، والرحـــلات النهرية ومشروعات التجارة وبعض أعمـــال الحرب • وكانت الحوليات اللاهوتية تضيف الى تلك الاشـــارات الرسمية بعض الملاحظـات الفلكية والعجائب •

ومن أقوال هيرودوت : « وهكذا انقضت ١١٣٤٠ سنة يؤكد لى الكهنة أنه لم يقع خلالها أن ظهر اله في شكل بشرى • ويقولون على العكس من ذلك : ان الشمس خـــلال هذا المدى قد أشرقت ٤ مرات من موضع من السماء لم يكن موضع شروقها المعروف وأنها أشرقت مرتين من المكان الذى تغرب فيه وغربت مرتين فى المكان الذى تشرق منه • ومع ذلك فحـــالة مصر لم تتأثر بذلك فى شيء ولم يظهر أى تغيير سواء فى خصوبة الأرض أو فى عطاء النيـــل ولم تقع زيادة فى الأوبئة أو فى الوفيات » •

وليس ينبغى لنا أن نغفل ما يتصل بماضى الـكهان الطويل من معارفهم الخاصة ، وأن كانت تنقصها الدقة الزمنية والمشاهدات التاريخية الحقة فى بعض الأحيان • ولم يكن بالعسير على الكهنة

العثور على كثير من تقاليد بعض الملوك أو كثير من آثار بلادهم . وكتب الرحالة الاغريق حافلة بتلك الروايات التى تتصل بالأسماء الكبيرة فى التاريخ من أمثال « سنوسرت » و « مويريس » و « رمبسنييت » و « نيتوكريس » .. وحب استطلاعهم ظل واعيا متصلا ازاء الأحداث الخارجية التى تتصل بمصر واذا صدقنا فحرب طروادة مثلا لم تكن مجهولة لديهم اذا نحن صدقنا رواية هيردوت . وقد رأينا كيف أنهم كانوا يحرصون فى محفوظاتهم على الاشارة الى مرور العلماء والفلاسفة الاغريق الذين كانوا يأتون لزيارة معابدهم . وقد كانت معرفتهم بالكتابة الهيروغليفية تمكنهم من النظر فيها ما وجدوها فى مختلف المبانى التى كانت نزدحم بها بلادهم فيستقرئون منها أحداث الماضى تماما كما نفعل نحن الآن فى محاولة معرفة تاريخهم ، نعم كانوا يفعلون ذلك وان نقصتهم الدقة فى كثير من الأحيان . ولنذكر بهذه المناسبة ذلك الكاهن الطيبى العجوز الذى كان يقود « جرمانيكوس » وحاشيته بين أطلال العاصمة القديمة (انظر Tacite, Annales II, 60) على المبانى الشاهقة كانت لا تزال هناك حروف مصرية تحكى عن جلالها القديم وعندما طلب من أحد الكهنة المسنين ترجمة لغة بلاده شرح لجرمانيكوس أن المدينة كان يسكنها فى قديم الزمان ٧٠٠ ألف نسمة فى سن الجندية . وان الملك « رمسيس » بدأ فاستولى بهذا الجيش على ليبيا وأثيوبيا وعلى بلاد الميديين والفارسيين ، وعلى بلاد باكتريان(١) وسيتيا (٢) وعلى كل الأراضى التى يشغلها السوريون والأرمن

---

(١) تقع منطقة بكتريان الآن فى غربى آسيا بين بلاد الفرس وتركستان . (المترجمة)

(٢) تقع بلاد سيتيا فى شمال أوربا وشمال غرب آسيا . (المترجمة)

وجيرانهم الكبادوسيون (١) ، ثم بعد ذلك جعل تحت سلطانه ما يمتد من بحر بيتينيا (٢) الى بحر ليسيا (٣) • كما كان يقرأ الجزية التى فرضت على هذه البلاد وموازين الفضة والذهب وعدد الأسلحة والخيول والقرابين للمعابد ، والعاج والعطور وكميات القمح والمؤن التى يجب على كل دولة أن تقدمها ؛ وهى جزية لا تقل فى روعتها ولا فى قدرها عن تلك التى تفرضها اليوم قوة بارثيا أو روما » •

أما عن رواية الاطلنطيد التى رواها أحد كهنة « سايس » لصولون ؛ فمن السهل العثور فيها على عناصر مصرية صميمة تدعو للتساؤل عن مصادرها الممكنة • ومما لا شك فيه أننا ننتهى — كما اقترح « سيانوت » حديثا — الى أن رواية الاطلنطيد هى اعادة تفسير مصرية لحقائق تاريخية قديمة : اننا ولا شك نتذكر الهجوم الهائل الذى شنته « شعوب جاءت من جزر فى البحر على ليبيا ومصر » خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق•م والصعوبات التى لقيها « مرنبتاح » ثم « رمسيس الثالث » فى ردها فى وادى النيل • ففى مدينة هابو نقوش تملأ بعض صفحات جدرانها ، تصف مراحل هذه المعركة الهائلة • وكانت هناك قصائد أذيعت فى طول البلاد وعرضها تمجد انتصار رمسيس وبقيت ذكرى كل ذلك نحوا من ألف عام ، فنحن نجد فى معبد ادفو اشارات لهذه الشعوب البعيدة . ولن يكون عجيبا بعد ذلك ان نرى من كهان « سايس » من يعرف احدى روايات هذا الحدث الضخم • وذلك

---

(١) تقع منطقة كبادوسيا شرقى تركيا وسهول آسيا الصغرى •
(المترجمة)

(٢) بيتينيا منطقة جبلية تقع على حافة البحر الأسود فى آسيا الصغرى وبحر مرمره •
(المترجمة)

(٣) تقع ليسيا فى جنوب آسيا الصغرى على بحر ايجا • (المترجمة)

بالاضافة الى قصة الجـــزيرة التى تختفى تحت الأمـــواج : كانت معروفه منذ الدولة الوسطى فى الرواية المصرية « البحار المرتطم » . وهكذا استطاع كاهن سايس أن يمثل المؤرخ وهو يحكى لجرمانيكوس احدى حوادث الماضى الجليلة التى تخص بلده وليس ببعيد أن يكون قد قرأها على احد جدران المعبد أو عثر عليها فى قرطاس قديم ٠

ويجب أن نقرر فى ختام القول أن التاريخ لم يكن علما يهم الكهان أن يمارسوه ٠ فلم تكن واجبـاتهم الدينية تقتضيهم معرفة دقيقة بأحداث الماضى ٠ ومع أنهم لم يضطلعوا بأبحاث هامة فى هذا المجال ؛ الا أنهم كانوا يستطيعون ـ أكثر من غيرهم فى مصر ـ أن يحيوا بعض ماضيهم البعيد وأن يمثلوا بعض صوره للمشغوفين من الســائلين ٠ وكان مما يســاعدهم على ذلك معرفتهم الكتابات الهيراطيقية والهيروغليفية ، ودرايتهم بالنصوص القديمة واطلاعهم على الاثبات الخاصة باسماء الملوك المنقوشة كلها أو بعضـــها فى معابدهم ٠ وأخيرا شغفهم بالالماح الى ما يظنون أنه قد ييسر عليهم يوما ما التكهن بأمور المســـتقبل أو ضـــبط ادراكهم للظواهر الطبيعية ٠

الجغرافيـــا :

وعلى العكس حظت الجغرافيا لديهم بمكانة خاصة ٠ ألم يكن على مفسر النصوص منهم معرفة « تركيب الكون والجغرافيا ٠٠٠ ثم طوبوغرافية مصر ووصف النيل » ؟ ولم تكن هذه من التقـافة القاصرة على الأوساط الكهنوتية ، فلدينـــا من الوثائق ما يبين الأهمية الكبرى التى كان يعلقهـــا الكتبة والاداريون على المعرفة العملية لبلادهم ٠ فالخرائط (مثل تلك الخاصة بمنطقة المنـاجم بوادى فواخير بين النيل والبحر الأحمر ، أو تلك التى تحدد منطقة الجبلين ولو أنها للأسف فى حالة سيئة) ٠ وهناك ثبت بأسماء

المدن مبينة من الجنوب الى الشمال ومسارد للأملاك الكهنونية (بقرطاس هاريس) ، أو مساحة الأملاك العامة (قرطاس ويلبور) ، كل أولئك يشهد على معلومات قيمة • ونحن نعرف كذلك أن مستويات الفيضان كانت تحدد بعلامات يؤشر بهـا فى أماكن مختلفة : « حين كان ماء النيل يرتفع اربعة عشر ذراعا كان معنى ذلك أن الفيضان قد بلغ مداه • وكان القوم يأملون الوصول الى أوفر محصول • وعلى العكس كان الجدب واقعا لامحالة حين لايبلغ ارتفاع الفيض أكثر من ثماني أذرع » (سترابو) • ومن أجل هذا وضعت مقاييس للنيل في أماكن محددة على شاطىء النهر يمكن بوساطتها تحديد ارتفاع منسوب الميـاه فى تاريخ معين • ورصيف المدخل الى معبد الكرنك مغطى بتلك النقوش التى تبين مستويات الفيضان في سنة ما من زمن ملك ما • وأخيرا كان المدى — كما تقدر المسافات والمساحات من مقاطعة الى أخرى — يضم بعضها الى بعض • والمزار الأبيض المعروف بمعبد الكرنك من زمان سنوسرت الأول يشمل قائمة مقاييس من هذا النوع •

والى جانب هذه الجغرافيا العملية التى كان الكهنة يقدرونها، وحسبهم من ذلك أن مناسيب مياه النيل ومساحة البلاد وابعادها قد كانت مسجلة على مبان دينية ، نقول الى جانب ذلك كانت توجد لمصر جغرافيا دينية ، وكان الكهنة يهتمون بها أكثر من غيرها• فمعرفة المدن والمسافات ومساحات الأرض السوداء الصالحة للزراعة شيء جميل ؛ ولكن أجمل من ذلك وأعظم قد كان معرفة توزيع الالهة فى البلاد ومراكز الأماكن المقدسة ومراكز الحج وأماكن رفات أوزيريس • ولدينا من ذلك اثبات بالأماكن المقدسة وسجلات بطقوس العبادة الخاصة باوزيريس ؛ ومن ذلك (قرطاس اللوفر رقم ٣٠٧٩) وأخرى متصلة بعبادات الهات متساوية كتلك التى كشفت لنا عنها أوراد طيبة ثم توليف سائر ألوان العبادات الخاصة فى

أنحاء البلاد (انظر معبد أدفو) وسجلات لآثار أوزيريس المقدسة (رفاته) وكان ــ كما جاء في الأساطير ــ قد تمزق جسده ووريت أعضاؤه في أنحاء متفرقة من البلاد ·

وقد كان هنـــاك ما هو أهم من ذلك بكثير · فاذا كان من المعروف أن أرباب مصر قد تعـــددت فان أكثرها لم يحظ بصـــفة عالمية · يشـــير الى ذلك ما يغشى أسفل جدران المعابد من صور تمثل مواكب حملة القرابين ؛ يأتون من كل أقاليم الوادى فيقدمون ولاءهم ممثلا فيما يصنعون في ســـاحته من ألوان الخراج · وفي زمان الدولة القـــديمة نجد مثل هذه الصـــور تغمر جدران مصاطب السراة · ويتمثل ذلك في صـــور الضياع التى أوقفت محاصيلها على الوفاء بحاجة الخدمة الجنائزية الملكية · وعلى صفحات أبنيـــة المعابد من ذلك العهد نرى في بعض الأحيان تمثيلا لهذه الظاهرة (ظاهرة الولاء) في صور للنيل على هيئة آدمى (١) يحمـــل على رأسه رمز الاقليم وعلى يديه بعض ما ينتج الاقليم من غلات وثمار وهناك صور تمثل الحقول في هيئة أناث يحملن غلاتها · ولم تلبث تلك المناظر حتى أضحت صـــورة رمزية تمثل ولاء مصر كلها وهى تقدم ما ينبغى عليها من خراج ، تفعل ذلك في تلك الصور التى تتقدم فيهـــا الأقاليم بصفتها الادارية أو الدينية ممثلة في هيئة النيل سالفة الذكر ، وكانت صور الهدايا أو الخراج انما تمثـــل طبيعة المكان التى ترد منه ، فمنها ما هو صناعى ومنها ما هو زراعى ومنها ما يعيش أهله على التجارة يمارسونها بدلا مع البلاد المجاورة ومنها المناطق التى تمارس العمل في المناجم · ومن ذلك نرى في تلك الصور حقيقة من حقائق الحياة المصرية ·

---

(١) صورة آدمى لاهو بالذكر الخالص ولا هو بالأنثى الخالصة ولكنه شىء بين بين ·

وكثيرا ما كان يغلب اللون الدينى الصرف على تلك البيانات، فلا نرى فيها سوى أسـماء الأماكن أو المعبودات التى تعبد فى عواصمها • وسرعان ما كانت تئول تلك البيانات الى موضـوعات جغرافية دينية • ولعل أشهر تلك البيانات أن يكون ما صور فى قدس معبد ادفو ؛ فهى انما تقدم لنا فهرسـا واضـحا للأقاليم على نحو يرضى ويفيد • مثال ذلك :

اسم الاقليم ، اسم عاصمته ، بيانا بمخلفاته •

الاله والالهة اللذان يعبدان فيه ومكان عبادتهما •

اسم الكاهن الرسمى واسم الكاهنة العازفة •

اسم الزورق المقدس واسم القناة التى يجرى عليها •

اسم الشجرة المقدسة التى تنمو على التل الطاهر •

تاريخ الأعياد الرئيسية •

المحرمات الدينية (فعل كذا أو كذا أو أكل شىء معين) •

اسم الجزء من النيل الذى يشق الاقليم مصورا كحية تنثعب•

اسم أراضى الفلاحة (البلاد الزراعية) •

اسم الحدود (بلادا كانت أو مستنقعات) •

ان هذا السجل ــ الذى يردد أسـماء الاقاليم المصرية الاثنين والاربعين ، والذى تؤيده السجلات المـماثلة للأقاليم الزراعيـة وللمستنقعات ، ــ يتيح معرفة كافية لجغرافية البلاد الرئيسية كما يفهمها الكهنة •

ولكن هذه القوائم كما نبدو لنا بكل هـذه التفـاصيل وكل هذا التنسيق ليست سوى ملخصات • والمجموعات ضخمة مختلفة يؤسفنا ألا نعلم عنهـا كثيرا • وبين مختلف الآثار ما يدعونا الى

الاعتقاد بوجـــود بيان في كل اقليم على الاقل باحصاء مفصل بكل أماكن العبادة والمعابد وأسماء الاماكن ، ولـــكل الادوات المقدسة لهذه الاماكن ، والاســـاطير المتصلة بكل نواحي الاقليم ثم الاعياد وغلات الاراضى المختلفة • وقد وصلت الينا وثيقة من هذا النوع فى القرطاس المعروف باسم قرطاس جوميـــلاك من متحف اللوفر فيها عرض مفصل للجغرافيا الدينية والاساطير المتصلة بحيـــاة الاقليم الثامن عشر من أقاليم مصر العليا • وليس من شـــك فى أن جرائد الأسماء المقدسة المنقوشة فى أحد المخابىء الموجودة تحت بناء معبد دندرة قد استمدت من كتاب مشابه كان مخصصا لاقليم دندرة • وفى نقش على بقية من أثر حجرى عثر عليه فى مصر السفلى ، بعض بيانات عن محاصيل الاقليم الثالث من أقاليم الدلتا • وعلى قرطاس من آثار تانيس عرض لبيانات جغرافية موضحة بنفس الطريقة • وكل ذلك فضلا عن ان قدسا بمعبد هيبيس يحتوى على آثار مكومة لآلهة البلاد مصنفة حسب الاقسام الجغرافية •

وانا لنذكر أخيرا أن كل شيء يشير الى أن « لوحة المجاعة » التى سبق أن تحدثنا عن بعض أجزائها تمثل فصـــولا من الكتاب المخصص للجغرافيا الدينية لاقليم الفيلة وانا لنـــذكر بعض أجزاء منهـــا :

« والتماسا للخلاص من المجاعة التى امتحنت بها البلاد سبع سنوات أرسل الملك كاهنا يسترشد بمحفوظات الاشمونين • فقدم اليه الكاهن بعد عودته تقريرا مفصلا لكل ما تمكن من معرفته فى منطقة الشلال • حيث وجدت بيانات عن الاشياء الآتية :ـ وصف الفيلة وتعداد لأسمائها الأسطورية ، النيل والفيضان ، الاله «خنوم» صفاته وألقابه ، المنطقة المجاورة ، جبال مفتوحة للمحاجر ، بيـــان بالآلهة الموجودة بمعبد خنوم ، أســـماء الاحجار التى يمكن العثور عليها فى المنطقة » • يقع كل ذلك كما لو كان الكاهن الرسول قد

عثر فى مكتبة الاشـــمونين على مؤلف كامل عن الاقليم الاول من أقاليم مصر العليا ، فاستخلص منه ما استخلص فى سهولة ويسر • وعلى هذا ولنا أن نظن ـ بناء على م ذكرنا ـ أنه لم يكن لكل اقليم سجل تفصيلى لجغرافيته الاسطورية ومحصولاته المختلفة وحسب ، بل له فوق ذلك مجموعة خاصة كاملة من تلك المؤلفات فى أشـهر المكتبات وهى مكتبة الاشمونين • ومنذ انشاء مثل هذه المحفوظات ، اتقنت القوائم الجغرافية التى كانت تزين جدران المعابد الكبيرة • ومن المؤكد أن معرفة الكهان بالبـلاد الأجنبية عن مصر كانت أقل تفصيلا وأقل دقة • فالنصوص المقـــدسة كثيرا ما كانت تستعمل أسماء شعوب تقليدية • فتعين مثلا تحت اسم «الاقواس التسعة» المناطق المعروفة فى دين المصريين بدون أن تحاول معـــرفة ما اذا كانت الشعوب المشـــار اليهـــا هنا ما زالت قائمة بنفس الاسم المستعمل وفى نفس المكان المعين كمـــا كان الحال فى العهود البعيدة التى أعدت فيها تلك القوائم •

ومن ذلك نقـــع فى معبد ادفو الذى يرجع عهده الى القرن الأول ق.م. على اسماء شعوب عاشت فى زمان رمسيس الثالث أى قبل ذلك بالف عام • حسبنا لنحس اثر ذلك ان نتصور قسيسا من أهل القرن العشرين ينصح مريديه فيدعوهم الى الاحتراس من شعوب الهون(١) وشعوب جرمانيا وشعوب القوطيين الشماليين !! والى جانب هذا التناقض الذى اقتضاه الحرص الشديد على التقاليد نجد لدينا من الوثائق ما يبين أن فى أوساط اللاهوتيين من كانوا على معرفة جغرافية بجيرانهم جديرة بالتقدير • فقوائم البلاد والمدن التى هزمها امنحتب الثالث ورمسيس الثـانى وششنق الاول فى

---

(١) شعوب الهون بربرية جاءت من وسط آسيا وخربت تحت قيادة « اتلا » أوربا فى القرن الخامس • (المترجمة)

آسيا وبلاد النوبة تغطي جـدرانا كاملة من أبنية معـــابد الكرنك والاقصر العظيمة ، كما أنها مبينة بطريقة طريفة على قواعد التماثيل الملكية الهائلة التى كانت تزين مداخل المعابد · ويجب ألا ننسى أنه من المرجح أن المرشد الطيبى العجوز قـد قام بترجمة احدى تلك القوائم لجرمانيكوس · وبنفس الأسلوب الذى يجرى به تصوير مواكب الاقاليم المتجهة من أقصى المعبد الى مدخل قدس الاقداس كان يجرى تصوير أقاليم مبينة بلاد أفريقيا وآســيا التى تجلب منها كرائم الاحجار ونفائس المعادن التى تزخر بها خزائن الاله · وقد احتفظت معابد ادفو ودندرة بصفة خاصة بقـوائم طريفة من هذا النوع ·

ولدينا أخيرا من النصوص المنفرة المثيرة كثرة وفيرة تزيد فى ثروة معارفنا ؛ فنحن نعرف أن المصريين كانوا ينقشون على الاوانى وتماثيل الاسرى أسماء الشيوخ الاسيويين والامراء النوبيين الذين كانوا يعتبرونهم من الخطرين على بلادهم · وقد كانوا يعمدون الى هذه الأوانى والدمى فيهشمونها ، أو يجـــرون عليها من أعمـــال السحر ما يتوهمون أن تودى بأولئك الأعـداء الى الفناء ، أو تردهم عن مصر على الأقل · وهكذا كانت تلك الاثباتات التى ترجع عهودها الى زمان الدولة الوسطى تشهد بمعرفة المصريين الواسعة بالجغرافيا وبأسماء الاعلام الأسيوية والنوبية فى آن معا ·

واذا كنا لم نعثر حتى الآن على التماثيل السحرية الصغيرة ـ المشار اليها فى المعابد ـ فاننا نعرف من النصــــوص ومن المناظر المنقوشة أن الكهنة قد كانوا يحفظون بتماثيل من هذا النوع فى مبانيهم المقدسة ، وانهم كانوا يجرون عليها بعض طقوس سحرية · وحسبنا من ذلك أن نقع فى نقش بمكتبة معبد ادفو على صورة تمثل كاهنا ممسكا بعصى قد التف حولها مجموعة من مثل هذه التماثيل الصغيرة · واذا لم يكن من الثابت أن ما لدينا من تلك التماثيل قد

صنعت فى المعابد فحسبنا أن نعرف على الاقـــل أن الكهنة كانوا يستعملون تماثيل صغيرة مماثلة • وليس من المستبعد اذن أن تكون المعلومات الجغرافية التى وردت فى النصوص السحرية قـد جعلها رجال الكهنوت قسمة شائعة لقضاء أغراض شتى •

الفـــلك :

اذا كنا قد استطعنا أن نرسم بيانا واضحا لما كان لرجال الكهنوت من معرفة فى مجال المعلومات التاريخية والجغرافية ، فانه لن يتيسر لنا أن نعرف فى دقة مقدار ما كان لهم من معارف فى مجال الفلك والهندسة ؛ فهذان النظامان يخرجان قليلا عن الاطار المعتاد للعلوم الانسانية ولا يمكن ان يعالجا بأسلوب مناسب الا بين أيدى متخصصين يستطيع صاحب الدراسات المصرية القـديمة أن يطمئن الى رأيهم ، وأن يتقبله عن رضا وعرفان بالجميل • والمتخصصون ـ مع الاسف ـ يختلفون فى الرأى • بحيث يصـبح من العسير أن نأخذ برأى أحدهم • ونحب أن نقول فى نهاية الامر : ان تلك الآراء البعيدة عن الصواب ، فى شأن علوم الفلك فى مصر ومعارف الكهان عن علوم الهندسة ، كانت ولا تزال تكتب بأيدى طائفة من الذين تخصصوا فى تبسيط الأمور ، وكان لهم جمهور من القراء سـطحى الادراك • نعم كانت تظهر على أيدى من ذكرنا أكثر مما كانت تظهر على أيدى طبقات العلماء الذين اقتضاهم حرصهم الشديد فيما يبدون وفيما يرون التحفظ الشديد حين تضطرهم بحـــوثهم العلمية أن يمسوا هذين العلمين •

والواقع أن شواهد الامور كافة تبين أن المصريين قد وصلوا فى بعض المجالات الفلكية الى نتائج ملحوظة • ألسنا الى اليوم ـ فيما عدا بعض تفصيلات بسيطة جدا ـ نســتخدم نفس التقويم الذى ابتدعوه فنجعل السنة كما جعلوها اثنى عشر شهرا ونجعل

ساعات اليوم أربعا وعشرين ؟ وناحية أخرى ينبغي أن نذكرها وهي اعجاب الرحالة الاغريق واجماعهم على هـذا الاعجاب بما رأوا من مظاهر المعارف المصرية في هذا المجـال بالاضافة الى العدد الذى لا يستهان به من الوثائق الفلكية التي عثر عليهـا فى مصر ، كل أولئك من شأنه أن يبين الاهتمام الذى أبداه المصريون القدماء بأمور السماء وعالمها واتساع الأبحاث التي أفردوها لذلك . ترى ما الذى نستطيع ان نقوله في شيء من الدقة عن معلوماتهم الفلكية ؟ وأى قيمة ينبغى لنا اعطاؤها للنتائج التي استطاعوا الوصول اليها ؟

ينبغي أن نعرف - ان نحن صدقنا « كليمانت السكندرى » - ان الكاهن الموكل بمراقبة التوقيب قد كان عليه أن يعرف ما باسفار أربعة وضعت فى نظام النجوم الثـابتة وحركات القمر والدرارى الخمسة والتقاء الشمس والقمر واضـاءتها ، وبمطلع الافـلاك . ولم يقف الامر عند هذا الحد فقد كان هناك كاهن آخر يتعمق فهم ما فى هذه الأسفار الأربعة تعمقا وافيا . تلك أدلة تؤكدها - ولو جزئيا - القوائم المصرية فى كتب اللاهوتيين التي تتضمن « معرفة الرجـوع الدورى للشمس والقمر » و « معرفة الرجـوع الدورى للكواكب » .

ولقد ميز المصريون فى السماء غـير الشمس والقمر كواكب لا تعرف الفتور ، منها مانسميه عطارد والزهرة (« نجمة المساء ونجمة الصباح ») ثم المريخ (« الحورس الاحمر ») والمشـترى (« النجم الثاقب ») وأخيرا زحل (« حورس الثور ») . وهم قـد جعلوا هذه النجوم في بروج (تختلف عن بروجنا التي استمدت من البابليين) ومن العسير معرفتها ، وان كان قد أمكن التعرف على الدب الاكبر (فخذ الثور) والبجعة (في صورة الرجل ذى الذراعين المفتوحتين) والجوزاء (في صورة رجل يعـدو وهو ينظر من فـوق منكبيه)

والكاسيوبيا(١) (فى صورة آدمى ممدود الذراعين) والحوت والثريا والعقرب والحمل · وكان النجم الابرق وهو المعروف عند العرب باسم الشعرى اليمانية ذا دور كبير فى حساب الزمن لديهم ؛ فقد كان شروقه الشمسى محددا للسنة الحقيقية ، (= بمدى يبلغ من الايام ٣٦٥ يوما وربع يوم) · وقد صورت هذه البروج بأشكالها المألوفة فى سقوف بعض القبور وحيث كانت قبوانها تزين عادة بأشكال النجوم المألوفة فى الدوائر الفلكية التى ألفوها لدى الاغريق فى أواخر عصور حضارتهم · وقد كان فى معبد دندرة(٢) مثلا احدى هذه الدوائر الفلكية التى تصور السماء تموج بصور البروج المصرية فى أشكالها التقليدية وكواكبها السيارة وما يليها من العلامات التى استمدت وأضيفت للأسلوب النيلى - بصور البروج الاثنى عشر ثم مناطق البروج الست والثلاثين ·

وكانت هذه المناطق الفلكية - على العكس من رموز منطقة البروج المستمدة من اليونان - معروفة فى مصر منذ زمن بعيد جدا وهى التى قسمت منطقة السماء المجاورة لسمت الشمس الى ستة وثلاثين قسما على كل منها حارس من الأرواح يرعاها ، كل يهيمن على عشرة أيام من أيام السنة المصرية · فلقد كان يقع كل عشرة أيام شروق كوكبة فلكية جديدة يلحظ عند مرورها بسمت الشمس، وقد مكن نظام هذا الشروق ومراقبة وقت ظهوره أثناء الليل من وضع جدول يبين مواعيده شروق تلك الكوكبات وتحديده · وكان مدى صلاحية استخدام هذه الجداول يمتد خمسة عشر يوما · واليها يرجع الفضل فى تمكين القابع فى شرفة المعبد لمراقبة سير

---

(١) نجمة الكاسيوبيا كانت امرأة تحولت تبعا للأساطير الاغريقية الى نجمة بعد مماتها · (المترجمة)

(٢) نقلت الدائرة الأصلية الى فرنسا أيام الحملة الفرنسية واستقرت فى متحف اللوفر ووضعت مكانها صورة لها · (المترجمة)

النجوم وتحركاتها من حسبان ما بقي من ساعات الليل كلما مر في محور النظر هذا النجم أو ذاك ٠

ويستطيع من يتأمل ، ما رسم المصريون من صور السماء فى سقوف بعض مقابر الملوك أن يتخيل أن ذلك العمل قد كان يقتضى وجود شخصين يتخذان مجلسهما على طرفى محور يمتد من الشمال الى الجنوب؛ فيقبع أحدهما متربعا كما نرى فى هيئة بعض التماثيل، ليكون مجلسه من زميله ــ الذى يقوم بتسجيل مرور النجوم ــ بمثابة الشاخص الذى يستخدمه رجال الهندسة المساحية فى تسجيل أعمالهم ٠ وهكذا كانت الساعات فى اليوم السادس عشر من شهر «هاتور» تحدد كالآتى : «عندما تكون النجمة «سار» فوق العين اليمنى (للرجل الذى يجلس مكان الشاخص) تكون الساعة قد بلغت الخامسة ٠ وعندما تكون ذراع الجوزاء فوق الوسط تكون الساعة قد بلغت السادسة ٠ وعندما يكون موقع الجوزاء فوق ناظر العين اليسرى تكون الساعة قد بلغت السابعة ٠ وعندما تكون الشعرى فوق مرأى العين اليسرى تكون الثامنة ٠٠ وهلم جرا » ٠ ومن السهل أن ندرك بطبيعة الحال أن مثل هذا الفن لتحديد الوقت قد كان من شأنه أن يؤدى الى عدم الدقة بشكل ملحوظ ٠ الا أنه لم يكن فى الاستطاعة الاهتداء الى أسلوب آلى لتحديد الوقت ؛ وآية ذلك فى الواقع أن الساعة لم تكن لدى المصريين جزءا من أربع وعشرين جزءا من اليوم الفلكى المألوف ، بل كانت جزءا من اثنى عشر جزءا من المدى الفعلى للنهار ومثله من مدى الليل ٠ ويمكن بتعبير آخر أن نقول ان مدى الساعة قد كان يختلف من يوم ليوم ، ويختلف بعد ذلك تبعا لخطوط العرض الجغرافية ٠ ومن هنا كانت قراءة الوقت فى كل من المزولة والساعة المائية تختلف باختلاف طول السنة وأوقاتها ٠ ولقد عثر كذلك على جداول لتحديد مدى النهار ومدى الليل خلال أوقات السنة المختلفة واستعملت احداها فى

معبد «تانيس» • ولم يكن فحص تقاويمها مستحيلا ولكنها وجدت مليئة بأخطاء جسيمة •

ولقد كان للكهنة بالسماء معرفة تطبيقية أتاحت لهم فى سهولة ويسر تحديد ساعات الاحتفال المرسومة وتقسيم مراحل العبادة المختلفة بطريقة حاسمة ! كما كان لتلك المعرفة دورها الهام فى تحديد الجهات الأصلية الأربع التى نظموا بها توجيه عمائر دورهم ومنشآتهم الدينية • فلقد كان أساس البناء فى أى معبد يخطط وينفذ بعد الاسترشاد بمراقبة السماء •

كذلك عرف الكهان المصريون ظاهرة الخسوف وهى التقاء الشمس بالقمر • وقد جاء فى الخبر كيف أرعب الخسوف جنود الاسكندر وهم يحاربون الفرس من جنود «داريوس» ، وكيف استدعى أحد الكهان المصريين ليذهب عن قلوبهم الرعب (أنظر
(Curtins Rufus, Hist. d'Alexandre, IV, 10)

ثم انا نعرف بعد ذلك من بعض وثائق محدودة العدد، أن التنجيم وهو الاعتقاد فى تأثير مواقع النجوم على نفوس البشر وصلة ذلك بمصائرهم قد كان معروفا وقد ذاع هذا الاعتقاد ولقى كثيرا من الرواج فى أوساط المصريين وأن كانت ظواهر الأمور تدل على أن هذا الموضوع دخيل على مصر وغير أصيل فى تفكير أهلها ، وأنه ربما يكون قد جاءهم من آسيا فى ركاب الغزو الفارسى • وقد يؤيد هذا الظن ما تردد فى أسلوب تلك الوثائق من شذوذ غير معهود فى اللغة المصرية • فأما المذنبات من النجوم والتى كان يعتبر ظهورها من نذر الشؤم ، فيبدو أن معرفة المصريين بها لم تكن كافية (انظر
(Sénèque, Questions naturelles, II, 2).

وليس بين أيدينا من النصوص ما يشير الى ذكرها سوى واحد من عصر تحوتمس الثالث ، يذكر بمرور واحد من تلك المذنبات يحتمل أن يكون ما اسموه « هالى » .

الهندسة والعمارة :

قد يكون من أكثر الامور عسرا أن نحدد في دقة ما كان لكهان مصر من معرفة بالهندسة • واذا كانت التقاليد منذ القدم قد أطنبت في الأعجاب بمهارة الكهان المصريين في الهندسة وكفايتهم في المعرفة ، فاننا لم نعثر حتى الآن على كتاب أو أى وثيقة مصرية تستعرض فيها عناصر الهندسة التى كانوا يعرفونها . وليس في العدد القليل للقراطيس التى بين أيدينا ـ والتى سماها العلماء المحدثون « البرديات الرياضية » ـ غير ارشادات الى طرق الوصول الى حل بعض المسائل الحسابية أو الهندسية البسيطة ؛ وتلك أمور لا ترقى الى مستوى القواعد • وسائر الامثلة التى تعالجها تلك القراطيس الرياضية تكتنفها الحلول الاجتهادية أو التقريبية • وفي كل أولئك ما يدعو الى الظن ـ ان نحن أخذنا بما جاء في الوثائق المشار اليها ـ أن معلوماتهم الحسابية والهندسية لم تبلغ غير محاولات وأساليب غير كاملة النضج ، وكان الامر فيها يبلغ منتهاه عند المسائل العملية التى تواجه الكاتب أو المهندس • ويبدو كذلك أن الهندسة النظرية لم تكن لديهم بذات موضوع • والى القارىء من المسائل العويصة ثلاثا يضعها أحد الكتاب لزميل له ويطلب اليه حلها :

ـ كم لبنة تلزم لبناء جدار معينة مقاييسه ؟

ـ كم رجل يكفى لنقل مسلة بمقاييس معينة ؟

ـ كم رجل يلزم لتفريغ الرمل من مخزن غلال خلال وقت محدود ؟

كل أولئك لا يقتضى حله سوى حسابات بسيطة أو مجرد معلومات مستمدة من تجارب عملية سابقة ، فنقل المسلات كان أمرا شائعا في الدولة الحديثة كما أن طوائف العمال قد كان لديها

الوقت الكافى لتكوين نفسها بطريقة سليمة · ولقد كانت التماثيل وكتل الأحجار الثقيلة يتم نقلها بسواعد الرجال ، كما كان لدى الكتبة مخططات عملية للارشاد يمكن بوساطتها تحديد الايدى العاملة اللازمة لنقل الاشياء بعد ضبط مقاييسها ومعرفة أثقالها ·

وهكذا خيبت المصادر الادبية آمالنا فى الوصول الى معرفة ما التمسنا فيها · ترى كيف الحال اذا ما نحن انصرفنا عنها الى الآثار ؟

يشعرنا النظر الدقيق الى العمائر المشيدة كالأهرام ومبانى الصعيد الكبرى بالاطمئنان الى ما فى بنائها وتقاسيمها المعمارية الواضحة من ضبط مقاييسها وتحديد نسبها تحديدا دقيقا ، وانها لنسب تبدو بسيطة فى عناصرها عند النظر فيها . وليس هناك ما يشير الى الالغاز أو التعمية ما يمكن أن يجعلها من الاسرار ، كما يحب بعض الكتاب أن يؤكدوا · وتضمنت معارف الكهنة ــ كما جاء فى مكتبة معبد ادفو ــ أسلوبا لزخرفة الجدران · ويتضح لنا من مشروعات أبنية المعابد التى عثرنا عليها أن أسلوب الزخرفة لم يكن صارما ولا ثابتا ولا حتميا · فليس هناك معبدان متطابقان مطابقة تامة ، ولا مجموعتان من رسوم المناظر وصورها تجريان من جدار الى جدار يقابله دون تغيير أو تحوير · وعكس ذلك واضح فى نظام القاعات ؛ اذ هناك مبدأ عام ، ونظام ثابت فيما يختص بترتيب القاعات وزخرفتها · وأكبر الظن أن ما تضمنته الوثيقة المشار اليها لم يعد قواعد عامة · ومن الجائز أن تعتبر الترتيبات والنظم خاصة بمعبد معين ومتضمنة اسم قاعاته ومقاييسه والمبادىء الخاصة بأسسه وتفاصيل المناظر المنقوشة صورها به · وقد يكون من الجائز أن نصا من نصوص پتوزيريس يوحى بذلك وان كان معناه ــ مع الاسف ــ غير مؤكد (انظر النص رقم ٨١ ــ ٧٠ ــ ٥٩) ·

ومهمـــا يكن من أمر فأكبر الظن أنه كان بكل معبد مشروع بنائه وزخرفته مفصلا على قرطاس أو قرطاسين من البردى ومحفوظ بخزانة أو كوة فى الجدار ، على أننا لم نجد ـ مع الأســـف ـ ما يطابق تلك الوثائق حتى الآن ٠

اما من حيث النسب المتعلقة بالعناصر المعمارية ، فهى أبعـد ما تكون عن الثبات ٠ على أنه من الممكن العثور بطـائفة من رسوم تنظيمية قد يكشف عنها الرفـع المعمارى للواجهـــات أو الرسوم التخطيطية للعمـــائر المقـدسة ، وهى فى الاغلب الأعم غاية فى البساطة . وليس لها أسلوب معين ٠ وقد عثر على ما يثبت وجود تناسب بين ارتفاع العمود وقطره مهما اختلف أسلوبه المعمارى ٠

تلك حقائق يقتضيها تقليد فنى معمارى أكثر ممـا تقتضيها الرغبـــة فى تحديد النسب الدقيقة بين الأقيســـة فى المشروع التخطيطى للمعبد ٠ ترى هل يعنى ذلك استبعاد خضـوع تخطيط تلك العمائر المقدسة لنظرية هندسية ، وأن دراسة الآثار الدينية لا يمكن أن تظهرنا على شىء سوى مجرد كتل من الاحجـــار ركب بعضها فوق بعض ؟ كلا ٠ فبالرغم من ان الادوات التى كانت فى متناول رجال المعمار كانت أولية (ميزان خيط ومنلث ٠٠) فقد كان مستوى البناء يثير الاعجاب أحيانا ٠ اذ كان المهندســـــون يحصلون على الخط المستقيم فى أساس مبانيهم بحفر خندق الاساس حتى مستوى مياه الرشح أو عن طريق خلق مســـتوى صناعى فى حفرة نبطن بالطفل ، ثم ينقلون هذا المستوى الافقى على الجدران ٠ ويستمرون فى تنفيذ المستويات الأفقية نقلا عن المســتوى الذى يمدهم به مسطح السائل ٠ وابتداء من هذا الخط كانوا يستطيعون الحصول على مجموعات أفقية تماما من المداميك مهـما بلغ ارتفاع الجدران ٠ ولاتمام ذلك كانت المهارة الفنية والحرص يحلان بالطبع محل الالات الدقيقة التى يبدو انهم كانوا يفتقدونها . ونحن نعلم

ان معرفة الاتجاهات الاصلية قد كان لها دور وأثر كبير في اقامة مبانيهم المقدسة ، اذ ان انشاءكل بناء كان يبدأ بالنظر فى الكواكب ومراقبتها ، كما أنه عثر كذلك في كثير من الاحيان فوق بلاطات الأساسات الخاصة بمختلف القاعات على طائفة من خطوط تحدد محور البناء • ترى عن أى شيء كانت تعبر هذه الخطوط وما هى القواعد التى كانت تحكم اتجاهاتها ؟

وهذا واحد من الكتاب المحدثين يبدى أسفه – فى كتاب له أخرجه عن الاتجاهات الفلكية – من أن الرفع المعمارى فى أكثر العمائر الأثرية لم تراع فيه الدقة المطلوبة • كما يحذر من عاقبة المخاطرة فى سبيل الوصول الى نتائج مرضية عن طريق رسوم بيانية ناقصة ، ذلك لان ما تم فيه الرفع المعمارى من المبانى الاثرية – فى عناية جعلته لا يختلف عن الواقع – لا يعدو قلة ضئيلة لم تجاوز بعض مجموعات كبرى كما فى مدينة هابو والاقصر والكرنك تم اسنا وغيرها مما قدر لها أن تلقى عناية خاصة من رجال العمارة • فاما الكثرة المطلقة من آثار مصر فلم تراع العناية فى رفع مبانيها ؛ وانما تم ذلك فى سرعة خاطفة أو باجراء رسم شامل ، بحيث يصبح غير يسير – عند فحص مميزاتها المعمارية – استنباط قواعد ثابتة لتحديد اتجاهات تلك المبانى وتغيير محور كل منها • وهنا ينبغى أن نقدر ان أمر ذلك قد كان خاضعا لظروف محلية خاصة ليس من السهل أن يسرى عليها تفسير موحد •

ذلك ما أمكن فى نهاية الامر استنباطه من المصادر المصرية ؛ اذ يبدو من النصوص الرياضية التى خلفها المصريون بين أيدينا ان معلوماتهم الهندسية كانت محدودة • ومع ذلك فقد تبين من الدراسة الدقيقة لبعض المبانى الدينية انهم بلغوا الغاية من الكمال

الفني فضلا على الرغبة فى التعبير عن نوع من الانســـجام يتميز بنسبه البسيطة بين الكتل المعمارية ٠

الطب :

لم تشر كتب اللاهوت ولا سجل العلم المقـــدس الذى نقله الينا كليمانت السكندرى الى كتب فى الطب ٠ ولقد يبــــدو عند النظرة الاولى أن مثل هذا العلم قد كان غريبا على مجال العبادة ، كما أن الخدمة الدينية لم تكن فى حاجة الى استخدامه على الاطلاق٠ على أننا نعلم أن الطب كان يمارس فى بيوت الحياة (= دور العلم) وفي أحد المناظر المرسومة بمعبد «كوم امبو» ما يصــور طائفة من أدوات الجراحة ٠ كما وجدت بعض نصـــوص طبية فى المجموعة الهائلة من قراطيس البردى التى عثر بها فى معبــد «تبتونس» ، ذلك بالاضافة الى أن بعض ألقاب الكهنة تبين لنا مدى اشتراكهم فى بعض مجالات الطب ٠ ومن نصوص التخصص فى هــذا المجال كتلك التى جاءت فى القرطـاس المعـــروف باسم بردية « أدوين سميث فى الجراحة » ما يشهد بمعرفة وممارسة تشير الى ان عمق التفكير ، ولم يمنع ذلك من سيادة عقــائد ــ لا زالت منتشرة بين فلاحى الصعيد الى اليــوم(١) ــ بأن الامراض اذا لم تكن من فعل روح من أرواح الشر ، أو نفثة عدو حاسد ، أو عدوان شبح عائد فان مبعثها سخط المعبودة المرعبة « سخمة » ٠

ويكاد ابراء الجسد من علته يعتمد ــ فى عقيدة الشعب ــ على مطاردة روح الشر واجبـــاره على ترك الجسد باســـتخدام عزائم السحر أكثر من الاعتماد على علاج الجسد نفسه ٠ والرأى لديهم

---

(١) ليس الأمر قـاصرا على فلاحى الصعيد فحسب بل هو من الأمور المعروفة لدى فلاحى الصعيد ومصر السفلى على حد سواء ٠ (المترجمة)

أن أفضل العلاج وانجحه ما يتمثل في رقية تؤتى فعلها فورا وأنه لن يقدر على صياغتها سوى واحد من العرفان «الكهان المرتلين» الذين تخصصوا فى معرفة كتب السحر القديمة ، ومهروا فى القدرة على صياغة الرقية من كل عناصره ، حتى لا يبطل أثرها وتصبح نافذة المفعول . وهكذا نرى ان أولئك العرفاء قد كانوا يمارسون وظائف السحر فى القرية فوق تأدية أعمالهم فى المعبد .

ومن الكهان من كان أعمق تخصصا . فالمعبودة «سخمة» التى كانوا يصورونها فى هيئة اللبؤة ويتوهمون أنهـا مبعث العلل قد كان في مقدورها أن تبرىء منها أيضا . ومن أجل ذلك كان كبير كهانها من المرموقين لكثرة معارفه الطبية والمامه بما يصيب الحيوان من علل بحيث نستطيع أن نقرنه بالبيطار فى أيامنا هذه . كذلك كان كاهن المعبودة العقرب «سلقة» مؤهلا بصفة خاصة لعلاج الأمراض التى تنشأ من اللدغات السامة . ونرى آخر الامر أن الاشـخاص الذين كانوا يلتحقون بخدمة بعض المعبـودات التى عرفت بقدرتها على الأبراء من العلل مثل — « ايمحتب » الذى عرف فى العصـور المتأخرة عامة وفى أساطير الاغريق باسم «ايموثيس» بن «بتاح» — كانت معارفهم فى الطب غزيرة جدا بحيث اعتبروا من ذوى القدرة والكفاية فى الابراء من العلل . ولقد كانت للشعب فى « امنحتب ابن جابو » كبير البنائين فى بلاط امنحتب الثالث عقيدة راسخة فى قدرته الطبية لزمته طوال حياته ، واستغلها من بعده كهانه بحيث أصبحت موردا للربح والتجـارة وانتقلوا من معبـــدء الجنائزى حين أصابه الصدع واتخذوا من احـدى مزارات الدير البـحرى العلوية مستقرا لهم يستقبلون فيها المخلصين من رائديهم . وذاعت شهرته فى طرق علاج المرضى والمعجزات التى صـدرت عنه بحيث ازدحم مزاره بطوائف العاجزين من أنحـاء العالم أجمع ، وكانوا لا يغادرون المزار دون أن ينقشـوا على جدرانه ما يشير الى عللهم

وشفائهم منها • وقد وجدت في مصر مصحات نذكر منها على سبيل المثال ما كان في أبيدوس • كما كشفت البحوث أخيرا عن مصحة أخرى في دندرة ؛ كان المرضى يعالجون فيها بوسائل يختلط فيها السحر بالعلاج بالماء • ولكن ليس في الأمر ما يحملنا على الاعتقاد بأن الايمان وحده مؤيدا بالدعايو العلميو قد كان كافيـــا للأتيان بالمعجزات : فكهنة هذه المعبودات قد كانوا مزودين بمعارف طبية لها من القيمة ما يؤيد شـــهرة معبوداتهم أليس بكاف أن تنبئنا التقاليد أن «أبو قراط» ومن بعـــده «جاليا» قد استمدا بحوثهما الطبية من بعض الكتب المحفوظة في مكتبة معبد «ايمحتب» بمنف !

علم الحيوان :

يقول كليمانت السكندرى انه كان على الكاهن أن يكون عارفا بسمات الحيوان ؛ أى متخصصا فى معرفة الحيوان • أما عن حدود هذه المعرفة ومداها فيحدثنا هيرودوت الذى يقول : «فقبل التضحية بأحد الحيوانات كان لا بد أن يقرر كاهن متخصص أنه طاهر(١) • وكان الفحص يتم على النحو التالى : « اذا رؤى فى جسم الثورة شعرة سوداء واحدة فانه يعتبر غير طاهر • وكان يقوم بهذا الفحص مفتش معين فيفحصه واقفـــا وراقدا على أحـد جنبيه • ثم يخرج لسانه ليطمئن الى براءته من النجس •• ثم ينظر الى الذنب ليتأكد من أن شعره مرسل مرجل فاذا تبين خلو الحيـوان من أى عيب وســـمه بالطهارة وذلك بلف قرنه بلحاء البردى الذى يعقد لفه بقطعة من الطين مختومة بختم الكاهن المختص • وحينئذ يصـــبح الحيوان مقبولا • وعند النحر يكون الحيوان معرضا لخطر الاعدام اذا خلا من هذا الضمان •

---

(١) يعنى سليما مبرأ لاشية فيه • (المترجمة)

ومن المرجح أن سائر الحيوانات التى كانت تقدم قربانا ـ وكانت وفيرة من طير وسمك ومن المها والبقر ـ لابد أن تستوفى شروط الصحة والسلامة · ولا شك فى أن الكاهن البيطار قد كان يملك قوائم تامة بأنواع الحيوان المحرم فى سائر البلاد بحسب توزيعها الجغرافى الدينى ، وكانت كثيرة متعددة،ويستطيع الانسان أن يتبين ذلك من القائمة الذى مر ذكرها (صفحة ٣٦ ، ٣٧) فالتقويم الدينى بتانيس يتضمن معرفة المحرمات بين المعارف الضرورية لممارسة العبادة · وتلك خبرة لها أهميتها التى كانت تتجلى بوضوح فى أيام معدودات من أيام دور العبادة ، وذلك عند اختيار الحيوان المقدس · ومن ذلك ما كان يحصل أحيانا فى بعض المعابد مثل معبد ادفو ومعبد فيله ، اذ كان لابد من اختيار الحيوان ـ وكان صقرا ـ يختار للحلول (أى لحلول قدرة الاله) مرة كل عام · وفى أماكن أخرى ومنها منف مثلا،كان يتم اختيار الحيوان لمثل ذلك فيظل محتفظا بصفته تلك حتى يموت · وحيوان منف كان فحل البقر المعروف باسم «أبيس»؛فاذا ماتفق ضم رفاته محنطا الى رفات أسلافه فى القبر المعروف باسم «السيرابيوم» بسقارة · وهناك تتخذ اجراءات البحث فى البلاد كلها حتى يتم العثور على مايخلفه. وكانت شروط الاختيار المطلوب توافرها كثيرة : «كان يجب أن تلده بقرة لن تصلح بعد ولادته لحمل آخر » · وكان المصريون يزعمون أن رسالة من السماء تتجلى فى ومضة من برقها ثم تهبط تلك الومضة فتحمل بالعجل أبيس ، وكان الثور الصغير الذى يسمونه « ابيس » متميزا بالسمات الآتية : « كان أسود اللون وفى جبينه غرة مثلثة ، وعلى ظهره صورة نسر · وفى خصلات الشعر من ذنبه ازدواج ، وفى أسفل لسانه صورة جعل (انظر هيرودوت الجزء الثانى صفحة ٢٨) · ومن المرجح أن تلك السمات التى يشترط توافرها فى الحيوان المقدس قد تضمنتها قوائم سائر الحيوانات

المقدسة من أبيس منف الى كبش منديس الى ثور بوحيس والى تمساح الفيوم ثم الى مختلف الحيوانات التى لا يحصيها العد من تلك التى تختار لسبب أو لغيره · وكأنما أوحى الله باختيارها (راجع اسنا رقم ١٥٦ ، ١٩٠ ، ١٩١) ·

تعبير الرؤى :

تشير الاتبات الاغريقية التى تسرد مختلف هيئات التدريس بمدارس اللاهوت الى « معبر الرؤى »، ونحن نعلم كيف كان من المتبع فى العصور المتأخرة أن ينام التابعون فى المعبد على أمل أن يروا فيما يرى النائم ما ينذر باقتراب العلة وتحديد ما ينبغى عليهم أن يتبعوه أو أن يكشف لهم عن بعض ما يطالعهم به مستقبل حياتهم · هكذا فعل الساحر « حورس بن بانيش » كما جاء فى القصة المدونة بالقلم الديموطيقى والتى سبق أن أفدنا منها الكثير من المعلومات ، هكذا فعل عندما عجز عن معرفة الوسيلة التى يمكن أن يقى بها فرعون من فعل السحرة الانيوبيين · ولم يكن هناك من بد الى الالتجاء الى احد معبرى الرؤى حين لا تكون الرؤيا واضحة فى استطلاع المستقبل أو عندما يكون من الضرورى تعبير حلم ليل يبدو عند التفكير فيه غامضا · فنحن نذكر قصة يوسف وهو يتنبأ لفرعون بحلول السنوات الخضر السبع وما يتلوها من السبع العجاف · وقد عثر بين القراطيس التى وجدت فى جبانة طيبة على مجموعات فى تعبير الرؤى رتبت عناصرها على النحو التالى : عنوان عام : « اذا ما رأى أمرؤ نفسه فيما يرى النائم ·· » ثم يتلو ذلك فى سطرين عموديين « وهو يفعل هذا الشىء أو ذاك » ·· فهذا حسن (أو هذا سىء) ، وذلك يعنى أنه ·· والى القارىء بعض أمثلة مستخرجة من هذه المجموعات :

« اذا ما رأى امرؤ نفسه فيما يرى النائم »

يشرب نبيذا = حسن = (وتعبير ذلك) انه سيفتح فاه ليتكلم ·

جالسا فوق شجرة = حسن = (وتعبير ذلك) الانتصار على محنه جميعا ·

يذبح بطه = حسن = (وتعبير ذلك) قتل أعدائه ·

يزور بوزيريس = حسن = (وتعبير ذلك) يبلغ عمرا مديدا ·

ناظرا فى جب عميق = سيء = (وتعبير ذلك) وضعه فى السجن ·

محترقا = سيء = (وتعبير ذلك) أن مصيره القتل ·

يرى قزما = سيء = (وتعبير ذلك) ضياع نصف عمره ·· الخ ·

هذه المجموعة ترجع الى أيام الدولة الحديثة · ولدينا من العصر المتأخر مجموعة تشبهها من التفاسير · ومن ذلك نتبين أن ممارسة هذا العمل قد عاشت طويلا ولم تندثر ، كما ظلت طبيعة الرؤى وأساليبها مطابقة لما نقدمها بشكل ملحوظ · وكان هذا اللون من « المعرفة » وقفا على الكهان · وحسبنا دليلا على ذلك أن السحرة الذين استدعوا لتعبير رؤيا فرعون قد نعتوا فى الترجمة القبطية لسفر التكوين (٤١ ، ٨ و ٢٤) ب « كتبة بيت الحياة » (أى العاملون فى دار العلم) ·

السحر :

قد يبدو غريبا أن يوضع السحر ضمن معارف الكهان · ولكن معرفة الصيغ السحرية الكاملة ـ فى رأى الكهان أنفسهم ـ قد أمدتهم بقدرة على الأحياء والأرباب وقوى الطبيعة لا تكاد تحد·وكان

الساحر رجلا له خطره مقداما لا يتراجع أمام أعظم الأمور الجديرة بالمشاهدة ؛ فمن ذلك مثلا قول الساحر : « سوف أميد بالأرض الى الغمر ولسوف يصير الجنوب شمالا وتنعكس الأرض » ··

والواقع أن أطماعهم فى تحقيق نتائج السحر كانت من الناحية العملية أكثر تواضعا عما ذكرنا ، وان كانت النتائج المرجوة من أعمال السحر قد كان لها حظها الكبير من التقدير ؛ فالنظام الرائع الذى أخذت به الالهة هذا العالم قد كان يقع دائمـــا تحت خطر التهديد بثورة القوى المعادية وأعمال الجن وأرواح الموتى المنحرفة وقوى الشر الغامضـــة · وكانت ذوات الآلهة كامنة فى تماثيلها المندسة فى أخفى أماكن المعبد ثم فى صورها المنبثة على طـــول جدرانه · غير أن هذه القوة الالهية قد كانت تتناقص بالتدريج حتى تضمحل وتوشك على الزوال بحيث يصبح من الضرورى أن تشحن التماثيل كل عام بالقوة من جديد · وكان فى اقتراب القوى الغامضة خطر يهدد الأله الذى يعيش فى معبده تهديداً مباشرا · ومن أجل ذلك كان التوسل بالرقى والتعاويذ السحرية انما يهدف الى ابعاد الشياطين عن المعبد · وهناك من الاثبات ما يسرد لنا طوائف من « الكتب الخاصة بالقبض على الأشرار من الرجال وحماية الملك فى قصره » ــ وقد كان فى حاجة دائمة الى ذلك ــ · فنحن نذكر ما يقال عن أعمال السحر الأثيوبية ــ التى كان يقصد منها الانهيال عليـــه بالضرب الشـــديد أثنـــاء نومه ــ ، و « الكتب الخاصة برد العين الحاسدة » ·· وقد عثر خلال أعمال التنقيب على طوائف من أمثال هذه الكتب الدينية ككتاب صرع أبوفيس عـــدو رع وأوزيريس والطقوس الخاصة بردع « ست » وأتباعه ، وبابعاد الغاضب ، ثم الطقوس المعروفة الخاصـــة « بالصيد بالشباك والخاصـــة بتحطيم الآنية الحمراء » كانت من أعمال السحر التى توضع فى خدمة الملك ودولته ·

هكذا كان المظهر الرسمى فى ممارسة أعمال السحر • على أن الآلهـــة لم تكن وحـدها تفيد منها ؛ فالكاهن المرتل كان معلما بارعا فى شئون السحر والرقى ، وكان يمارس فى حياته المدنية مهنة طارد الجن كما ، كان يحرر الرقاع الخاصة بالشفاء من الحمى ولدغ العقرب ومختلف الأمراض • كما يقوم فى بعض الأحيان بأعمـال السحر الخاصة بأمور الحب والتى تهدف فى الغالب الى محو ما بقى من الوساوس فى قلب الغادة بصرف النظر عن اختيـار العـذب الرقيق من اللفظ « اجعل فلانة تتبعنى كما يتبع الثور علفه ، وكما تتبع الخادمة أطفالها وكما يتبع الراعى قطيعه » • فأما الحسـناء فقد كانت لديها تميمة تتضمن عملا غامضا : « هيا قيدى هـــذا الذى أنظر اليه حتى يصير حبيبى » •

والواقع أن مجال السحر كان كبيرا كما كانت وسائلهعديدة لا تكاد تحد • نذكر من ذلك على الأقل مجالين يحوطهمـــا شىء من الغرابة ، ويعد كهان مصر فيهما من كبار الأسـاتذة ، فأما أولهما فيعد مما يثير الدهشة لدى كل من يعرف مناخ مصر وزرقة سمائها الدائمة ، ونقصد اسقاط المطر • فبين الوثائق ما يؤكد الاعتقـاد بأنه كان فى مقدور الكهان عن طريق التعاويذ السحرية أن يثيروا زوبعة ممطرة • ويؤيد ذلك ما ورد فى قصة الحرب التى نجا منها الجيش الرومانى بقيادة « ماركوس أوريلوس » من كارثة محققة وذلك عن طريق الأمطار التى انهمرت بمعجزة على يد «حارنوفيس» أحد مفسرى النصوص المقدسة فى مصر • وأما الثانى فكان يقـع عن طريق التنجيم بوساطة اناء مملوء بالماء ، من فوقه طبقة رقيقة من زيت ، ويركع أمام الاناء وسيط من الأطفال يأمره الساحر بان يفتح عينيه على ما فى الآناء ، حتى اذا ما لاح له ضوء على سـطح الزيت كان ذلك آية على أن الاتصال بالآلهة قد تم وبذلك يكشف المستقبل عن اسراره الواحد تلو الآخـر .

العقاقير والصيدلة :

ومن الممكن أن نضم الى معارف الكهنة معرفة العقاقير وصفاتها برغم ما كانت تقتضى صناعتها من أساليب فنية لها طابع خاص. وفى الحقيقة أن خزانة الكتب فى معبد ادفو تشير الى أنها كانت تضم كتابا فى معرفة كل أسرار المعمل : أى المقادير التى كانت تقتضيها صناعة المراهم والدهون والعطور التى تسبب الخدر والدوار والتى كان يستمتع بها الأرباب. ولم تخل المعابد فى بعض الأحايين من معامل صغيرة تستخدم مخازن للمواد زكية الرائحة (مثل معبد الكرنك من الأسرة الثامنة عشرة ومعبد اسنا من العصر الرومانى) . كما كانت فى معبد ادفو قاعة مبنية من الحجر سموها « المعمل » وانتشرت على جدرانها عبارات النقش الهيروغليفى نصف طريقة اعداد مختلف العطور المستخدمة فى الطقوس الدينية من عناصرها الأساسية ومقدار النسب فى خلط المواد ومدة طهيها وتبريدها .. الخ . وتبين احدى هذه العبارات فى تفصيل خاص كيفية اعداد نصف لتر من مستخرج الاصطرك البين الصفاء .

ولتحضير ذلك يجب توافر العناصر الآتية :

عصارة الخروب	٥٧٥ر. من اللتر
بخور جاف من الدرجة الأولى	١٠١٠ جرامات
قشر اصطرك (١) من الدرجة الأولى	٦٠٠ جرام
يراع طيب الرائحة	٢٥ جراما

---

(١) الاصطرك بلسم يتخذ من القشرة الباطنية فى شجرة الميعة السائلة أو شجرة الاصطرك أو الصمغ الشرقى الحلو (انظر قاموس الدكتور محمد شرف فى العلوم الطبية والطبيعية . (المترجمة)

أسفلت (١) (خشب عليق سكوباريوس)	١٠	جرامات
مصطكى (٢) صمغ شجرة السرو الفستقى	١٠	جرامات
بذر زهرة البنفسج (؟)	١٥	جراما
نبيذ معتق	٥ر.	من اللتر
ماء	...	

ومن المواد التى كان يقتضى تحضيرها ان تمر بمراحل ثمان من مختلف العمليات من مزج وطهى وتصفية المواد من اناء الى آخر فى مدى ثمانين ومائة يوم ، دهان التجميل • كما كان تحضير العطور الدقيقة التى كانت ترش بها تماثيل الأرباب خلال الطقوس تقتضى دقة وصبرا طويلا . ترى هل كان مثل هذا العمل يستحق طول التعب والارهاق هذا المدى الطويل ؟ ذلك شىء لا نستطيع الجزم به مع الأسف .

الأدب :

مر بنا منذ بدأنا الحديث عن التاريخ ذكر كثير من مختلف العلوم والجغرافيا والفلك والهندسة والطب والسحر حتى انتهينا الى عالم العقاقير • وقد بان لنا خلال ذلك مدى ما كانت تتسع له مجالات العلوم اللاهوتية ، ومدى تنوعها• وتبينا أن بعض هذه العلوم وأساليب المعرفة الفنية من عمل اخصائيين • فالكاهن ـ وقد بينا كثرة ما ينطوى تحت وظيفته من المعارف والخبرات كان قادرا ـ بحكم الدور الذى كان يضطلع به فى مجال العبادة ـ على التصرف

---

(١) الأسفلت مادة قارية صلبة • يقال أنه مستخرج من مواد نباتيه (انظر نفس المرجع السابق) • (المترجمة)

(٢) مصطكى أو مصطكا وهى ما يسميها العامة المستكه . (المترجمة)

فى أسس هذه العلوم وعناصرها • ونستطيع أن تؤكد أن قله من هؤلاء كانوا يفاخرون بامتلاك ناصية هذه العلوم ، على أن مبدأ التخصص فى تلك المعارف ـ وان كان لا يحتمل الشك ـ لم يمنع من أن يرتبط الكهان بعضهم ببعض برباط أقوى من مجرد النظر الى مظهــر الوظيفة من حيث التخصص فيها ؛ ففوق ما كان يميز بينهم من التخصص العملى ، كان هناك نوع من الثقافة العامة بين دينية وفكرية شارك فيها سائر الكهان أو الطبقات العليـا منهم على الأقل • وتلك الثقــافة الكهنوتية قد كانت ثقافة مرموقة برغم عموميتها ؛ فهى قد كانت جماع اهتمام مشترك وتأملات فى النظر الى المشكلات الفلسفية والدينية ومن حصيلة الاطلاع على النصوص القديمة • كل ذلك بالاضافة الى سائر النظم التى سبق أن عرضنا لها • وقد كان شعور الكهان بانتمائهم الى هيئة ممتازة قيمة على التقاليد وقادرة على تفسيرها مما ساعد على تكوين هــذه الثقافة وبقائها • ولقد زودت هذه الثقافة من كانوا يفيدون منها ـ على الأقل ـ بالرغبة الشديدة فى الاطلاع المتصــل • ونستطيع أن نتصور بعد ذلك أن الاهتمام بالآداب لم يكن غريبا على العاملين فى مجال العبادة • حقيقة أن خزانات الكتب فى المعبد لم تكن تضم غير كتب الدين ، وحقيقة أن العامل مثلا لا يستطيع أن يحمل الى مصنعه قصة حب يستمتع بقراءتها ، ولكن الكهــان بعد انتهــاء ساعات الخدمة الدينية ، قد كانوا يستمتعون بقراءة قصص الحب التى كانت شائعة فى أيامهم ، ومنها ما عثر عليه فى دار المحفوظات بتبيتونس منشورا على قراطيس البردى كتفاخر « بتوباستيس » وما جاء فى قصة « ساتنى » • وبين الكتاب الذين كانوا يعملون فى « بيت الحياة » (دار العلم) ـ وكانوا من طبقات المتأدبين بحكم مهنتهم ـ من قام بانشاء أعمال أدبية مبتكرة ؛ ومن ذلك ما عرفناه حديثا فى مطلع أحد النصوص التعليمية من أيام الدولة الحديثة والذى كان منشؤه شماس يدعى « آمون نخت » • ولا يفوتنا أخيرا

تلك البقية من الأدب وهي مجمع أمثال (وجدت على قرطاس معروف باسم « بردية اينسنجر ») تلك التي عثر عليها فى تپتونس ؛ وهى تبين لنا أن مثل هذه الكتب التي قام بها كتاب من غير رجال الدين لم تكن قيمتها على الاطلاق مما يستهان به فى أوساط رجـــال الدين . واذا ما شككنا في أمر ذلك فحسبنا أن نذكر النصوص المنسوبة الى پتوزيريس ، والنصوص التي وجهت الى كهان أدفـو وسبق أن أوردنا طوائف منها .

ولم يخـــل الأمر فى بعض الأحيان من أن تغدو المعـــارف الكهنوتية ــ حاشا فى بعض المجـــالات النادرة ــ مجرد انعكاس للمعارف الشـــائعة التى تصـــدر عن طوائف الفنيين من الكتاب والعلماء فى المجتمع المصرى . بل حدث أن صـورت بعض الوثائق ذات الأهمية العلمية الخاصة ، بالاضافة الى بعض النصوص اللاهوتية ــ غير الدينية ــ صدرت عن أوساط لا صلة لها بدور العبادة .

وعلى الرغم من كل ذلك فاننا نجد أن تراث المعرفة المصرى قد أصبح مصدره مع الزمن لا يخرج عن الأوساط اللاهوتية . هذا وقد أعانت سائر الظروف على تكوين الكاهن المصرى تدريجيا بحيث أصبح أنموذجا للمفكر ورجل المعرفة . ومن هذه الظروف : التغيير العميق الذى أحدثه الاحتلال الاغريقى فى سائر وسائل الحيـــاة وبخاصة فى المصالح الأدارية ، وقد كانت فيما سبق مراكز الثقافة ثم الاتجاه تدريجا الى دار العبادة فى كـــــل ما تبقى من عادات المصريين وتقاليدهم . ومن هنا نستطيع أن نطمئن الى نظرة الرحالة الاغريق ــ التى سبق ذكرها ــ ثم الـــكتاب العرب الذين رددوا من بعدهم هذا الثناء . وفى امكاننا الآن أن نضيف الى ما استقام لدى هؤلاء وأولئك من فكرة عن المعارف الكهنوتية ، أن هذا العلم (علم الكهان) لم يكن مجرد تلاؤم بين أساليب فنية ، بل كان بحكم طابعه العالمى ، وما فيه من فكر فلسفى وأدبى انما يمثل ثقـــافة حقيقية مرموقة القيمة .

الباب السادس

حظ كهان مصر من السعود والنحوس

حظ كهان مصر من السعود والنحوس

كان بحثنا حتى الآن قاصرا على « كهـــان مصر » ، ونرى انه قــد آن لنا ان نتحدث قليلا عن التاريخ والكهنــوت بعـــد تلك الفصول التي عرضنا فيها لوصف خصائص تلك الطائفة من طوائف الشعب · وان ما ذكرنا عن الكهنوت وشروط الالتحـــاق به عن حياة الكهان الدينية والفكرية وعن معارفهم لا يعدوا ان يكون بحثا مجملا فى حياتهم برغم ما فيه من دقة · على أن هذا البحث الاجمالى الذى يتكون من عناصر متعددة من سائر عصور التاريخ ليرسم لنا صورة صادقة لطوائف الكهان قد تكون صادقة من الناحية الاحصائية ، ألا أنها لا تتضمن شيئاً من التفاصيل الشخصية ولا من التغييرات التى اقتضاها تعاقب الزمن · وذلك هو الجانب من حياة الكهنوت الذى نحاول تناوله الآن ·

لم يكن فى حياة المصريين الفكرية شيء أشد غرابة من امكان الفصل بين الدين والدولة · فلم يكن الدين عندهم مطلقا ظاهرة من الظواهر الخاصة التى تتوقف أهميتها على اختبار الأفراد ؛ فعند

القبليين فيما قبل التاريخ . كانت العقيدة الدينيـــة ، « أساس الحياة الاجتماعية والقومية » ، وكان زمامها فى يدى الحاكم • ومن أجل ذلك كانت حياة الكهان والثراء المتوافر فى أوقاف دور العبادة دائما رهن الظروف السياسية •

وفى مطالع التاريخ الأولى ؛ حين كانت القبـــائل تغير على الأقاليم وتغزوها ، كانت كل منها انما تفعل ذلك بقيادة زعيم وفى حماية معبود • وكان انتصار القبيلة يؤكد سلطان معبودها ويعظم من قيمته •

كذلك كان سلطان فرعون السياسى يزداد بازدياد قـــوة معبـوده • وكان الجزاء الذى يقابل ذلك من لدن فرعون انتظـارا لاســتمرار عطفه وولائه يتمثـل فى ثراء معبـده وكثرة ما يغدق عليه فرعون من مال وخدم • وتزداد أبهة البلاط الملكى وقيمتـه باتساع سلطان فرعون فى أعقاب الغزوات التى تسببت فى هـذا الاتساع ؛ وتبعا لذلك تتسع الرقاع فى أملاك المعبود • فالأرض كما نعلم قد كانت ملكاً للتاج ، وكلما وهب التاج جزءا منها ، للاله كان من وراء ذلك ازدهار الحيـاة المادية للكهنوت وضمان اتصام تقديم القرابين ؛ وفى ذلك كله اشراك للمعبـود فى مصـير أسرة فرعون السياسى . وانا لنسوق على سبيل المثال ما جاء فى تلك الملحمة الرائعة عن معركة قادش واستغاثة رمسيس بأبيه آمون حينمـــا حاصره جيش العـدو :

« ما الخطب يا ابى آمون .

أهناك والد يترك ولده (فى ساعة العسر) ؟

أو لم أقم لك الآثار الوفيرة •

واملأ دورك بالعبيـد والجوارى .

أني بنيت لك البيت العظيم الخالد (لملايين السنين) ·

ووضعت بين يديك أملاكي الحقة ·

وكرست سائر البلاد الأجنبية للقيام بخدمتك والتقريب لك ·

نحرت لك فيه عشرات الآلوف من الضحايا ، وأهديت اليك مختلف أنواع النباتات ذات الأفاويه الزكية ·

ولم أترك طيبا لم أزين به معبدك ·

وأقمت لك الصروح الشامخة ·

ورفعت عليها بنفسى الصوارى ذات الأعلام ، وأحضرت اليك المسلات من جنادل الفيلة ·

وأنا الذى قددتها من الجرانيت وقمت بنقلها ·

وتركت الفلك تجرى فى البحر بأمرك ·

لتحمل اليك الخراج من أقاليم الشعوب المتخلفة ·

ترى ماذا يقول الناس عمن والاك اذا نزلت به كارثة ··

·· اجز من والاك خيرا ، يخلص الناس فى عبادتك ويخدموك بحب » !

ومن ذلك كله نتبين أن فرعون قد كان يوسع فى أوقاف الاله وينتظر أن يعينه الأله لقاء ذلك فى السلم ، وينصره فى الحرب ؛ ومن هنا ارتبط ثراء دور العبادة المادى بنجاح فرعون السياسى ·

على أن ذلك الاثراء قد كان من شأنه أن ينقلب مع الزمن الى ما يهدد سلطان فرعون · وقد وقع فى بعض عهود الدولة الحديثة أن طغى ثراء كهان آمون على ثراء فرعون نفسه · وفى الاحصائيات الواضحة التى أوردها قرطاس « هاريس البردى » ما يشير الى ذلك فى جلاء :

فقد زاد من يعملون في خدمة آمون على ثمانين ألفا من الرجال وزادت رقعـــة أوقافه من الأرض على الفى كيلو متر مربع وكانت كلها فى أيدى كهان طيبة · وكان المفروض أن يرعى الاله فرعون ويؤيد ظفر أسرته ، وينشر رايات انتصاره حتى يبلغ بهـا أقصى حدود العالم المعروف يومئذ ، وكان على فرعون أن يشرك فى نتاج كل ذلك من يخدمون الاله من رجال الدين ، وكان ادراكهم كل ذلك يزداد ازديادا متصلا ·

وهكذا ظل تاريخ مصر الدينى يشق ســـبيله فى مختلف العصور بسلاح ذى حدين ، فالاله حليف أسرة فرعون يتمتع بلاطه بمجدها واهتمامها الرائع ، والأسرة نفسها ينبغى أن ترقب بحذر سلوك الكهان ، ذلك لأن شهوتهم الى النراء لا تكاد تنطفى ، ومطالبهم لا تكاد تقف عند حد · فالولاء للاله وملء رحابه بالهدايا والاكثار من المعابد التى تحمل اسمه وتقيم مجده قد كان يمثـــل الموقف الشرعى لابن تجاه أبيه ، ففضلا على أنه لم يكن يخل من مصلحة (أى أن فرعون قد كان ينتظر عليه أجرا) · على أن مجتمع الكهان القائم على خدمة الاله والذى كان عدده فى ازدياد مستمر ، وقوته فى نمو من شأنه أن يجعل هذا المجتمع دولة داخل الدولة ، دولة لها خطرها على فرعون بحيث تستطيع فرض ارادتها اذا اقتضى الأمر · وانه لمجتمع له خطره وفى وجوده مجازفة ذات أثر بالغ . فاذا ما نحن نظرنا فى بعض فقرات التراث التاريخى الى الانطلاق المتتابع الذى كانت تقوم به طوائف المجتمع الكهنوتى ، فسنعرض بالطبع للجهود المتصلة التى كانت تبذلها السلطات المركزية فى مراقبة الطغـاة من رجال الدين ، ثم نكشه خلال ذلك عن بعض الأزمات الكبرى التى نشأت نتيجة لتلك المقاومة المستترة ·

ترى ما حقيقة حياة المجتمعـــات القبلية التى سبقت العصر التاريخى (عصر ما قبل الأسرات) ومدى نتائج كفاحهم ، ثم ما غشى

مجال العبادة لديهم من تدخل جغرافى ؟ هذا أمر ليس من السهل أن نخوض في الحديث عنه • ذلك لأن تحديد المناطق التى عثر فيها على آثار عبادة اله ما ــ على ضوء خريطة منظمة لتتتبع استمرار حياة دولة سبقت العصور التاريخية وكانت قد نشأت تحت راية ذلك الاله ثم ضعفت بعد لأى وأخذت تنقسم الى ايالات متعــددة ــ انما يعتبر من أشق الأمور وأصعبها • ذلك فضلا عن أن محاولة تصوير عصر ما قبل التاريخ من العقائد الدينية فى كل من دلتا مصر وصعيدها ، يقتضى نقل الصراع الدينى الى الحياة التاريخيــه العامة ــ وهو صراع صورته لنا متون الأهرام التى دونت أيام الأسرة الخامسة • تلك محاولة ــ لو أقدمنا عليهــا ــ رائعة الا أنها لا تخلو من مجازفة كبيرة • ولقد استطاع العالم الألمانى « كورت زيته » ــ الذى اتصل بتلك المتون وتعمق دراستها ــ ان يبنى على ضوئها تاريخا لمصر طويلا يسبق أيام مينا وأقام بناء فكرته التاريخية تلك على أساس آيته أن متون الأهرام تصور طقوسا دينية قديمة يرجع عهدها الى ما قبل أيام نقشها على الآثار الجنائزية للأسرة الخامسة بعدة قرون ، ويرى أن ما فيها من اختلاف يرجع الى ألوان الصراع السياسى التى عانته تلك الدول القديمة • ويخلص من ذلك بأول محــاولة تهدف الى التوحيد فى شمال الدلتا بين مملكتى حورس وأوزيريس اللتين انطلقتا متحدتين تحت راية واحدة لغزو الصعيد ومن فيه من اتباع « ست » وتلت هذه الدولة المصرية الموحدة دولة ينتظمها مذهب عين شمس الدينى وكان لا يزال رخصا فى أول عهــــده

واستطاعت دنيا المصريين فيه أن تجتمع كلها تحت راية اله الشمس « رع » وتتلو ذلك محاولة ثالثة لتوحيد البلاد تحت راية « حورس » تقوم بها ممالك متفرقة في صعيد الوادى زاحفة بها الى دلتاه التى أضحت هى الأخرى تحت راية حورس • وقد أدت هــذه الأخيرة التى سبقت العصر التاريخى بوقت قصير الى تلك الغزوات الحاسمة

التى قام بهـــا كل من الملكين العظيمين الملك « العقرب » والملك « مينا » ٠

تلك هي الصورة التى رسمها العالم الألمانى « كورت زيته » ، ويستطيع المرء أن يتصور ما يقتضيه بناء الدولة على النحو الذى بينته تلك الصورة من جهود لايخلو تصورها من شك واحتياج الى منطق الحـوادث ، اذ ليس هنـــاك ما يمكن أن يثبت بالبرهان المبين ـ حاشا ما يتراءى بين الحين والحين من تطور فى كتابة اللغـة وقواعدها ــ ان الطقوس المختلفة التى تعد أساسا لبنـــاء متون الأهرام ، يرجع تكوينها الى مراحل تاريخية مختلفة ، ثم هى بنوع خاص قد رسمت وعبرت فى أسلوب أســطورى عن صدى كفاح الدويلات التى عاشت فى مصر قبل ألفى سنة تقدمت عصر تدوينها ٠ ويحاول بعض العلماء فى الوقت الحاضر الرجوع بمتون الأهرام الى زمن أبعد ، راسمين للوقائع التاريخية خطوطا متتابعة دون استبعاد اعادة ترتيبها ٠ ولعل الآثار أن تكشف لنا ــ فى وضـــوح أكثر ما يتيحه لنا تفسير النصوص الدينية ــ عن الأسس النظرية التى تمهد يوما ما الى الاحاطة بتاريخ تلك الحقب البعيدة ٠

وأيا كان مصير تلك القبائل التى عاشت فيما قبل التاريخ فان بعض المعبودات قد أفادت يومئذ من تقدم اتباعها ومدى نجاحهم ٠ فالمعبود حورس (الصقر) رب ، « نحن » فى صعيد مصر وحامى « بحدت » فى الطرف الغربى من دلتا الوادى ، ظل طوال عصور الحضارة المصرية رب الأسرة الحاكمة ، يحمى فرعون كما يتضمن اسم فرعون ولقبه ما يثبت صلته بهذا الاله ٠ وآية ذلك ان ينقش اسمه داخل رسم لقصر الحاكم يعلوه ذلك الطائر المقدس ٠

رع اله الشمس :

ومن الأرباب التى نالت فى مجـال العبادة وبلاط الحاكمين شهرة عالمية اله الشمس. فلما أنشئت عاصمة مصر المتحدة «منف» عند رأس الدلتا بذلت محاولات وجهود مؤقتة فى سبيل رفع راية المعبود « ست » اله الجدب والمعبود الجديد « بتاح » بغية وصلهما بالأسرة الحاكمة ، الا أن هذه المحاولات لم تظفر بنجاح . ولم يلبث مذهب عين شمس الذى قام تحت راية الشمس أن فرض سيادته على الدولة فرضا ، فبانت أولى آثار ذلك أيام الملك زوسر (حوالى ٢٨٠٠ ق.م) ولم يمر على ذلك العهد وقت طويل حتى فرض المذهب نفسه على الدولة فرضا ، وبدأ الملوك أنفسهم يجهرون بذلك كما أصبح من ألقاب فرعون «ابن الشمس» وغدا لقبا دائما بين ألقابه . وفى القصص المنسوب الى أيام الأسرة الرابعة (٢٧٢٠ الى ٢٥٦٠ ق . م) ما يشير الى أن ورثة هذه الأسرة قد كانوا من ولد الشمس وتصور القصة مولد أولئك الورثة فى قرية صـغيرة فى غـرب الدلتا . ومنذ عهد الملك « ساحورع » (حوالى ٢٥٠٠ ق . م) بدأ سائر الملوك يجعلون اسم ذلك المعبود فى بناء أسمائهم . وفى قيام معابد الشمس على ضفة النيل الغربية وشغف الملوك ببناء قبورهم فى شكل هرمى وظهور اسم « رع » (الشمس) فى أسماء الأعلام وذيوعه فى النصوص ما يدل على انطلاق ذلك المذهب الشـمسى وانتشاره تحت رعاية فرعون .

أوزيريس :

وهناك معبود آخر عرف منذ أبعد العصور فى دلتا الوادى ولم يلبث أن ذاعت شهرته فى أنحـاء البلاد جميعا . ولم ترتبط شهرته وانتشار عبادته بمكانة أتباعه السياسـية ، بل ارتبطت بالطابع الجنائزى الذى اتصف به . ويرجع الكتاب والمؤرخون بأصله

ونشأته الى « بوصير » فى دلتا الوادى ولم يكد يستقر فيها حتى ضم اليها ومن حولها مملكة واسعة الأرجاء يعيش فيها أتباعه · وقد استطاعت شهرته أن تغمر دنيا المصريين كلها فى بعض العصور · ولما كانت أيام الأسرة الحادية عشرة (حوالى ٢٠٥٠ ق·م) أصبحت أبيدوس كعبته الكبرى · وظل طوال التاريخ المصرى يعتبر أكبر أرباب الموتى ، يكفل لهم بعد الموت حياة أخرى · ويبدو من سيرة هذا المعبود ان كهانه الذين كانوا وقفا على خدمته وكانوا من أصحاب الشهرة العالمية ، قد اكتفوا بشهرة معبودهم الشعبية وما نشأ حوله من معتقدات ، فلم تظهر لهم أطماع سياسـية كتلك التى ظهرت لنظرائهم من كهان الأرباب الأخرى · وكان لقناعتهم تلك أثرها فى تاريخ هذا المعبود ، وحسبها أنها جنبت تاريخه مصير تواريخ أرباب أخر كانت شهرتها رهينة ببقاء من ارتبط بها من أصحاب العرش · وفى أواخر عصور التاريخ المصرى حين أصبحت هليوپوليس القديمة مدينة مهجورة وحين غدت طيبة أطلالا ينعى بعضها بعضا ذاعت عبادة أوزيريس وأخته وشريكته ايزيس ذيوعا منقطع النظير ، فتخطت مصر الى الجزر اليونانية ثم عدتها الى روما وتجاوزت روما الى غابات جرمانيا · هذا ولم يكن بين دور السادة المخصصة فى مصر لمختلف المعبودات واحدة يخلو من مزار أو مصلى لرب الموتى أوزيريس والاحتفال باقامة الشعائر الخاصة ببعثه ·

آمـون :

لم يكن لآمون من مكان يلفت النظر فى عصور مصر القديمة ، وانما بدأت شمسه تشرق مع مطلع أيام الدولة الوسطى ، فهو رب أئمة الملوك فيها ، ولا أدل على ذلك من أن اسمه دخل فى بنـاء أسمائهم ملوكا · وحسبنا مثلا لذلك اسم « امنمحات » وتجلى آمون على مسرح الأحداث فى مصر ، فهب أصحابه لمقاومة الغزو الأجنبى وبخاصة أيام الهكسوس · وظل آمون بهالته الرائعة حتى استحق

بجدارة لقب « ملك الآلهة » • وكانت كعبته « طيبة » التى قامت شهرتها العالمية تحت رايته ، ثم هو حامى الذمار وهو المحلق فوق عرش فرعون فى طيبة •

واثرى عالم الكهان من حوله بكثرة ما كوم الملوك من أمثال أمينوفيس وتحتمس فى بلاطه من كنوز الوادى وما حوله من أقاليم الأرض • وبلغ نفوذ كهانه فى طيبة من الثراء وقوة النفوذ واتساع السلطان ما لم يبلغه أمثالهم فى العالم المعروف يومئذ • وطغت شهرة آمون فعمت البلاد بحيث لم يعد لأرباب الأقاليم القديم منها والحديث شىء من قوة الا فى بلاطه وتحت رايته •

النضال والتنافس على الامامة والأزمات التى نشأت عن ذلك أيام الدولة الحـــديثة :

ظل فرعون على الدوام بوصـــفه الموجه الرســـمى الوحيد للعبادات ــ الزعيم الروحى لما يمارس فى المعابد من شعائر • وبرغم ذلك ظل سلطان الأرباب الزمنى يقتضى اشرافا لا يستطيع الملك أن يمارســـه • ومن أجـــل ذلك ظهـــر منصب « المشرف على الوظائف الدينية كلها » منذ أيام الدولة القديمة يشغله أحد أعضاء الأسرة الحاكمة ثم يئول الى الوزير من بعد ذلك ، وكان ذلك المنصب يتيح لصاحبه ــ ممثلا للسلطة المركزية ــ ممارسة سلطان أعلى على رجال الدين والمعادلة بين نفوذهم كلما أقتضى الأمر •

على أن سياسة القصر أواخر أيام الدولة القديمة قد ضعفت وأدى ضعفها الى انحلال ادارى وسياسى • وســـارع حكام الأقاليم فوضعوا أيديهم على كل ما اســـتطاعوا ومن ذلك أمور العبادة فى أقاليمهم • وليس غريبا بعد ذلك أن نجد بين ألقابهم لقب « رئيس الكهان » وبذلك أصبحت ادارة المعابد تحت أيديهم •

وظهـــر فى أيام الدولة الحديثة منصب « رئيس الكهان فى الجنوب والشمال » وكان له من النفوذ ما يعادل ســلطات وزير يشرف على أمور العبادات فى مصر كلها ويتمتع بنفوذ دينى حقيقى . ولقد كثرت الأطماع حول هذا اللقب وامتدت النفوس اليه ، فكان من نصيب كبير الوزراء أول الأمر مما أدى الى تأكيد السيطرة على الادارة المركزية بحيث أصبح السلطان الزمنى للآلهة بيـد الملك ، على أن كهان آمون قد جدوا فى السعى وراء هذا المنصب حتى بلغوه فكان من نصيب كبيرهم . وبذلك يتضح لنا ما كان لمعبودهم آمون من مكان فى الدولة وما كان لكهانه من أثـــر فى توجيه الحيـــاة السياسية فى البلاد . وتبدو مطامع هذا النصر فى عهد تحوتمس الثالث . وأكبر الظن أن الكهان استطاعوا أن يبلغوا غاية قوتهم فى ذلك الوقت ، ولكن أمرهم قد انتكس وبدأت المحنة ترسم خطوطها حتى كادت تودى بكهان آمون وتهبط بهم الى الهاوية .

مطالع الردة الى عبادة الشمس :

وبدأت مطـــالع الردة فى أيام تحوتمس الثالث (١٤٨٣ ـ ١٤٥٠ ق.م) . وكانت هذه الردة تهدف الى احياء المذهب الشمسى الذى نشـــأ قديما فى عين شمس ثم أهمـــل أمره دهرا حتى كادت عبادة آمون تنسى الناس اياه . وكانت مسيرة الردة أول أمرهـــا بطيئة فلم يظهر فى أمر الســيرة الدينية شىء من تناقض واضـــح ففرعون قد جدد بناء مجموعة ضخمة من دور العبادة التى هدمهـــا الاهمال فى الأعوام الأخيرة ، لكأنما أراد بذلك أن يعبر عن رغبته فى رد الحقوق الى المذاهب الدينية التى لا تتصـــل بآمون . ونالت دور عبادة الشمس نصيبا كبيرا من حركة الاصلاح وفى اعادة بناء معبد الشمس القديم فى قرية « صخبو » بالدلتا دليل على الاتجـــاه الى الردة التى أخـــذ أمرهـــا ينمو مع الزمن ، فأمينوفيس الثانى وتحوتمس الرابع قد بذلا جهودا واضحة فى احياء بعض العبادات

فى اقليم منف ، من بينها عبادة « حور أختى » (التى يرمز اليها بمثال أبو الهول بالجيزة) • وفى عهد أمينوفيس الثالث فقد كهان آمون ذلك المنصب الخطير وهو منصب « رئيس كهان الجنـــوب والشمال » فلم يستطيعوا له ردا الا فى عهد رمسيس الثانى وان كانت القطيعة بين أصحاب آمون وأصحاب مذهب الشـــمس قد وقعت فى أيام أمينوفيس الرابع •

أزمة العمارنة :

لن يعدم الباحث الوسيلة لعرض صبا « أمينوفيس الرابع = اخناتون » فى أسلوب قد يرضى عقـــول العلماء ويشبع رغبـــة الاستطلاع لدى القراء • فالغرابة فى تصوير الرسوم الملكية بشكل غير مألوف يكاد يكون مزيجا من رقة تسببها العـــلة أو مس من الشيطان • وهناك ذلك السحر الذى ينبعث من صـــورة الملكة نفرتيتى والذى لا يعتبر مصريا صميما ، ثم تلك الألفة بين أفراد الأسرة الحاكمة كما تبدو فى الرسوم التى تصور حياتهم والتى أولع رجال الفن بابرازها ابرازا مؤثرا ، ثم ذلك الوحى بأسلوب صلوات الشمس وهو أسلوب أكسبها حياة قوية مؤثرة • وان فى ذلك كله ما يقدم لنا صورة قوية لأزمة العمارنة فى عصر من عصور التاريخ كنا نعتقد أننا نعرفه معرفة حقه • وأنه لحدث تاريخى ونفسى قد لا نهتدى الى فتح السبيل لمعرفته الا بعد وقت طويل • ترى هل كان لونا من رد الفعل السياسى ؟ أو نزعة من نزعات النفوس الحساسة المرهفة الحس وشعورا دقيقا باتجاه دينى جديد يهـــدف الى الحب والتآلف أكثر مما يهدف الى عبادة رسمية ؟ أم كان خلافا بين رجال الدين ؟ لقد عرض الكتاب والمؤرخون لكل لذلك • ولكل تصور منه نصيب من الحقيقة ، الا أن شيئا منها لن يستطيع أن يكون مفتاحا لتفسير كل الوقائع •

مهما يكن من أمر ، فالثابت الذى لا يقبل الجدل هو أن أمينوفيس الرابع (اخناتون) قد هجر طيبة وهجر معبودها آمون ملك الآلهة الى مدينة جديدة قام هو بانشائها فى مصر الوسطى (مكانها الآن تل العمارنة الحالية) ، وجعلها كعبة لالهه الذى آمن به ورآه فى قرص الشمس الذى يملأ الدنيا بأشعته فيخال فيها أخناتون ألوفا من الأيدى تمتد الى الكائنات بالحياة . لم يكن ذلك المذهب الذى ظهر بين يدى اخناتون مجرد مظهر جديد للتقوى يمكن أن يتلاقى مع ما سبقه من مذاهب وانما كانت عقيدة مفـردة لا ترضى أن يـكون بجانبها عقائد أخرى ، فغلقت دور المعـــابد وألغيت فيها العبادات ومحيت منها أسماء المعبودات ، وأقيمت للمذهب الجديد فى كل مدائن مصر - حتى فى الكرنك والى جوار معبـــد آمون - معـابد أخرى ....

وكانت وفاة أمينوفيس الرابع ايذانا بنهاية المذهب الجديد فهذا سلفه الشاب توت عنخ آمون يهجر عاصمة الدين الجـــديدة « أخت أتون » أى « أفق أتون » ويعود الى طيبة فيصدر مرسوما بالغاء كل ما اتخذ من اجراء فى عهد سلفه ضد المذاهب القديمة . وبعد عشرين عاما من الصبر والتربص عاد كهان آمون الى سابق مجدهم بل أصبحوا أقوى مما كانوا فى أى وقت ســـبق . ولكن سرعان ما وجدوا أنفسهم مرة أخرى أمام خطر منافسين جدد .

حادثة ست :

وحين أخذت الأسرة المالكة الجديدة بزمام الحـكم اهتمت برد الأمور الى حوزة النظام . وقد كان لديها من الأســـباب ما يكفى ليجعلها على حذر من كهنة آمون . وقد نسل الملوك الجـــدد أسرة محاربة فى شرق الدلتا ، وتدين دين معبود حظه من ولاء جمـاهير الشـــعب ضئيل بسبب الدور الذى اضطلع به فى مصرع أخيـــه

أوزيريس ، ومع ذلك لم يفقد نصيبه من العبادة فى بعض أماكن متفرقة وذلك هو الاله « ست » • ولقد أظهرت تجربة العمارنة ما يمكن أن تؤدى اليه القطيعة بين أصحاب العقائد التى يدين بها الناس فى الدولة ، فهى لا تؤدى الى الدخول فى حرب سافرة ضد هيئة دينية لها من القوة الفعلية ما للملكية نفسها • ومن أجل تغير السلوك السياسى فى عهد كل من سيتى الأول (١٣١٢ ـ ١٣٠١ ق • م) ورمسيس الثانى (١٣٠١ ـ ١٢٣٥ ق • م) عن سلوك أسلافهما ، فلم تمهل طيبة بل اتصلت بها اقامة المنشآت وارتفعت المبانى الشامخة تمجيدا لآمون وما زالت آثار ذلك باقية فى الكرنك (صالة الأعمدة) وآثار معبد سيتى فى القرنة ومعبد رمسيس الثانى فى الرامسيوم • ولم يهمل رمسيس اقليم أبيدوس فبنى فيها وعمر واختار منها رئيسا لكهنة آمون وعطف على العبادة فى منف وهليوبوليس كما عين اثنين من أبنائه هما « مرى أنوم » و « خع أم واست » كبيرين للكهنة ، أولهما لكهنة رع والثانى لكهنة بتاح • وتشير كثرة عمائره الى رعايته المتزايدة لآلهة الجنوب والشمال • وحين أقنع نفسه بما أدى فى هذه الناحية ، هجر طيبة وكهانها الجشعين الى عاصمة أقامها فى شرق الدلتا وسماها « بررمسيس » وفيها استطاع مطمئنا أن يرعى عبادة رب آبائه الأولين بحيث ظهر آمون وكأنه غدا صاحب المرتبة الثانية •

وبرغم كل ما بذل من عناية ورعاية لتلك الارباب الثلاثة الكبار (آمون ورع وبتاح) لم تخف عناية كل من سيتى وولده رمسيس بمعبودهما الأصيل « ست » ، وان كانا قد فعلا ما فعلا فى حكمة وحذر بالغين ، فقد كانا يدركان ما تنطوى عليه قلوب الجماهير من كره « ست » الذى كان قاتلا ومسئولا عن مصرع أوزيريس • وقد كان لما قام به الملكان سيتى ورمسيس من عمل فى هذا الشأن ما أرضى قلوب الاوزيريين • فقد بادر أولهما الى بناء

معبد رائع لأوزيريس في عاصمته أبيدوس ، وفعل ولده رمسيس مثل ذلك ، ثم بالغ فاختار من هذه المدينة كبير كهان آمون · فلم يفكر أهلها — حين رأوا اهتمام الملكين بمعبود أسرتهم «ست» — في أن في ذلك ما يشير الى اهمالهما ، وانما اعتبروه اهمالا لأصحاب آمون · وقد تلقت العواصم الاقليمية التي كان يعبد فيها «ست» منذ الأزمان الغابرة مثل كوم امبو وتجبو (١) وسبرمرو (٢) بعض الأبهة الجديدة نتيجة للاهتمام الذي لقيه اله شرق الدلتا · وزهت «بررمسيس» العاصمة الجديدة بخاصة بما عاد اليها من مظاهر الحياة الدينية التي سبق أن أحيط بها ست في مدينة الهكسوس «أواريس» ·

وهكذا توصل « سيتي ، ورمسيس » — بعد قطع الصلات بآمون — الى التقليل مما كان له من خطر ، كما أفاد اهتمامهما العظيم بأوزيريس ورعايتهما اياه في تخفيف موجة الكره التي كان يحملها الناس في صدورهم للمعبود «ست» الذي حظي في بعض الاقاليم بشيء من الرضا · كان ذلك نتيجة لوعي سياسي رائع لم يدم في زمن من خلفوا هذين الملكين ، سيتي الأول وولده رمسيس الثاني ·

ولم يخف على التابعين من كهان آمون ما استتر وراء ظهور «ست» والرعاية التي حظي بها كل من المعبودين رع وبتاح في شمال الوادي · فهم قد كانوا يدركون ما ملأ قلوب الحاكمين من ريبة في خطر آمون وأصحابه ، فالايام كانت لا تزال تذكر ما كان لهذا الخطر من أثر مقلق أيام أزمة العمارنة ·

---

(١) اسم قرية بالقرب من أسيوط تحمل الآن اسم «العثمانية» (المترجمة) ·

(٢) عرف اسمها من الأساطير ، اذ كثيرا ما اقترنت باسم الاله ست · لم يعرف مكانها على وجه الدقة الا أنه يمكن تحديدها الى الجنوب من البهنسا (المترجمة) ·

ولم تشأ ظروف الحياة يومئذ أن يطول قلق كهان آمون فتم لهم انتصر واستردوا ســـلطانهم الأول ، ذلك لأن اهتمام الأسرة الجديدة بعبادة « ست » لم نعمر أكثر من عشرة أعوام ، استيقظ الكره على أثرها فى النفوس ، وعادت اليها سيرته البغيضة وصورها التى تبلورت جميعاً فى مصرع أوزيريس ، وفيما سببه ذلك من توالى المحن الدينية السياسية تنزل بالبلاد تبـاعا خـــلال القرون التى ختمت على تاريخ مصر الوطنى بدخول الاسكندر ٠

الملوك الكهان :

كان لخروج كهان آمون من المحنتين الخطيرتين (أيام العمارنة وفى صدر أيام الرعامسة) من ناحية ، ثم للفتور الذى بدا واضحا فى النشاط الســـياسى الذى شمل حيـــاة الملوك من أواخر أيام الرعامسة من ناحية أخرى ، أثر بالغ فى تغيير سيرة التاريخ ، فهم ــ على الرغم من ظهورهم بمظهر الحماة المؤيدين للملوك ــ قد كانوا يسعون الى السلطان ويمـدون آمالهم الى العرش مدا قويا ٠ وآية ذلك آنهم لم يروا فى سبيل رفع كبـــيرهم على العرش من الموانع والعوائق ما يحـول دون ذلك ٠ واذا كانت محـاولتهم الأولى قد فشلت ــ حين استطاع رمســـيس الحادى عشر أن يطيح بكبيرهم أمنحتب ــ فان الوقت لم يطل عليهم فى العودة الى مواصلة جهودهم فى هذه السبيل ، فلا يكاد « حريحور » أحد كبار العسكريين يبلغ منصب كبير الاحبار حتى انطلق الى غزو القصر مؤيدا بقوة الجيش وسائر رجال الدين ، وأن يبلغ العرش فيقاسم من عليه حكم البلاد ، ولم يلبث سلطان الملك حتى أخذ ظله يتقلص لينمحى ، وآية ذلك أن يظهر اسم « حريحور » مرســـوما فى « خرطوش » ٠ وتمضى الأيام سريعة فيدال من الملوك الى الكهان ٠

وأظهرت الايام أن قضاء التاريخ قد أراد لسلطان مصر أيام حكم الكهنة أن يكون فى ميزان مختل ، فالدنيا قد عرفت لمصر

نشاطها السياسى وخطرها العسـكرى فى الخارج منذ أيام نهضتها المعروفة ، وها هى اليوم خلال حكم الأسرة الواحدة والعشرين تفقد هيبتها نظرا لانعدام ذلك النشاط ، وتظهر آثار ذلك فى الشرق والجنوب ، وانقطع عن مصر مددها المادى الذى كان يأتيها تباعا . وتجرى أمور الحكم فى مصر بين أيدى الكهان تحت راية ربهم آمون، فباسمه تصدر المراسيم ، وباسمه تظهر النبـــوءات التى تستكين الناس بها لسائر ما يطرأ على حياتهم من أمور الدنيا .

وتجرى الايام بالناس ويتنافس رجال الدين شـمال الوادى وجنـــوبه ويفيد كهان الشمال من هــــذا التنافس ويظهر كهان «باستت» فى سايس ويفتر نشـاط نظرائهم من أصـــحاب آمون فيأخذهم من الحيـــاة سبات عميق وقد كان لخلق نظام سلطان من سموها «الزوجة الالهية» أثر كبير على اضـــعاف سلطـان الكهان وبخاصة بعد أن أصبح أمر الخلافة فيه يقوم على الانتخاب . ولا يلبث الامر حتى يضيع بين أيدى رجال السياسة الوطنيين وسلطان الغزاة الاثيوبيين من بعد ذلك تليهما سلطة الصاويين .

القرون الاخيرة من تاريخ مصر القومى :

أبدى ملوك الأسرة الحـديثة اهتمامهم بطائفة من المعابد مثل معابد سايس – وهى عاصمتهم الأولى – وبسائر المعابد الأخرى فى العواصم والقرى . وقد اتبع فى شأنها نظام ثابت من حيث تزويدها بضياع من الأرض ، فضلا عن اعفائها من الضرائب . ولم يكن لديهم بعد ذلك ما يدعو الى الخوف من هذه المدن الصغيرة التى زادت عددها زيادة كبيرة ، ولامن منافسة بعضها بعضا فى سبيل الثروة والاثراء . وعلى العكس من ذلك كانت منطقة طيبة البعيدة تشكل خطرا حقيقيا على سلطان القصر ، وطمع ملوك العصر الصاوى فى تطبيق حقهم فى الاشراف على حياة الكهان فيها تطبيقا عمليا ظهر أثره فى اختيار

أميرات من الشمال لشغل منصب « الزوجات الالهيـات » ، وفى تعيين شخص آخر الى جانب رئيس كهنـة آمون · وبذلك استطاع الملك أن يسترد سلطانه فى الاشراف على المعابد ، وفى ذلك ما يبين عودة السلطة الدينية الى يد فرعون ، وان لم يكن لدينا ما يشير الى مصير الكهنة المصريين خلال القرون السادس والخامس والرابع قبل الميلاد ولا مدى قدرتهم الفعلية وآمالهم فى استرجاع سيادتهم على البلاد · وغدت طيبة فى حالة اضمحلال واضح ، فعمليات النهب التى قام بها الآشوريون عام ٦٦٣ ق٠م ثم سيطرة الملوك الصاويين على أمور العبادة فى البلاد قد هونت أطماعهم · وزادت مظاهر اهتمام الشعب بعبارات أخرى مستندة الى تأييده المتصل ، وبخاصة عبادة أوزيريس وايزيس وأصبحت لعبـادتهما مصـليات فى كل مكان تقريبا · وفى زمان الأواخر من الملوك الوطنيين من آل « نقطانبو » بدىء بتنفيذ برنامج ضخم لتشييد العمائر الدينية · ونالت العمائر الدينية تباعا حفها من الرعاية ، فأقيمت لها الأبواب الجديدة وضربت من حولها الاسوار · كما أخذ العمـل المعمـارى يجرى فى نشاط متصل وبخاصة فى معبدى ايزيس فى فيـلة وبهبيت الحجر · وبذلك بدت مصر وقد استكملت مظهرها المعمارى عنـدما غربت شمس حياتها القومية بدخول الفرس ودخول الاسكندر المقـدونى فى أعقابهم عام ٣٣٢ ق٠م ·

العصران الاغريقى والرومانى :

ترى كيف كان مصير كهان مصر أيام الحكم البطلمى ؟ سبق أن أشرنا الى غرابة التبادل المادى الذى تضمنته الصلة بين الملوك والكهان ،فقـد ظل هؤلاء أقوياء بحيث كانوا يستطيعون خدمة السلطة المركزية بطريقة فعالة ، آيتها تأكيد حق الملك الشرعى فى قلوب الشعب مقابل ما يمنحهم الملك من امتيازات مادية ضخمة ·

على أننا نرى فى الصور التاريخية للعلاقة بين الدين والدولة أيام البطـــالة رغبة الدولة المتصلة فى التمييز بين الآلهة ورجال الدين فهى تعطى من تشاء وتمنع من تشاء · ولم يسكت الكهان بطبيعة الحال ، بل جاهدوا حتى انتصروا وكانت لهم الكلمة آخر الامر · كانت للمعابد أوقاف متســـعة من الارض الا أن ادارتها وتحصيل غلاتها أوائل عهد الحـكم البطلمى لم تكن بأيدى الكهان ولكنهم قد جاهدوا حتى استردوا الحق · وقد صدر بذلك مرسوم عام ١١٨ ق·م هذا نصه : «ليس لأحد الحـــق فى أخذ ما كان من وقف الآلهة ، أو تعذيب من يكلف بتحصيل أيرادات هذا الوقف ، ولا حق رفع قيمة الضرائب ، ولا حق تحصـــيل ضرائب ·· على ما أوقف للأرباب من أرض ، ولا ادارة مساحات الأوقاف المقدسة أيا كانت الأسباب ، بل ينبغى أن تترك ادارتها للكهنة » · ومن ذلك نرى أن الملك قد رجع عن أطماعه فى موارد الكهان وفى أوقاف المعابد المقدسة ، وبدخول الرومان الذين غزوا مصر عام ٣٠ ق·م زال سلطان الكهان الذاتى ، وذلك بوضع معابد مصر تحت اشراف « الايديولوچى » وهو « كبير كهان الاسكندرية ومصر جميعا » فكان هو الذى يصدر أوامره الى منفذى الخطط العسكرية كافة والى من عليهم تنفيذ بقية الأوامر وكانوا كلهم خاضعين للسلطة المركزية · وقد ظل هذا النظام قائما الى أن صدر قرار الامبراطور النصرانى « تودوزيوس » (٣٨٤ للميلاد) باغلاق معابد مصر جميعا · وبذلك ختم على عهود الوثنية القديمة فى مصر ·

إرشادات تاريخية

التاريخ	التاريخ الرسمى	الوقائع الدينية
٣٠٠٠	مينا أول ملك	
٢٨٠٠	الأسرة الثالثة : « زوسر »	الهرم المدرج بسقارة بداية العمارة الحجرية .
٢٧٠٠ ـ ٢٦٠٠	الأسرة الرابعة : « خوفو » و «خفرع» و « منكاروع »	اهرام ومصاطب الأفراد (قبورهم) بالجيزة .
٢٦٠٠ ـ ٢٤٠٠	الأسرة الخامسة	أهرام صغيرة بسقارة وهيلوپوليس وديانة الشمس .
٢٤٠٠ ـ ٢٠٠٠	الأسرات من ٦ الى ١١ نهاية الدولة القديمة وعصر الاضمحلال الأول « ثيودوسوس » النصرانى	ازدهار الديانة الأوزيرية التى أصبحت أبيدوس مركزا لها وظهور متون التوابيت .

التاريخ	التاريخ الرسمى	الوقائع الدينية
٢٠٠٠ ـ ١٧٥٠	الأسرات من ١٢ الى ١٤ : الدولة الوسطى : الملوك أمنمحات وسنوسرت	أهرام الفيوم بحيرة مويريس ـ الابيرنت ـ ظهور الاله آمون ـ الاهتمام بآلهة الفيوم .
١٧٥٠ ـ ١٥٨٠	عصر الاضمحلال الثانى واحتلال الهكسوس مصر ثم النهوض مرة أخرى	
١٥٨٠	الأسرة ١٨ الملوك امنحتب وتحوتمس	ازدياد السلطان الزمنى لآمون اله طيبة .
١٣٧٢ ـ ١٣٤٣	أمنحتب الرابع ـ آختاتون . نفرتيتى توت عنخ آمون .	صبأ العمارنة : العبادة الوحيدة لآتون قرص الشمس .
١٣٤٣	القائد حور محب	ردة الى المذهب الأصيل
١٣١٤ ـ ١٠٨٥	الأسرتان ١٩ ، ٢٠ ـ الرعامسة	الاهتمام بالاله ست ورع رب هليوبوليس وبتاح رب منف
١١٠٠	أواخر الرعامسة	نهب المقابر الملكية ، استيلاء كبار كهان طيبة على السلطة
	الملوك الكهان والأسرات الحاكمة فى الدلتا .	نبوءات ومراسيم الهية . نمو طوائف الكهان المحليين وبخاصة فى الدلتا .

التــــاريخ	التاريخ الرسمي	الوقائع الدينية
٧٣٠	الغزو الأثيوبي	
٦٦٣	الأسرة ٢٦ (الصاوية) : اعادة غزو البلاد •	الأشوريون يخربون طيبة • الاهتمام بأرباب الدلتا « نيت » و «أيزيس» و « أوزيريس » • العـــــودة الى القديم •
٥٢٥	الغزو الفارسي	تزايد الاهتمام بتقدير الحيـــوانات المقدسة والسحر الشعبي •
٤٠٠ – ٣٤٠	الأسرات من ٢٨ الى ٣٠	اعادة بناء معابد مصر •
٣٤١ – ٣٣٢	الاحتلال الفارسي الثاني	
٣٣٢	الاسكندر يغزو مصر ملوك البطالمة	بناء أكبر المعابد : ادفو وفيلةوبهبيت واســـنا ومداموود وكوم امبـــو ودندرة • عبادة سيرابيس •
٣٠ ميلادية	مصر في حوزة الامبراطورية الرومانية	
٣٨٤ »	« ثيودوسيوس » النصراني	اغلاق معابد مصر

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٣١٦٦

الثمن ٦٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب